**جامعة طرابلس**

**كلية الآداب**

**قسم التاريخ**

**الدراسات العليا/ شعبة التاريخ الإسلامي**

**رسالة ماجستير**

**في التاريخ الإسلامي بعنوان**:

# حركة الجهاد الإسلامي ضد الغزو والاحتلال الإفرنجي ـ الصليبي

## (490 - 569هـ/ 1097- 1176م)

**إعداد الطالبة**:

**آمنة عبد السلام رمضان الساحلي**

**إشراف** : **أ . د جمال محمد سالم خليفة**

**العام الجامعي** 2022/ 2023م

بسم الله الرحمن الرحيم

{وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ }

صدق الله العظيم

**سورة الانفال الاية 60**

## الإهداء

**إلى مَن سجد؛ راجيًا المولى نجاحي. إلى مَن مقامه عندي بصدري مختلجًا بعد مقام ربِّ العالمين..**

**إلى والدي العزيز.**

**إلى التي كم أرى من خلال وجهها، ولم أمشِ إلا بدعواتها.. والدتي الغالية.**

**إلى النجوم التي تتلألأ في سماء حياتي.. إخوتي وأخواتي.**

**إلى الزهور التي تزين حدائق عمري، وإلى التي رافقتني في دربي.. صديقاتي العزيزات.**

**إلى كل طالب علم يبذل الجهد والعرق ، ويثابر من أجل رفعة هذا المجتمع وتقدمه.**

**إلى كل سائر في دروب العلم، إلى كل دارس في مجال من مجالات العلم والمعرفة.**

**إلى كل الذين يعملون من أجل الكشف عن ماضينا المجيد.**

**أهدي إليهم هذا العمل المتواضع ...**

# فهرس الموضوعات


| ت | الموضوع | الصفحة |
|---|---|---|
| 1 | الأية القرانية | ب |
| 2 | الاهداء | ج |
| 3 | المقدمة | 1 |
| 4 | الفصل الاول : المشرق العربي الإسلامي و أوروبا في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي | 9 |
| 5 | المبحث الاول : المشرق العربي الاسلامي في انصف االثاني من القرن الخامس الهجري | 10 |
| 6 | المبحث الثاني :البلاد اللوروبية في النصف الثاني من القرن الخامس هجري | 16 |
| 7 | المبحث الثالث :الحرب الافرنجيه الصليبيه الاولى (490-492 هـ/1097-1099 م ) | 24 |
| 8 | الفصل الثاني : الجهاد الاسلامي ضد الغزو والاحتلال الافرنج –الصليبي | 31 |
| 9 | المبحث الاول: جهاد المدن و قرى بلاد الشام ضد الغزو الصليبي | 32 |
| 10 | المبحث الثاني : الحملات الخلافه الفاطميه لاستعادة بيت المقدس من ايدي الصليبين | 36 |
| 11 | المبحث الثالث : تداعيات الجهاد الاسلامي في البلاد العربيه الاسلاميه على المستويين الرسمي و الشعبي | 42 |
| 12 | الفصل الثالث : الموصل و دمشق في قيادة الجهاد الاسلامي رضد الغزو الافرنجي – الصليبي | 49 |
| 13 | المبحث الاول : قيادة الموصل للجهد الاسلامي في بلاد شام | 50 |
| 14 | المحث الثاني : دور دمشق الجهادي و السلبي في بلاد الشام | 68 |
| 15 | المبحث الثالث : الدور الجهادي اللامارات المحليه الاخرى | 72 |
| 16 | الفصل الرابع : الجهاد الزنكيين ضد الغزو الافرنجي الصليبي | 78 |
| 17 | المبحث الاول : جهاد الامير عماد الدين زنكي ضد الافرنج (الصليبيين ) | 79 |
| 18 | المبحث الثاني : جهاد السلطان نور الدين محمود زنكي | 97 |

| | | |
|---|---|---|
| 19 | الخاتمه | 115 |
| 20 | القائمه المصادر و المراجع | 118 |

## المقدمة

تعرَّض جزء من المشرق العربي الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي لحركة استعمارية، من قبل الغرب الأوروبي، لم يشهد لها مثيلًا في تاريخ الحروب، حيث اتخذت من الدين ستارًا؛ لإخفاء ما انطوت عليه من مطامع وأهداف غير نبيلة لحروب الإفرنج- الصليبيين.

إن نجاح الإفرنج (الصليبيين) في بداية هذه الحروب لم يكن بسبب كثرة أعدادهم وقوتهم، وما تلقوه من مساعدات، بل يرجع أساسًا إلى تفرُّق كلمة المسلمين، ونشوب الفتن الداخلية واضطراب الأمن، وما انتهجه الإفرنج ـ الصليبيون من غدر وخيانة للعملاء، والسكان المحليين، على الرغم من كل ما قدموه لهم من مساعدات.

ولقد حظيت الحروب الإفرنجية (الصليبية) باهتمام الكثير من المؤرخين والباحثين، الغربيين والعرب، قدامى ومحدثين[1]، كما تناولوا حركة المقاومة والتحرير، فهذه الدراسات تتناول بالتفصيل تاريخ الحروب الإفرنجية،

---

([1]) ر.سي. سميل، الحروب الصليبية، ترجمة، سامي هاشم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1982م. ج.ج كولتون، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة جوزيف نسيم يوسف، دار النهضة العربية بيروت، 1981م.محمود سعيد عمران، معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1992م. سعيد عبد الفتاح عاشور، أوروبا العصور الوسطى، النظم والحضارة، دار النهضة العربية القاهرة، 1963م.أرنست باركر، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة، السيد الباز العريني، دار النهضة العربية بيروت، (د. ت).س. ورن هليسنز، أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحي الشاعر، مكتبة الأنجلو المصرية. هانس أبرهارد ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة عماد الدين غانم، منشورات مجمع الفاتح للجامعات، طرابلس، 1990م.سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية 1999م.

ستيفن رانسيمان، تاريخ الحملات الصليبية، ترجمة نور الدين خليل، دار المطبوعات الجديدة للطباعة والنشر والتوزيع، ج 1، 1994م.

قولفغانغ مولر ـ قيز، القلاع والحروب أيام الحروب الصليبية، ترجمة محمد وليد الجلاد، سعيد طيان، دار الفكر، دمشق، ط2، 1982م.

جوناثان ريلي سميت، الحملة الصليبية وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م.

فتحية النبراوي، العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية (1000- 1300م)، مكتبة وهبة، القاهرة، 1982م.

عادل زيتون، العلاقات السياسية والكنيسة بين الشرق والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، دار دمشق للطباعة النشر، 1980.

موريس كين، حضارة أوروبا العصور الوسطى، ترجمة قاسم عبده قاسم، عين لدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2000م.

سعيد أحمد برجاوي، الحروب الصليبية في المشرق، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1984م.

قاسم عبده قاسم، الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1991م.

جوناثان ريلي سميت، الحملة الصليبية وفكرة الحروب الصليبية، ترجمة محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م.

وردّة الفعل الإسلامي ضدها، كما تدرس الكيانات الإفرنجية، وأوضاعها الداخلية، وعلى الرغم من المميزات العديدة لهذه المؤلفات، فإنها تبقى مؤلفات تعبر عن النظرة الأوروبية للحروب الإفرنجية- الصليبية.

لقد تعرضت الأمة الإسلامية في بلاد الشام لعدوان خارجي في عقر دارها، هدَّد وجودها ومصيرها، وتمكن الإفرنج من تأسيس استيطان لهم، في غضون عدة سنوات، وترتب على هذه الأحداث بروز قيادات واعية أخذت على عاتقها مسؤولية الجهاد ضد العدو؛ لطرده ودحره.

**أهمية الدراسة:**

من الأهمية دراسة هذه المرحلة من تاريخ أمتنا؛ لاستخلاص العبر والمواعظ؛ بهدف تفصيل دور الأمة الإسلامية من جديد في صراعها مع الآخر، وكذلك توضيح الدور الإسلامي في الحفاظ على المقدسات من تدنيس الغزاة ، وإبراز دور القيادات الإسلامية في ذلك.

وهذه الدراسة ليست الأولى التي تتناول الحروب الصليبية، لكن هدفها إعطاء أهمية للقيادات الإسلامية، لا سيما القيادات السلجوقية الزنكيين، ودورهم في دحر الإفرنج - الصليبيين في بلاد الشام ومصر.

مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

إن حروب الإفرنج - الصليبيين على بلاد الشام ومصر تدعونا إلى إعادة النظر في المسلمات التاريخية التي اعتدنا عليها، والتي تقبل التأويل والتفسير والتقويم، انطلاقًا من وجهة نظر حديثة تطمح إلى إعادة ترتيب أوراق هذه الحروب التاريخية، وإنتاجها من جديد، في ظل منهجية معاصرة وقراءة جديدة لأحداث تلك الحروب، وهذا ما تحاوله هذه الدراسة، وأول ما تقوم به الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما الأوضاع السياسية في المشرق الإسلامي قبيل مجيء الإفرنج - الصليبيين؟
- ما انعكاسات الحملة الإفرنجية - الصليبية الأولى على العالم الإسلامي؟
- ما ردة الفعل العربية الإسلامية تجاه هؤلاء الغزاة؟
- كيف بدأ جهاد قرى المدن الشامية؟
- ما الدور الذي قام به الفاطميون تجاه الإفرنج - الصليبيين؟
- ما الدور الذي أدّاه السلاجقة تجاه الغزو؟
- كيف تزعمت إمارة الموصل الجهاد ضد الإفرنج - الصليبيين؟
- ما دور مدينة دمشق وموقفها من الغزو الإفرنجي - الصليبي؟
- كيف بدأت الإمارات المحلية جهادها ضد الإفرنج - الصليبيين؟
- مَن عماد الدين زنكي؟ وكيف جاهد ضد الإفرنج - الصليبيين؟ وكيف تم فتح الرها؟
- ما أسباب الحملة الإفرنجية الثانية ومدى نجاحها من عدمه في تحقيق أهدافها؟

---

يوشع براور، عالم الصليبيين، ترجمة قاسم عبده قاسم، محمد خليفة حسن، دار المعارف، 1981م.

- مَن نور الدين محمود؟ وكيف بدأ جهاده ضد الإفرنج ـ الصليبيين؟
- ما الذي يجعل من موقع مصر مجالًا للتسابق على ضمها، سواء من جانب نور الدين محمود أم من جانب الإفرنج ـ الصليبيين؟
- ما أوضاع مصر في تلك الفترة؟ وهل استطاع نور الدين محمود السيطرة عليها؟
- ما الدور الذي قام به صلاح الدين الأيوبي في ذلك؟
- ما دور المجتمع العربي الإسلامي في حركة الجهاد ، وما أثر العلماء والفقهاء في الدفع بعجلة الجهاد؟

تقوم الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي، الذي لا يكتفي بسرد الأحداث التاريخية فقط، بل يتجاوز ذلك إلى التحليل والتفسير والتأويل والتقويم، وإبراز الدور الجهادي الإسلامي لبلاد الشام خلال تلك المرحلة.

## أسباب اختيار الموضوع:

اختير هذا الموضوع لدراسة حركة الجهاد الإسلامي ضد الغزو الإفرنجي ـ الصليبي، وإعطائه أهمية من الدراسة؛ لإبراز دور القيادات الجهادية في تلك الفترة، فالحروب الإفرنجية ـ الصليبية تناولَ دراستها الكثيرُ من الباحثين، ولكن من وجهة نظر غربية، لذلك رأت الباحثة أهمية دراسة الجهاد ضد العدو المحتل؛ للاستفادة من تاريخنا وماضينا.

كما أن حركة الجهاد الإسلامي تكتسب أهمية خاصة، لا سيما في المرحلة الراهنة التي تمر بها الأمة الإسلامية، وما تلاقيه من حروب ثقافية، تهدف إلى تشويه تاريخها وحضارتها، بأسماء محدثين لا تقل خطرًا عن الحروب الإفرنجية.

ولقد واجهت الباحثة بعض الصعوبات أثناء إعداد البحث، لا سيما حول الأعمال الأجنبية المختصة بالتاريخ الأوروبي، لأنه لا يمكن قراءة وكتابة تاريخ أوروبا في نصف قرن ما لم يقرأ تاريخها الوسيط، منذ القرن الرابع الميلادي وحتى القرن الحادي عشر، على الأقل لمعرفة أوضاعها التاريخية كلها، ولكن ذلك يحتاج لدراسات تتطلب أدوات تفتقر إليها الباحثة، كاللغة التي كتبت بها اللاتينية واللغات الأوروبية الحديثة الإنجليزية والفرنسية والألمانية والايطالية، والاطلاع على المكتبات الأوروبية وأرشيفها، بل اعتمدت الباحثة على المصادر والمراجع المعربة لتاريخ أوروبا.

**الإطار الزمنى للدراسة:**

تم تحديد الإطار الزمني لهذه الدراسة من (490 ـ 569هـ/ 1097- 1176م)، أما الإطار المكاني والجغرافي فيتمثل في منطقة (بلاد الشام ومصر).

## محتويات الدراسة:

تحوى الدراسة على مقدمة ، وأربعة فصول وخاتمة، وقائمة بالمصادر والمراجع.

وقد حَوَت المقدمة أهمية موضوع الدراسة، وأهم التساؤلات التي حاولت الإجابة عنها، وأسباب اختيار الموضوع، ومنهج الدراسة، والإطار الزمني والمكاني لها، ونقدًا لأهم المصادر والمراجع التي استفادت منها الباحثة.

تناول الفصل الأول من الدراسة المشرق العربي الإسلامي وأوروبا في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وتكوّن هذا الفصل من ثلاثة مباحث، عُني الأول بدراسة أوضاع المشرق الإسلامي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، فيما تناول الثاني أوضاع البلاد الأوروبية في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أما المبحث الثالث فقد حاول تسليط الضوء على الحرب الإفرنجية الأولى (490 - 492هـ/ 1097- 1099م).

وكان الجهاد الإسلامي ضد الغزو والاحتلال الإفرنج ـ الصليبي، محور الدراسة في فصلها الثاني، من حيث جهاد المدن والقرى وتداعيات الجهاد عليها، وتكون هذا الفصل من ثلاثة مباحث، خصص الأول لدراسة جهاد مدن وقرى البلاد الشامية، فيما ركز الثاني على حملات الفاطميين لاستعادة بيت المقدس، أما تداعيات الجهاد الإسلامي على المستويين الرسمي والشعبي، فقد كان محور المبحث الثالث.

وتناول الفصل الثالث بالدراسة الموصل ودمشق في قيادة الجهاد الإسلامي ضد الغزو الإفرنجي ـ الصليبي، وكان أول مباحث الفصل عن مدينة الموصل ودورها الجهادي في قيادة بلاد الشام، فيما حاول الثاني دراسة مدينة دمشق ودورها الجهادي والدبلوماسي في بلاد الشام، أما الدور الجهادي للإمارات المحلية الأخرى فكان بحث ودراسة المبحث الثالث.

ونظرًا لأهمية القيادات الإسلامية، لا سيما الزنكيين منها، ودورهم الرائد في الجهاد الإسلامي في بلاد الشام ومصر، فقد تناولت الدراسة هذا الجانب في فصلها الرابع، فركزت على تسليط الضوء على جهاد الأمير عماد الدين زنكي ضد الإفرنج ـ الصليبيين، وتوحيده الموصل وحلب، إلى أن توج جهاده بفتح الرها (539هـ/ 1144م)، في المبحث الأول، وجهود الأمير نور الدين زنكي في بلاد الشام ووقوفه في مواجهة الحملة الإفرنجية ـ الصليبية الثانية، وضم مصر وإنهاء الخلافة الفاطمية في المبحث الثاني.

و مع خاتمة حاولت الوصول فيها إلى نتائج مقنعة حول حركة الجهاد الإسلامي ضد الغزو الإفرنجي ـ الصليبي في بلاد الشام، وآثار ذلك على العالمين الإسلامي والغربي، وقائمة بأهم المصادر والمراجع العربية.

**الدراسات السابقة :**

ولتحقيق هذه الدراسة، تم الاعتماد على التسلسل التاريخي للأحداث ابتداءً من الأقدم، حتى آخر الأحداث بالاستناد إلى ما ذكرته المصادر العربية والأجنبية والجغرافية.

ولم يكن من اليسير أو السهل فَهم هذه الحروب، التي خضعت بدورها لمؤثرات دينية وسياسية واقتصادية، وتطلب ذلك دراسة مصادر هذه الحروب التي حفل بعضها بالتكرار والتناقض والأوهام والأساطير، لذلك لم يكن أمامنا إلا الاستفادة والاعتماد على أهم تلك المصادر التي يمكن الوثوق بها.

1- "ذيل تاريخ دمشق" لابن القلانسي، أبو يعلي حمزة بن أسد التميمي ابن القلانسي (ت 555هـ/ 1660م)

يعد من أهم الكتب التي عالجت بدايات الحروب والجهاد، وهو أديب وكاتب وشاعر، ومؤرخ[1] شغل عدة مناصب إدارية مهمة في دمشق والشام، خلال مدة الاحتلال الإفرنجي، أتاحت له أن يعرف عن قرب أحداث الحملتين الصليبيتين الأولى والثانية، لذلك جاءت معلوماته على درجة كبيرة من الأهمية والدقة والموضوعية، حيث استعان بالوثائق المتوافرة لديه، لأنه عمل رئيسًا لديوان الإنشاء، مما جعل كتابه من المصادر الرئيسية للحقبة الأولى من هذه الحروب، وقدم ابن القلانسي في كتابه وصفًا دقيقًا عن دمشق، فعُدَّ هو مؤرخها الأول، لذلك استعانت به الدراسة كثيرًا؛ باعتباره أهم مصدر قريب للحدث.

وقد اعتمدت الباحثة على "ذيل تاريخ دمشق" مصدرًا رئيسيًا لهذه الدراسة، لا سيما الفصل الأول والثاني منها، فعلى سبيل المثال كانت المعلومات والروايات التاريخية المتعلقة بقرى ومدن الشام مثل معرة النعمان والبارة مستمدة بالدرجة الأولى من ابن القلانسي.

وهذا ما ينطبق أيضًا على دراسة تداعيات الجهاد الإسلامي على المستويين الرسمي والشعبي، وقيادة الموصل والشام للجهاد الإسلامي ضد الغزو الإفرنجي ـ الصليبي.

ولكن ما يُؤخذ على ابن القلانسي أنه لم يؤرخ بدقة وتفصيل لأحداث الحملة الصليبية الثانية، كما كان يتوقع منه، ولا نعرف سببًا وافيًا لذلك.

2 ـ "الكامل في التاريخ" لابن الأثير، أبو الحسن علي محمد عز الدين بن الأثير، (ت 630هـ/ 1213م)

يعد من أهم المصادر التاريخية عن الحروب الصليبية، باعتبار مؤلفه عاصر مدة منها، فشهد أحداثها، فسجلها تسجيلًا دقيقًا صادقًا، وقد حوى كتابه معلومات غنية، لا سيما في أجزائه الأخيرة عن الحملتين الإفرنجيتين الأولى والثانية، لذلك استعنتُ به كثيرًا، واستفادت الدراسة منه كثيرًا من المعلومات القيِّمة التي لم ترد عند بقية المؤرخين.

فكان دائمًا مصدرًا لهذه الدراسة منذ مباحثها الأولى إلى نهايتها، فلم تبعده الباحثة عن توثيقها للأحداث، ويُعد الكتاب من الكتب الجامعة الممتدة في الزمان والمكان، بدأه من أول الزمان، وتكوين الليل والنهار، وابتداء الخلق، وانتهى به إلى قبيل وفاته بسنتين أي بنهاية أحداث (628هـ/ 1231م)، ويُعد كتاب الكامل من أهم الكتب التاريخية، حيث يتمتع بمكانة مرموقة كمصدر موثوق به في تاريخ الدولة الأيوبية، وهو أساس من الأسس التي اعتمدها المؤرخون من بعده، وتكمُن أهميته كونه معاصرًا للحروب الصليبية والغزو المغولي، حيث أرخ لها تأريخًا دقيقًا، وأفرد لتاريخ الدولة الأتابكية كتابًا مستقلًا بعنوان "التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية في الموصل"،

---

([1]) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، دار إحياء التراث، بيروت، ج 10، (د. ت)، ص 278.

وسجل فيه جميع الأحداث في الدولة وأخبارها منذ نشأتها (477هـ/ 1084م) ولم يكن هناك تمييز بين الكتابين، وقد استفادت الباحثة من كليهما في أغلب مراحل الدراسة، فيُعد كتابه الأخير من الكتب المهمة التي استندت إليه الباحثة، فقد أمد الدراسة بمعلومات قيِّمة، لا سيما عن الزنكيين (عماد الدين ونور الدين)، والأعمال المهمة التي قاما بها، لذلك عُدَّ كتابه "الباهر" أكثر أهمية للحروب الإفرنجية، وخصوصًا في مرحلة الزنكيين.

3 ـ "الروضتين في أخبار الدولتين"، أبوشامة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم الدمشقي أبي شامة) (ت 66هـ/ 1266م)

من أهم الكتب التي ركزت على الدولتين النورية والصلاحية، ومؤلفه كان عالمًا وفقيهًا حافظًا للحديث، وله مصنفات كثيرة جلها في علوم الدين، وقد صنف كتابه الروضتين حسب طريقة الحوليات بدأها بسنة (485هـ/ 1095م)، وأنهاها بأحداث (589هـ/ 1193م) وهي سنة وفاة صلاح الدين الأيوبي، وكتابه تاريخي محلي تحدث فيه عن سيرة (نور الدين محمود بن زنكي وصلاح الدين الأيوبي)، وأهم الأحداث التي جرت في عهديهما، وقد أفاد الدراسة فائدة عظيمة، لا سيما ما تعلق منها بالدولة الأتابكية في الموصل، وأهم الأعمال التي قام بها (عماد الدين زنكي وابنه نور الدين محمود)، فكان هذا المصدر لتوثيق الأحداث في فصلها الأخير.

4 ـ "زبدة الطلب من تاريخ حلب" لابن العديم، أبو القاسم عمر بن أحمد الصاحب كمال الدين، ابن العديم (ت 660هـ/ 1262م)

يُعد كتابه ثمرة قراءة ناقدة بدأه بالحديث عن حلب وبنائها وعلاقاتها بمصر أيام الطولونيين والإخشيديين، وتصديهما للجهاد أيام سيف الدولة الحمداني، وتتبع جهاد الحلبيين إلى أن حملوا راية الكفاح ضد الإفرنج، وكتابه مُرتب على السنين كما هي عادة المؤرخين في عصره، ويمتاز تاريخه بالموضوعية العلمية والإنصاف، وقد أمد الدراسة بمعلومات قيِّمة، خاصة فيما يتعلق بدور عماد الدين زنكي في توحيد حلب والموصل وفتح الرها.

وتكمُن فائدة هذا المصدر، لأن صاحبه كان واحدًا من أشهر شخصيات حلب، حيث زار القدس ودمشق، وأصبح مسؤولًا عن أهم مدارس حلب، مما أعطاه فرصة للاطلاع على أهم الكتب الموجودة في حلب، مع سجلات الدولة ووثائقها الرسمية.

5 ـ "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" لابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف، (ت 632هـ/ 1215م)

يُعدُّ من أهم المصادر التي ركزت على دور القائد صلاح الدين الإيوبي، حيث كان المؤرخ من المقربين منه، فتولى العديد من المناصب السياسية في القدس وحلب، لذلك يعد ابن شداد مصدرًا مهمًا لأي باحث في تاريخ الحروب الإفرنجية ـ الصليبية، لا سيما في الدولة الأيوبية، وتم الرجوع إليه في مباحث الدراسة الأخيرة.

6 ـ "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" لابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم، (ت 634هـ/ 1217م)

خصص المؤرخ كتابه هذا لأخبار الدولة الأيوبية منذ نشأتها إلى نهايتها، وقد اهتم بالأحداث السياسية كباقي المؤرخين، وقد أمدَّ الدراسة بكثير من العون، لا سيما في مباحثها الأخيرة، فيما يخص ضم مصر إلى بلاد الشام.

7 ـ "الاعتبار" لابن منقذ، أسامة أبو المظفر الكناني، (584هـ/ 1188م)

يُعد من المصادر المهمة في تاريخ الحروب الإفرنجية ـ الصليبية، لأن المؤرخ كان من أفراد السلطة الحاكمة لمدينة شيزر، وعاصر الغزو الإفرنجي لبلاد الشام، فكان شاهد عيان لكثير من هذه الحروب، بل شارك في العديد من المعارك ضد الغزو الإفرنجي.

ويوضح المؤرخ في كتابه أخلاق الغزاة الصليبيين، وعلاقاتهم بالعرب المسلمين، وكيف تغيرت أخلاقهم وعاداتهم بمعاشرة المسلمين، إلى أن امتنع بعضهم عن أكل لحم الخنزير، لذلك يعد المصدر مهمًا، لا سيما عن الحياة الاجتماعية والنشاط الاقتصادي آنذاك، لذلك استفادت منه الباحثة في تداعيات الجهاد على المستويين الشعبي والرسمي، حيث أوضح دور الفقهاء والقضاة في الجهاد ضد الغزو الإفرنجي.

8 ـ المقريزي، تقي الدين المقريزي (ت 845هـ/ 1441م)

يمتاز الكتاب بذكر سجلات حوادث الأزمنة السابقة بأنها نتيجة بحث مجهود وتدقيق تاريخي، أما أحداث زمانه فكان فيها شاهد عيان، والحقيقة أن المقريزي لم يقتصر على تدوين الأحداث السياسية، بل تعداها إلى الأوضاع الاجتماعية التي كان يعاني منها المجتمع المصري، فأعطانا صورة فريدة ومميزة لأمراض العصر.

وكانت كتبه الثلاث: "السلوك لمعرفة الدول والملوك، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء"- مهمة لدى الباحثة، حيث استفادت منها الدراسة، لا سيما فيما يتعلق في مصر وأوضاعها قبيل توحيدها مع بلاد الشام.

9 ـ "النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، لابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف، ابن تغري بردي، (ت 874هـ/ 1471م)

عاش ابن تغري بردي بعد المقريزي بثلاثين عامًا تقريبًا، وقد أدى دورًا هامًا في تدوين الأحداث التي وقعت للسلاطين الذين عاصرهم، وهو باعتباره مؤرخًا مكثرًا، يوثق به كثيرًا، واتصف بميزة خاصة هي استمراره بعد المقريزي في تتمة تاريخه، و كان ابن تغري بردي مقربًا لدى البلاط المملوكي، ومحببًا لبيت الملك، وقد اتصف هذا المؤلف بأنه مصري محلي، وإسلامي عام، فهو يبسط القول في كل أمير أو سلطان حكم مصر، ثم يذكر الأحداث والمجريات التي حدثت في أيامه على وجه الإجمال.

تمثلت أهمية كتابه في دراسة الفترة التي تخص مصر، لا سيما في الحملات الفاطمية لاستعادة بيت المقدس، وفي المبحث الأخير من الدراسة الذي يخص ضم مصر مع بلاد الشام، وإنهاء الخلافة الفاطمية.

10- "الحروب الصليبية"، وليم الصوري، (ت 581هـ/ 1185)

يتصدر المصادر الأجنبية التي عدتُ إليها كتاب "الحروب الصليبية" أو الأعمال المنجزة فيما وراء البحار[1] وصاحب هذا الكتاب هو وليم الصوري، رئيس أساقفة مدينة صور.

---

([1]) ـ وليم الصوري، الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1943م، ص 5 ـ 6.
محمد مؤنس عوض، أضواء على إشكالية دراسة تاريخ الحروب الصليبية في القرنين 6-7هـ/ 12- 13م، حوليات التاريخ الإسلامي والوسيط، مصر العربية للنشر والتوزيع، 2003م، ص 267.

ويعد من أهم مؤرخي الحملات الصليبية على المشرق الإسلامي، فإلي جانب إتقانه اللغة اللاتينية والفرنسية واليونانية وإلمامه بالعربية، فقد كان تحت يده من الوثائق ما جعله موثوقًا به في الكتابة التاريخية، وحجة في عصره، فقد كان مشرفًا على ديوان الرسائل في بلاط مملكة بيت المقدس، وسفيرًا للملك عموري في بلاط أمانويل إمبراطور بيزنطة، وإلى جانب شغله لمراكز دينية تدرج فيها حتى بلغ الذروة في سلك الكهنوت، وبذلك وصل إلى أسمى المناصب غير الحربية في الدولة بعد الملك، ولا غنى لأي باحث تاريخي عنه، فقد قدم هذا الكتاب العون الكبير والفائدة المرجوة منه طوال فترة الدراسة.

11- "تاريخ الحملة إلى بيت المقدس"، فوشيه الشارتري

مؤرخ وقسيس إفرنجي ـ صليبي شارك في الحملة الصليبية الأولى، ثم التحق بعدها عام 1097م بخدمة بلدوين الأول إلى الرها، ثم أصبح بعدها قسيسًا له.

ويُعد الشارتري من المصادر الأجنبية المهمة لدراسة تاريخ الحروب الإفرنجية ـ الصليبية.

وكان شاهد عيان لها، وبدأ كتابه بالحديث عن مؤتمر كليرمونت، ودعوة البابا أوروبا الثاني إلى الحرب الصليبية الأولى منذ خروجها إلى وصولها بيت المقدس، حيث تم الاعتماد عليه في الفصل الأول من الدراسة، لا سيما عن أوضاع أوروبا، وكذلك الحملة الصليبية الأولى، ولكن ما يُؤخذ عليه أنه اهتم بتاريخ الحملة الصليبية، من حيث التنظيم والسير، وكذلك الملوك المرافقين لهم.

بالإضافة إلى المصادر آنفة الذكر، تم الاعتماد على العديد من المصادر الأخرى، ولكنها لم تضف على الأولى شيئًا باعتبارها متأخرة عن سابقاتها مثل: ابن كثير (ت 774هـ)، أبو الفداء (ت 732هـ)، ابن خلدون (ت 808هـ)، السيوطي (ت 911هـ)، ابن خلكان (ت 681هـ).

ولا يختلف الأمر كثيرًا عن المصادر الأجنبية المترجمة، فهي تهتم بسرد أحداث الحملة الصليبية الأولى، من حيث تنظيمها، وجيوشها، وإرسالها، مثل: "ريموند آجيل"، "المؤرخ المجهول"، "تويبود بطرس".

هذا بالنسبة لأهم المصادر العربية والأجنبية التي اعتمدتُ عليها.

وكذلك يوجد العديد من المراجع العربية والأجنبية المترجمة: وفاء الجوني، رفيق التميمي، بسام العسلي، قاسم عبده قاسم، حسين مؤنس، أرنست باركر، يوشع براور، موريس كين.

وبالإضافة إلى ما سبق، فإن الدراسة اعتمدت على عدد كبير من المصادر والمراجع التي تمت الإشارة إليها في مواضعها.

وما توفيقي إلا بالله العلي العظيم.

## الفصل الأول

# المشرق العربي الإسلامي وأوروبا في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري- الحادي عشر الميلادي

- **المبحث الأول: المشرق العربي الإسلامي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري**
- **المبحث الثاني: البلاد الأوروبية في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري**
- **المبحث الثالث: الحرب الإفرنجية الصليبية الأولى (490 - 492هـ/1097 - 1099م)**

## المبحث الأول

### المشرق العربي الإسلامي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري- الحادي عشر الميلادي

كان المشرق العربي الإسلامي خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي يُعاني التفكك، والضعف السياسي والاقتصادي والاجتماعي بين أطراف القوى الإسلامية؛ مما أدى إلى ظهور كيانات سياسية، وتكوينات طائفية لها أطماعها وأجندتها السياسية، حتى أصبحت هدفًا سهلًا أمام أطماع الأوروبيين الإفرنج (الصليبيين).

و لعل أهم مظاهر هذا التفكك عدم الاستقرار السياسي في إدارة شؤون المشرق العربي، فكانت الخلافة الفاطمية في مصر تُمارس تسلطها واحتلالها لبلاد الشام وفلسطين، مما أغضب الخلافة العباسية في بغداد، لا سيما حول السلطتين الزمنية والدينية، وأدى ذلك إلى ظهور قوة جديدة استغلت هذا الخلاف وهي السلاجقة، جنبًا إلى جنب مع الخلافة العباسية التي بدأت تفقد جزءًا من صلاحيتها، ولم يبق منها في الأخير إلا الجانب الديني، كما أنها لا تملك من الصفات إلا الصفة الاسمية فقط [1].

دخلت هذه القوة على مسرح الأحداث، مُنتهجة سياسة جديدة في التوسع والسيطرة، عبر مسارين أولهما: نحو بلاد الشام وفلسطين مُنافسة بذلك الفاطميين في مصر وبعض الإمارات العربية، كإمارة المرداسيين في حلب والإمارة العقلية في صور، وثانيهما: التوسع باتجاه آسيا الصغرى، التي كانت تحت السيطرة البيزنطية، للاستيلاء على أغلب مناطقها [2].

لذلك تحرك السلاجقة في عهد السلطان (ملكشاه) عام (465- 485هـ/ 1072- 1092م) نحو بلاد الشام وفلسطين، مما أدى إلى اصطدامهم بالفاطميين، وحصولهم

على عدد من المدن والقلاع مثل: الرملة وبيت المقدس[3] (463هـ/ 1070م)، وفي هذه السنة يؤكد المؤرخ (بن القلانسي): "أنه فيها جمع اتسز بن أوق مقدم الأتراك الغز بالشام، واحتشد، وقصد أرض فلسطين، فافتتح الرملة وبيت المقدس"( [4] ).

---

([1]) خاشع المعاضيدي، الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي (359-569هـ/ 996-1171م)، دار الحرية بغداد، 1975م، ص 54.

عبد المنعم حسنين، دولة السلاجقة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1985م، ص 11.

([2]) سهيل زكار، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية، دار الفكر، بيروت، 1975م، ص153.

([3]) بيت المقدس، هي مدينة مُشيدة على قمة الجبل، ليس بها ماء غير الأمطار، ورساتيقا ذات عيون وأما المدينة بها عين، فإنها على رأس صخر، ينظر ناصر خسروعلوي ، سفر نامه ، ترجمة، يحيي الخشاب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م، ص67.

([4]) حمزة أبو يعلي ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الأدباء اليسوعيين، بيروت، 1908م، ص 98-99.

ولقد أتاح هذا التفوق للسلاجقة التوسع هذه المرة على حساب الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى، التي تعد مصدرًا من مصادر بيزنطة البشرية والاقتصادية[1]، لما عُرف عن السلاجقة من رغبة في التوسع والاستيلاء، واستطاعوا أن يمدوا نفوذهم عبر آسيا الصغرى، ويهزموا البيزنطيين في معركة شهيرة، وهي (ملاذ كرد) عام (463هـ/ 1071م)، وإيقاف القوة البيزنطيين عند القسطنطينية[2].

ويصف ابن الأثير جانب الروم في هذه المعركة بقوله: "خرج أرمانوس مالك الروم في مئتي ألف من الروم، والإفرنج والغرب والروس، فجاؤوا في تجمع كثير، وقصد بلاد الشام، فوصل إلى ملاذ كرد من أعمال خلاط، فاقتتلوا فانهزمت الروسية، وأسر مقدمهم"[3].

أن هذه السياسة التوسعية التي طبّقها السلاجقة، وتحقيقهم أكبر انتصارات على أكبر قوتين آنذاك- القوة الفاطمية والبيزنطية- أن انقلبت عليهم بآثارها السلبية، والمتمثلة في الانقسام الكبير الذي حدث داخلهم؛ بسبب تطلع أمرائها إلى السيطرة والاستقلال، والتمتع بنفوذ كبير على المناطق التي بحوزتهم.

وذهب أغلب المؤرخين إلى أن هؤلاء انقسموا إلى ثلاثة أقسام:

**القسم الأول**: يشمل منطقتي فارس والعراق، وأطلق عليهم اسم سلاجقة فارس والعراق.

**القسم الثاني:** يشمل كلًا من بلاد الشام وفلسطين، وأطلق عليهم اسم سلاجقة الشام وفلسطين.

**القسم الثالث:** يشمل آسيا الصغرى، وأطلق عليهم اسم سلاجقة الروم([4]).

ودخلت القوى الثلاث فيما بينها صراعًا حادًا في السيطرة على جميع المناطق التي استولوا عليها، فقد تطلع سلاجقة الروم بزعامة سلطانهم (سليمان بن قتلمش) ليس فقط للاستيلاء على مناطق آسيا فقط، بل كذلك على مناطق بلاد الشام عام (477هـ/1084م)، حيث شرع سليمان بن قتلمش في العمل على مدينة أنطاكية، والتدبير لأمرها والاجتهاد في أخذها، والتملك لها، ولم يزل على هذه القضية إلى أن تم له ما أراده فيها وملكها"[(5)]؛ فاصطدموا مع سلاجقة الشام بالقرب من مدينة حلب (479هـ/1086م)، وكسر جيش سلاجقة الروم وقتل سلطانهم.

ويوضح صدر الدين الحسيني ذلك بقوله: "في عام (479هـ/1086م) شرع سليمان بن قتلمش وحشد وقصد بلد حلب، ونزل عليها، مُحاصرًا لها فوردت عليه أخبار السلطان تاج الدولة تتش باحتشاده، وتأهبه لقصدها

---

([1]) عادل زيتون، السابق، ص 80.

([2]) عبد المنعم حسنين، المرجع السابق، ص 50. موريس كين، المرجع السابق، ص 108.

([3]) عز الدين أبي الحسن علي أبن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق خليل مأمون شيحا، دار المعرفة، بيروت، ج 8، 2002م، ص 214.

([4]) سهيل زكار، المرجع السابق، ص153. فتحية النبراوي، المرجع السابق، ص71.

([5]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص117.

واستعداده، فرحل عنها، والتقى عسكره وعسكر تاج الدولة فكسر عسكر تاج الدولة عسكر سليمان، وقتل وملك تاج الدولة عسكره وسواره"[1].

وصل السلاجقة في التقاتل بينهم إلى أن دخلت بلاد الشام وفلسطين مرحلة جديدة، تمثلت في ظهور الإقطاعيات العسكرية، التي منحت من قبل السلطان (ملكشاه) التي تميزت بها فترة حكمه، وذلك بمنحه الإقطاعيات للعديد من القادة الذين شاركوا في قيادة حركة التوسع السلجوقي، على أن تكون هذه الإقطاعيات تابعة إداريًا للسلطان السلجوقي، لا سيما ما يتعلق منها بالأمور السياسية والعسكرية والاقتصادية [2].

إلى جانب ذلك، عمل السلطان (ملكشاه)على إقطاع بعض الإقطاعيات، وإعطائها إلى الأمراء العرب المحليين؛ لكسب ثقتهم، ووقوفهم إلى جانبه، إذ منح (محمد بن مسلم بن قريش العقيلي) عام (469هـ/1076م) الإقطاع الذي شمل الموصل وحران، والرحبة وأعمالهما، كالسروج والرقة والخابور، كما أقطع (سالم بن مالك العقيلي) قلعة جعبر،وأخذ مقابل ذلك دمشق وحلب، وأقرَّ (علي بن المقلد بن منقد الكناني) على إمارة شيزر (479هـ/ 1086م) [3].

أما فيما يتعلق بالأمراء السلاجقة، فقد منحهم السلطان السلجوقي (ملكشاه) الإقطاعيات لوقوفهم معه، فأقطع الأمير (بوزان) بلدة الرها وحران، عام (477هـ/ 1084م)، وأقطع (أحمد بن الكردي) بلدة الكوفة، وأقطع الأمير (ياغي سيان) بلدة أنطاكية، والأمير (آقسنقرالبرسقي) قلعة حلب وحماة ومنبج، "وسيّر معه من الأمراء آقسنقر قسيم الدولة، الذي أقطعه السلطان بعد ذلك حلب"[4].

وظهرت الإقطاعيات العربية، إلى جانب الإقطاعيات السلجوقية، وكانت عبارة عن كيانات سياسية انفصلت عن الجسد العام للدولة العربية الإسلامية، ودخلت مرحلة الاستقلال التام، مما أوقعها في العديد من الحروب فيما بينها، أو مع السلاجقة، واتخذ بعضها الآخر سياسة الحياد الإيجابي، مُحافظة بذلك على بقاء استقلالها، وعدم تعرضها للدمار والتخريب، مثل إمارة (بني عمار) في طرابلس التي أعلنت استقلالها عام (477هـ/1084م)، وإمارة (بني منقذ) في شيزر عام (479هـ/ 1086م)[5].

ظهر إلى جانب ذلك الأراتقة، وهم من العناصر التركمانية التي جاءت إلى بلاد فلسطين في عهد السلطان (ملكشاه) عام (464هـ/1081م)، واستولت على بيت المقدس من الفاطميين، وقد أصبحت منذ تلك الفترة مركزًا

---

([1]) صدر الدين الحسيني، أخبار الدولة السجلوقية، تحقيق، محمد إقبال، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، 1984م، ص30-31.

([2]) أبو المحاسن ابن تغرى بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، ج5، 1936م، ص111.

([3]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص307-308.ولمزيد من الاطلاع حول موضوع الإقطاع ينظر، إبراهيم علي طرخان، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968م، ص27.

([4]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 296.

([5]) ينظر هذا الموضوع: فتحية النبراوي ، المرجع السابق، ص 54.

سلطويًا لهم لممارسة نشاطهم السياسي والعسكري، مما جعلهم يسعون إلى إقامة إمارة مستقلة إلا أن الصراع الذي شهدته بلاد الشام وفلسطين بعد وفاة الأمير (أرتق)، وبقاء أبنائه في بيت المقدس طيلة سبع سنوات (482-491هـ/ 1089-1097م) زاد من عدم الاستقرار في المنطقة [1].

كما دخلت القوى الفاطمية وبعض الإمارات العربية الأخرى في منطقة الشام وفلسطين في صراعات عسكرية مدمرة، مع العديد من الإقطاعيات السلجوقية والعربية، مما عاد بالضرر الاقتصادي على السكان الأصليين، لما تعرضت له أراضيهم الزراعية للضرر أمام الصراع السياسي والعسكري بين السلاجقة، وأمراء العرب والخلافة الفاطمية.

وظهر نوع جديد من الخلاف الذي أطلق عليه الخلاف المذهبي بين أطراف القوى الإسلامية، وهذا ما زاد من حدة التجزئة، وخلف التفرقة الدينية، وشجَّع على بروز حركة جديدة في المشرق العربي الإسلامي مُستغلة الظرف التاريخي المتأزم، ألا وهي الحركة الحشاشية [2]عام (487هـ/ 1094م) بقيادة (حسن الصباح) التي اتخذت من قلعة الموت بهضبة الديلم مركزًا لنشر عقيدتها الإسماعيلية، ولم تألُ جهدًا في سبيل تحقيق مآربها العقائدية والتوسعية ضد الخلافة العباسية، وقوتها العسكرية السلجوقية، مما زاد من تفتت بلاد الشام مذهبيًا [3] ناهيك عن التفكك السياسي.

وأمام ظهور هذه الحركة، ودورها التخريبي، دخل سلاجقة الشام بقيادة (تاج الدولة تتش بن أرسلان) عام (487هـ/ 1094م) في حرب مع سلاجقة فارس والعراق، حيث خرج السلطان (بركياروق) من أصفهان بجيشه إلى منطقة الري، لقتال سلطان سلاجقة الشام (تاج الدولة)، والقضاء عليها، فالتقيا عام (488هـ/1095م)، فانكسر جيش سلاجقة الشام، وقتل سلطانهم، "وفي هذه السنة، قتل تتش بن ألب أرسلان، ولما هزم السلطان بركياروق، سار من موضع الوقعة إلى همذان، وقد تحصّن بها أمير آخر، فرحل تتش عنها فأرسلوا إلى تتش: ليس بيننا غير السيف، فالتقوا بموضع قريب من الري، فانهزم عسكر تتش، وثبت هو وقتل"[4].

وعلى إثر وفاة (تاج الدولة تتش)، ورث أملاكه ابناه (رضوان ودقاق)، وأصبح الحكم السلجوقي في بلاد الشام وفلسطين وراثيًا، وهذا النوع من الحكم جلب أضرارًا جسيمة للمنطقة العربية الإسلامية، فقد قسماها فيما بينهما، وفرضا السيطرة عليها، مما أدى إلى ضعف بلاد الشام سياسيًا واقتصاديًا.

---

([1]) عماد الدين خليل، الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام (465-812هـ/ 1072-1409م)، مؤسسة الرسالة بيروت، 1980، ص 89.

([2]) لمزيد من التفاصيل عن الحشاشية ينظر عبد الكريم الشهرستاني، الملل والنحل، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت، ج1، (د.ت)، ص191.

([3]) سعيد أحمد برجاوي، المرجع السابق، ص ص78-79.

([4]) ابن الأثير، المصدر السابق، 377. أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني بيروت، ج4، 1960، ص119.

وعقب تولي ابني (تتش) حكم بلاد الشام، انقسمت إلى إمارات عدة، وهي حلب وأعمالها تحت إمرة (رضوان بن تتش)، ومدينة دمشق تحت إمرة (دقاق بن تتش)، ومدينة القدس تحت إمرة (سقمان بن أرتق)، ومدينة أنطاكية تحت إمرة (ياغي سيان)، الذي "خطب لرضوان على منابر حلب وأعمالها"[1].

واستغل بعض الطوائف المسيحية من الأرمن والسريان في بلاد الشام وفلسطين الصراع القائم بين السلاجقة والعرب حول فرض السيطرة على المنطقة، فعملت الطوائف بدورها للسيطرة على بعض المناطق مثل الرها والاستقلال بها، إلا أن هذا الاستقلال لم يدم طويلًا، بسبب التوسع السلجوقي عبر الأراضي في ملطية وأرمينية، إلى جانب أنهم استقروا في بعض المدن الساحلية والداخلية، مثل: بيروت وأنطاكية [2].

لم يكن الحال بأحسن منه في المدن الكبرى، كدمشق وحلب التي توجد بها طوائف من اليهود والنصارى، وكثيرًا ما توافرت أسباب الخلاف بينهما، ولعلهما دون وعي منهما قد مارسا الكثير من الأعمال التي ساهمت في ازدياد حدت الفتنة بين أطراف القوى الإسلامية، إذ ساهم التوزيع الديمقرافي لبلاد الشام وفلسطين في التجزئة والتفرقة، التي شملت العرب والسلاجقة التركمان والأكراد والأرمن والسريان، واليهود الساعين لتحقيق طموحاتهم في السيطرة، والقضاء على العنصر المضاد لهم سياسيًا ودينيًا، وتسخير كل الإمكانيات المتاحة لتحقيق مصالحهم في المنطقة.

لم يكن الصراع في بلاد الشام وفلسطين منحصرًا على السلاجقة والفاطميين والطوائف الأخرى، بل شمل أيضًا الأمراء العرب المحليين، وبدأ يستغل كل واحد منهم ما يستطيع أن يضعه تحت يده من مناطق ومدن، والعمل على توسيع نفوذ سيطرته على حساب الآخرين، و لم تكن لها حدود ثابتة، ولا يجمع بينها في أغلب الأحيان أي ولاء، لأي من الخلافتين العباسية والفاطمية أو السلطان السلجوقي، حيث كانت كل إمارة تعلن طاعتها وولاءها للجانب الذي تربطها معه مصلحة بالأمير أو الحاكم، وغالبًا ما كان هذا الارتباط مؤقتًا؛ بسبب حدوث المناوشات المتكررة بينها حول الملك[3].

كما كان يشوب هذه العلاقات بين الإمارات طابع الاستحواذ والحرب، بسبب تضرر المصالح الشخصية، أو النفوذ السياسي، حتى بين الأخوين، فالحرب التي وقعت بين الأخوين (رضوان ودقاق) ابني (تتش) هي خير دليل على ذلك، إذ حدث الخلاف بين الأخوين بسبب طمع (رضوان) أمير حلب بامتلاك دمشق، وهي لأخيه (دقاق)، فسعى للاستيلاء عليها مستعينًا بأمير القدس (سقمان بن أرتق) و(جناح الدولة بن ملاعب) أمير حمص و(ياغي سيان)، أمير أنطاكية الذي كان له دور في زرع بدور الفتنة بين الأخوين، فأخذ يدبر المكائد لجيش (رضوان)، ويحرضه على قتل أخيه (دقاق) الأمر الذي أدى إلى دخول الأخوين في معركة عند بلدة قنسرين عام

---

([1]) ابن الأثير ، المصدر السابق، ص 378.

([2]) سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، 1976، ص53-57. ر.سي.سميل، المرجع السابق، ص49.

([3]) عادل زيتون، المرجع السابق، ص86.

(491هـ/ 1097م)، "وسار الملك رضوان إلى حلب دمشق، وبها أخوه دقاق عازمًا على أخذها منه، فلما قاربها، ورأى حصانتها وامتناعها، علم عجزه عنها فرحل إلى نابلس، وسار إلى القدس ليأخذه، فلم يمكنه وانقطعت العساكر عنه، فعاد وسعى ياغي سيان صاحب أنطاكية، وجناح الدولة.

ثم إن ياغي سيان فارق رضوان، وقصد دقاق، وحسن له محاصرة أخيه بحلب، فجمع عساكر كثيرة وسار ومعه ياغي سيان، فأرسل رضوان رسولًا إلى سقمان بن أرتق وهو بسروج يستنجده، فأتاه، فسار نحو أخيه، فالتقيا بقنسرين، فاقتتلا، فانهزم دقاق وعسكره"[1].

وأمام هذا الوضع الذي وصل إليه المشرق الإسلامي، من حروب وصراعات سياسية وعسكرية مدمرة، تعرضت منطقة بلاد الشام وفلسطين لاستنزاف مواردها الاقتصادية وقوتها البشرية، مما أدى إلى توقف حركتها التجارية والصناعية، فضلًا عن التخريب والتدمير للأراضي الزراعية التي وقعت بها الحروب التي نشبت بين الأطراف المتنازعة [2].

بناءاَ على ذلك أصبح المشرق الإسلامي مسرحًا للانقسامات، والفوضى السياسية والعسكرية بين العرب من جهة، والسلاجقة من جهة أخرى، وكذلك بين الفاطميين والعباسيين، وأصبح لقمة سائغة لأطماع الأمراء العرب المحليين وللطوائف الأخرى من النصارى واليهود التركمان، كل ذلك أسهم في تجزئته وضعفه وتفتيت وحدته، مما سهل للصليبيين الدخول إليه، دون مقاومة تذكر في بداية الأمر.

---

([1]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص ص، 394-395.أبو الفداء، المصدر السابق، ص 124.

([2]) سهيل زكار، المرجع السابق، ص 114.

## المبحث الثاني

## البلاد الأوروبية في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري- الحادي عشر الميلادي

إن هناك أسبابًا عدة تقف وراء الحروب الإفرنجية التي قادتها أوروبا في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، فلكل حرب دواع، لا يُمكن بأي حال من الأحوال تجاهلها، أو التغاضي عنها.

إنّ تسليط الضوء على أحوال أوروبا في العصور الوسطى، ودراسة الأسباب التي قادتها للقيام بحروبها، ومن خلال الاطلاع على بعض الكتب التاريخية العربية- يتبين أن هناك عوامل كثيرة وراء حربها، فقد كانت تعاني من أزمات دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية، وحاولت أن تتخلص منها، وذلك عن طريق تصديرها من خلال تلك الحروب.

وبما أن موضوعًا كهذا يحتاج إلى مصنفات، سنحاول أن نوجزه بطريقة لا تخل به، حيث وجد من خلال الدراسة أن فكرة الحروب الإفرنجية (الصليبية) لم تكن إلا إفرازًا دينيًا وسياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا، أسهمت الظروف التاريخية في صياغتها للخروج من مجموعة أزمات كانت تعصف بأوروبا، وكان لا بد من الخروج منها، وهذه الأزمات هي:

**1- الأزمة الدينية:**

لم تكن الحروب الإفرنجية التي شنتها أوروبا في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي، إلا مخططًا دينيًا لرجال الدين الكلونيين[1]، حيث انتشرت المسيحية في أوروبا، وبدأت في تكوين مؤسساتها الدينية من الدير إلى الكنيسة، ومن رجال الدين إلى البابوية، والتي باشرت في اعتلاء قمة الهرم الذي تعيشه أوروبا، خلال تلك الحقبة الوسيطة من تاريخها، الذي وصل مداه في الحكم والملك، وفي المشاركة في الأحداث السياسية والاقتصادية، وفي حروب أهلية، بل والارتقاء بأن تكون سلطة البابا على قمة الهرم في إصدار القرارات والإصلاحات التي تطالب بها، وقد نجح رجال الدين في توحيد أوروبا، حيث تدخلوا في حياتهم الخاصة بادعائهم أنهم حلقة الوصل بين الإنسان وخالقه، ونجحوا في تحقيق نظرية الصليبية، والحرب خارج أوروبا [2].

وتكشف الأحداث التاريخية عن طبيعة الإشكاليات التي كانت بين رجال الدين والأباطرة والملوك، وكان رجال الدين يهدفون إلى تقويض سلطات ونفوذ الأباطرة والملوك من خلال الزج بهم في محرقة حرب أضفت عليها هالة من القدسية، بدعوى حماية المسيحية في الشرق العربي الإسلامي[3].

---

([1]) لمزيد من الاطلاع على الكلونيين، ينظر جمال محمد سالم خليفة، المخطط الكلوني الأوروبي وأثره في الحملات الصليبية على المشرق العربي، مجلة آفاق التاريخية، السنة الأولى، العدد الأول، 1996م، ص155.ج.ج كولتون، المرجع السابق، ص 172-173.

([2]) شوقي عطا الله الجمل ، عبد الله عبد الرازق إبراهيم ، تاريخ أوروبا من النهضة حتى الحرب الباردة، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، 2004م، ص 44.

([3]) جمال محمد سالم خليفة، الخطط الكلوني، المرجع السابق، ص155.

لقد أخذت الكنيسة، خلال سنوات الفوضى التي عمت أوروبا في القرن التاسع الميلادي، طريق التحرر من سلطة الدولة، ليكون لها كيان مستقل، وذلك من خلال بحثها عن براهين وأدلة تثبت حقها الديني والزمني، لذلك نهجت التزوير والتزييف في الوثائق التي لفقتها لتنال تلك المنزلة، ومن هذه الوثائق وثيقتان "الأولى تسمى (هبة قسطنطين)، وهي عبارة عن مرسوم أصدره قسطنطين، عندما أنشأ روما الجديدة القسطنطينية، يثبت فيه سلطان البابوية الزمنية، وسيادتها على الغرب الأوروبي، والثانية أصدرت سنة (582م) تنادي هي الأخرى بإعلاء شأن البابوية، وتضخيم نفوذها، وسادت هذه الأفكار في الدوائر الكنسية في غرب أوروبا"[1]، حيث وجدت الكنيسة الغربية في العصور الوسطى "في جمع شملها وتركيز إدارتها تحت زعامة البابوية خير وسيلة لتحقيق رغبتها في السمو، وهكذا أصبح البابا رأس الكنيسة الكاثوليكية، ومصدر ولايتها، والحارس الأول على قوانينها ونظمها وعقائدها، ومعلم أتباعها المعصوم من الخطأ"[2].

إن سيطرة كبار مالكي الأراضي سمحت لهم باختيار رجال دين موالين لهم وللكنائس والأديرة التي تقع ضمن دائرة سيطرتهم، حيث واجهت هذه الفكرة تحديًا كبيرًا لرجال الدين الآخرين، فأصدروا قرارات الإصلاح الديني، ومنهم (جريجوري الكلوني) (1073-1085م) الذي أصدر "قرارات الإصلاح الكنسي التي نادت باستقلال رجال الدين عن سلطة الأباطرة والملوك، ورفضت تمتع الأباطرة والملوك بحق تتويج رجال الدين الموالين لهم في كنائسهم وأديرتهم، وأن تعطى الصلاحيات لرجال الدين في تتويج الأباطرة والملوك على إمبراطورياتهم، بما في ذلك صلاحية تعيين الرهبان والقساوسة في كنائسهم"[3].

ونتج عن تزايد مجال الكنيسة، بالإضافة إلى تغيير صلاحياتها "تعميق حالة الورع الشعبي في كل أنحاء أوروبا، وشهدت العصور الوسطى تغيرًا عميقًا في الاتجاه الديني من صفته المميزة القائمة على الخوف من الله، والرهبة تجاه كل شيء مقدس وسري، وهذه الصفة هي التي ميزت المسيحية الباكرة إلى النزعة العاطفية والحركة النشطة الجديدة"[4].

ولم يكتف بابا روما (جريجوري الكلوني) باتخاذ قرارات الإصلاح الكنسي فقط، بل حاول القضاء على القسطنطينية سلميًا، وذلك بعد أن "يصبح لحلفائه النورمان نفوذ لدى بيزنطة، بحكم العلاقة التي سعى لتوطيدها، لكن بيزنطة تداركت الموقف، وعندما اشتعلت ثورة في القصر البيزنطي ألغت ذلك الزواج، وأحبطت مشروع جريجوري، الذي أصدر قرار الحرمان الكنسي لأباطرة بيزنطة، والذي شمل الإمبراطور الكسيوس كومنيوس (1081-1118م)"[5].

---

([1]) محمود سعيد عمران ، المرجع السابق ، ص 41- 42.

([2]) سعيد عبد الفتاح عاشور ، أوروبا العصور الوسطى، المرجع السابق، ص1.

([3]) أرنست باركر، المرجع السابق ، ص 5.

([4]) س. ورن هليسنز، المرجع السابق ، ص 216.

([5]) عادل زيتون، المرجع السابق ، ص 53.

ولم يمنع ذلك من تعاظم الدور المنوط بالبابا الكلوني، لا سيما في الأوساط الرسمية كرجال الدين والنبلاء والفلاحين، وخصوصا بعد الحرب الأهلية في أوروبا بين الأباطرة والبابوية- حيث سعت الأخيرة باستمرار إلى "مساندة هذه الفئات وإقناعها بضرورة التخلص من الحرب الداخلية، عن طريق نقلها إلى الشرق في مواجهة السلاجقة المسلمين، مع أن هدف البابا الحقيقي كان ضم الكنيسة الشرقية لنفوذه". لكن البابا (جريجوري الكلوني) على الرغم من كل محاولاته تلك، فإنه لم يفلح في حل المشاكل الداخلية في أوروبا، وكذلك استمالة الأباطرة والملوك إليه، بل على العكس من ذلك تمامًا أدخل أوروبا في حروب أهلية استمرت سنوات، لكنه مع ذلك ترك مشروعًا خطيرًا لسلفه وريثه (أوربان الثاني1085-1009م) تمثل في الحروب الإفرنجية.

وهنا حاول أوربان الثاني أن ينقل هذه الحرب الأهلية التي أشعلها سلفه (جريجوري الكلوني) إلى المشرق العربي، بعد أن "حظي بموافقة فئة الكرادلة الأكثر نفوذًا بين رجال الدين في أوروبا، وقد وصفه العديد من المصادر والدراسات بالحنكة السياسية"[1]، وأول ما فعله هذا البابا، هو نقل مقره من روما إلى الجنوب الإيطالي، لتقوية علاقاته مع حلفائه النورمان.

وتم عقد اجتماعات مكثفة مع رجال الدين، لتمسكهم بالأفكار الإصلاحية للكنيسة، ونصرتها في الشرق، وذلك بتعبئة شعوب أوروبا، استعدادًا لشن حرب صليبية ضد المسلمين، وذلك بعد اطمئنانه على وضع الإمبراطورية البيزنطية التي وجهت طلبًا للبابا للمساعدة في نجدتها من الخطر الإسلامي[2].

وكان هذا الإعلان من قبل البابا إحراجًا للملوك والأباطرة، الذين أصبحوا دون قاعدة شعبية لحكمهم السياسي في إقطاعاتهم، بعد أن وقف أغلب رجال الدين مؤيدين لانطلاق شرارة الحرب الإفرنجية ضد المسلمين في الشرق، حيث افتتح البابا أوربان الثاني في كليرمونت "مجمعًا كنسيًا كان معظم المشاركين فيه من الأساقفة الفرنسيين، ودخل التاريخ بوصفه نقطة انطلاق الحروب الإفرنجية"[3].

وشكلت الأديرة مكانًا مهمًا لنشر مبادئ الإصلاح الديني والحرب ضد المسلمين، حيث كان أغلب المشاركين في الحرب الإفرنجية الأولى من الإفرنج الفرنسيين، وذلك لأن غالبية الأديرة كانت موجودة في جنوب فرنسا، والتي وجهتهم دينيًا للمشاركة في تلك الحرب على غرار ما فعله رهبان دير كلوني ([4])، أثناء الحرب في إسبانيا عام(1085م)، والتي أضفوا عليها صبغة حرب دينية ضد المسلمين، والذين سيطروا بفضلها على أغلب الأديرة في قشتالة، مما مكنهم من حرب المسلمين وطردهم من إسبانيا.. "لقد حوّل أوربان الثاني دعوته تلك من مسألة

---

([1]) هانس أبرهارد ماير، المرجع السابق ، ص13- 14.

([2]) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، 1999م ، ص13.

([3]) هانس ابرهارد ماير، المرجع السابق ، ص23.

([4]) هم رهبان كلوني بجنوبي فرنسا، وهؤلاء كانوا غلاة في تعصبهم الديني، والذين تزعموا حركة إصلاح ديني في أوروبا خلال القرن الحادي عشر الميلادي، لتوحيد أوروبا في كتلة واحدة تحت رايتهم، لمواجهة القوى الإسلامية في الغرب والشرق العربي، جمال محمد سالم خليفة، مرجع سابق، ص155.

شخصية محضة، إلى مسألة عامة، تهم كل الأوروبيين، وتعيد لهم هيبتهم أمام المسلمين، إزاء ما فعلوه في إسبانيا وجزر البحر المتوسط، أثناء مرحلة قوتهم"[1] .

وتجدر الإشارة هنا إلى مخاوف الإمبراطور البيزنطي من هذه الحملة الأوروبية، حيث كان على علم مسبق بأن هدفها هو القضاء على حكمه، ثم التوجه بعد ذلك إلى المشرق الإسلامي، إلا أن بعض المصادر التاريخية يشير إلى وجود "اتفاق بين الإمبراطور البيزنطي الكسيوس، والبابا أوربان الثاني، وأبدى الاثنان من خلاله تجاوبًا، وقامت في إثر ذلك علاقات ودية بينهما، لم يرغب أي من الجانبين في توتيرها، بإثارة الخلافات مع الكنيسة"[2].

إلا أن الأحداث التاريخية بعد ذلك تشير بوضوح إلى نوايا المخطط الكلوني في استخلاص القسطنطينية لنفوذهم، وهو "خط سير الغزو الإفرنجي نحو المشرق العربي الإسلامي، حيث اجتازت الحملة الإفرنجية الأولى، وهي في طريقها نحو بلاد الشام أراضي الإمبراطورية البيزنطية، وألحقت بها أضرارًا اقتصادية فادحة"[3].

يتضح مما سبق أن العامل الديني المحرك للحروب الإفرنجية لم يكن في حقيقة الأمر إلا "عاملًا تمويهيًا، تختفي وراءه الدوافع الأساسية للمخطط الكلوني، وهو القضاء على القسطنطينية، والرد على العرب المسلمين واستعمار المشرق العربي، وتأسيس الإمارات الإفرنجية فيه، بحيث لا تختلف عن نمط الحياة الإقطاعية في أوروبا الغربية"[4].

**2- الأزمة السياسية:**

كان من الطبيعي جدًا بعد حركة إصلاح الكنيسة، وما رافقها من تغيرات جديدة على طبيعة المجتمع الأوروبي أن يحدث الصراع بين الإمبراطورية والبابوية، وقد قدر لهذا النزاع أن يستمر لفترة طويلة، وأن تكون له نتائج كبيرة على المجتمع الأوروبي الغربي في العصور الوسطى، بل لم يقتصر الأمر على ذلك العصر فقط، بل امتد تأثيره على ما بعده.

وسبب ذلك الصراع يرجع إلى "محاولة كل من الإمبراطور والبابا أن يفرض أحدهما سلطته على الآخر، وإن كانت البابوية قد نظرت إلى هذا الموضوع من الناحية الروحية، فإن الإمبراطور كان يرى عدم تدخل البابا في تعيين رجال الدين، لأنهم كانوا عماد الإدارة في الإمبراطورية، وأن ولاءهم كان في الدرجة الأولى للإمبراطور"[5].

---

([1])المرجع السابق، ص163.

([2]) عادل زيتون، مرجع سابق ، ص 83.

([3]) سيد علي الحريري، مرجع سابق ، ص 29.

([4]) جمال محمد سالم، مرجع سابق، ص 164.

([5]) محمود سعيد عمران، المرجع السابق ، ص 299.

وكانت أوروبا قد مرت قبل الحروب الإفرنجية "بأزمة سياسية حادة، بسبب انقسام زعاماتها السياسية، الذين هم في الوقت ذاته ملاك كبار للأراضي على المناطق التي بحوزتهم وفق حق السيادة"[1]. والذين كان لهم حق التصرف بتعيين رجال الدين ضمن مناطق صلاحيتهم، حيث لم يقبلوا بإصلاحات الكنيسة، لأنهم عدوها خرقًا للنظام الطبقي في أوروبا.

وأول نماذج الصراع السياسي بين الملوك والأباطرة من جهة، والبابا من جهة ثانية ما حدث بين الإمبراطور الروماني هنري الرابع (1056-1105م) والبابا جريجوري السابع، حيث سعى الإمبراطور إلى شن حرب ضد البابوية الكلونيه، وكذلك سعى "لتعيين بابا روما من قبله، ويدعى جبرت كلمنت الثالث (1080-1150م) الذي كان رجلًا ثريًا وطموحًا، واستغل منصبه لكسب المزيد من الثراء على حساب الفئات الأخرى من نبلاء وفلاحين، لذلك كان أكثر ميولًا وقربًا للإمبراطور الروماني، الذي زحف على مقر البابا جريجوري في قلعة كانوسًا، حاول القضاء عليه وإزاحته فأصدر جريجوري قرار الحرمان الكنسي في حقه"[2]. وأصدر قرارًا بعزل الإمبراطور، لتمرده على الكنيسة، واعتبار رعاياه في حِل من القسَم الذي أدوه له، وحرم على الجميع أن يتعاملوا معه كملك، واهتز عرش هنري الرابع، وقرر التوجه للبابا لطلب الصفح والغفران، وأصفح البابا عن الإمبراطور هنري الرابع "فبابا كرجل دين على رأس الكنيسة لا يستطيع أن يرد تائبًا عن بابه، كما أن العفو عن هنري الرابع يجعله أقوى مما كان، ويعطى له الفرصة لضرب النبلاء الذين ساندوا البابوية، وأخيرًا تحكم الجانب الديني على الجانب الدنيوي، وعفا البابا عن هنري، بعدما صار إليه حافي القدمين باكيًا، وسجد أمامه مقبلًا الأرض، طالبًا الغفران"[3].

لم يكن هنري الرابع جادًا في توليته، فعاد إلى ألمانيا لينكل بالنبلاء، لا سيما بعد أن "رفض أباطرة ألمانيا أن يكون رجال الدين تحت تصرف الكنيسة في روما، لأن رجال الدين الألمان امتلكوا نصف أراضي ألمانيا وثروتها، فخشي أولئك الأباطرة أن تنتقل هذه الممتلكات إلى أيدي كنيسة روما"[4].

وامتدت تلك العدوى إلى باقي أوروبا، فلم "يرض ملك إنجلترا وليام الثاني أيضًا أن يضع نفسه تحت تصرف رجال الدين، ورفض كذلك ملك فرنسا فيليب الأول تلك القرارات، لأن البابوية الكلونية حاولت التدخل في حريته الشخصية، عندما أصدرت قرار الحرمان الكنسي بحقه، لكونه طلق زوجته النبيلة برتا، وحتى إيطاليا مقر البابوية كانت منقسمة بعد تلك المسألة"[5].

---

([1]) جمال محمد سالم ، المرجع السابق ، ص 156.

([2]) عادل زيتون ، المرجع السابق ، ص 104- 105.

([3]) محمود سعيد عمران، المرجع السابق، ص301.

([4]) عادل زيتون، المرجع السابق ، ص 306.

([5]) هانس ابرهارد ماير، المرجع السابق ، ص 13.

ولم يكتف البابا جريجوري بذلك ، بل وجه أنظاره نحو الطرف الآخر المُعادي له وهو الإمبراطور البيزنطي "مستغلًا الظروف العصيبة التي كانت تمر بها إمبراطوريته، فضلًا عن التهديدات الخارجية،لا سيما الخطر السلجوقي الذي كان يهدد ولاياته الشرقية"[1]،

وعلى أساس هذه الاعتبارات "بادر البابا جريجوري في تحسين العلاقة معه، وذلك بإصداره قرار الاستعداد لتوجه حملة أوروبية بقيادته لنجدة بيزنطة عام (1074م)، وبغية حشد الجهود لهذه الحملة سعى إلى تطبيع العلاقات بين بيزنطة وحلفائه النورمان، وذلك بمباركة زواج ابنه روبرت جوسيكارد كونت جنوب إيطاليا النورماني بأمير بيزنطي"[2].

بما أن نوايا بابا روما في استحواذه على القسطنطينية لم تتوقف ، قام حلفاؤه النورمان بتهديد الإمبراطورية البيزنطية، "واستولوا على إقليمها دورا زوا عام 1082م، وهو الإقليم الذي يحظى بأهمية بالغة بالنسبة للعاصمة البيزنطية"[3].

وبذلك بدأ الإمبراطور البيزنطي يطلب نجدة أوروبا العسكرية، فاتجه أولًا إلى "الإمبراطور الروماني هنري الرابع، ولما كان هنري منشغلًا في حربه ضد البابوية الكلونيه، فإنه لم يكن بمقدوره مد يد المساعدة لإمبراطورية بيزنطة".

وأمام تزايد الخطر النورماني، لم يقف الإمبراطور البيزنطي مكتوف اليدين، وهو المعروف بحنكته السياسية، فالتجأ إلى مدينة البندقية لأنها مدينة تجارية مستقلة، ولها إمكاناتها الدفاعية، وفي المقابل لم تتأخر البندقية في التحالف مع الإمبراطور البيزنطي لاعتبارين: "الأول تطبيع العلاقات التجارية، وتأمين سلامة سفنها في البحر الأدرياتيكي مع بيزنطة، والثاني إزاحة الخطر النورماني مع ذلك الإقليم لعمق العلاقات العدائية معهم، وأسفر ذلك التحالف عن انسحاب النورمان من إقليم أدورا زوا"[4].

واستمر أوربان الثاني بنفس منهج سلفه جريجوري السابع، في شنه الحملات ضد تحركات هنري الرابع، الذي احتل روما، مما دفع البابا الجديد إلى نقل مقره من روما إلى حيث حلفائه النورمان، وواصل "عمله السياسي في دعم حركة المقاومة وتوحيد بعض الولايات الأوروبية ضد هنري الرابع، فقد عمل على إقامة علاقة زواج بين الأميرة الإيطالية ماتيلدة ودوق ياقاريا ولف الخصم اللدود للإمبراطور الروماني"، وفي الواقع لم يكن هدف هذا الزواج تقريب الصلات الاجتماعية بين حلفائه في المقاطعات الأوروبية "بقدر ما كان زواجًا سياسيًا، لكسب قوة ونفوذ هذين الطرفين، وتوجيههما ضد خصمه"[5].

---

([1]) جمال محمد سالم ، المرجع السابق، ص 158.

([2]) عادل زيتون ، المرجع السابق، ص 53.

([3]) سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق ، ص 80.

([4]) عادل زيتون، المرجع السابق ، ص57- 62.

([5]) عادل زيتون، المرجع السابق، ص107.

لكن قدرات الإمبراطور الروماني استطاعت أن تحقق انتصارًا على البابوية، باحتلاله عددًا من مقاطعات أوروبا، فضلًا عن محاصرته قلعة كاتوسا مقر نفوذ البابوية الكلونية، وإزاء هذا الحصار أسرع البابا أوربان الثاني للإطاحة بالإمبراطور، وذلك بمساعدة حلفائه، ولم يستطع الإمبراطور الروماني أمام كثرة الحملات البابوية أن يستمر في عدائه لها، لذلك نجده يرجع إلى ألمانيا لتوطيد نفوذه هناك، واستغل البابا هذا الوضع فعقد اجتماعات مكثفة مع رجال الدين، وحرضهم على التمسك بالأفكار الإصلاحية للكنيسة، ونصرتها في الشرق، وذلك بتعبئة شعوب أوروبا استعدادًا لشن حرب إفرنجية ضد المسلمين، خاصة بعد أن اطمأن على وضع الإمبراطورية البيزنطية التي وجهت طلبًا للبابا للمساعدة في نجدتها من الخطر الإسلامي، وزاد الوضع السياسي سوءًا إعلان البابا للحروب الإفرنجية، الذي أحرج الأباطرة والملوك، وأطاح بموقفهم أمام الرأي العام الأوروبي، وأصبحوا دون قاعدة شعبية لحكمهم السياسي في إقطاعاتهم[1]

وعندما بدأت الحملة الإفرنجية على المشرق العربي الإسلامي استطاع إمبراطور بيزنطة بفطنته للمخطط الكلوني وبمهارة دبلوماسية إبعاد الحملة عن عاصمته، بتغيير وجهة أولئك الإفرنج نحو الإقطاعات والإمارات الشرقية، التي حرموا منها في الغرب الأوروبي .

**3 ـ الأزمة الاقتصادية:**

لعل من أسباب حدوث أزمة اقتصادية في أوروبا آنذاك، ما نتج عن قرارات الإصلاح الديني التي قام بها جريجوري السابع، فقد أضرت كثيرًا بمصالح الملوك والأباطرة، لأنها تتنافى وسعيهم للحصول على أراض جديدة، وتوسيع رقعة أقاليمهم التي يملكونها، وهذا ما نجده واضحًا في تعيين الإمبراطور الروماني هنري الرابع لأحد رجال الدين المدعو (كلمنت الثالث) الذي "كان رجلًا ثريًا وطموحًا، فاستغل منصبه لكسب المزيد من الثراء على حساب الفئات الأخرى من نبلاء وفلاحين".

وكان للعامل الاقتصادي دوره الخطير في أوروبا، فقد "حدد الوضع الطبيعي لهيبة ومنزلة الأباطرة والملوك على باقي فئات المجتمع الدنيوي، وحقهم في السيادة على رعاياهم"[2] .

والمُلاحظ أن رجال الدين أنفسهم كانوا على درجة كبيرة من الغنى الفاحش، وعلى هذا الأساس رفض أباطرة ألمانيا أن يكون رجال الدين تحت تصرف الكنيسة في روما، لأن رجال الدين الألمان امتلكوا نصف أراضي ألمانيا وثرواتها، فخشي أولئك الأباطرة أن تنتقل هذه الممتلكات إلى أيدي كنيسة روما، ولعل نوايا بابا روما في استحواذه على القسطنطينية خير مثال على ذلك، حيث استولى حلفاؤه النورمان على إقليم (دورازوا)، وهو الإقليم المهم للعاصمة البيزنطية.

---

([1]) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، المرجع السابق، ص 110-111.

([2]) عادل زيتون، المرجع السابق، ص 86 ـ ص 106.

إن الحرب الأهلية التي سادت لفترة طويلة في أوروبا "جلبت الخراب على أراضيهم، وحرمت الفلاحين من ممارسة نشاطهم الفلاحي في أراضي وإقطاعات النبلاء، ورجال الدين، فضلًا عن أن البابوية سعت باستمرار إلى مساندة هذه الفئات، وإقناعها بضرورة التخلص من الحرب الداخلية، عن طريق نقلها إلى الشرق"[1].

كانت الأزمة الاقتصادية التي تعاني منها أوروبا آنذاك، وتقاطع مصالح رجال الدين والأباطرة الاقتصادية سببًا في البحث عن ملجأ آخر، لحل هذه الأزمة المتفاقمة التي عانت من آثارها الحرب الأهلية في أوروبا، لذلك يجب ألا يغيب الهدف الاستعماري الاقتصادي لهذه الحروب، والتي أخذت ستارًا دينيًا، وحاولت هذه الحملات أن تنقل أزماتها الاقتصادية إلى المشرق الإسلامي، بحيث "لا تختلف عن نمط الحياة الإقطاعية في أوروبا الغربية، وهو ما يؤكده عمق الدافع الاقتصادي لأمراء وقادة الحملات الإفرنجية، التي تجسدت رؤاها في حملاتها المتتالية للسيطرة على المواقع والنقاط الرئيسية في العالم الإسلامي، في موانٍ ومدن وممرات بحرية وبرية، التي من شأنها أن تجعل الطريق أمامهم سالكة، نحو أقصى الشرق الآسيوي"[2].

وبذلك كانت حالة المجتمع الأوروبي مُشجعة على القيام بحملاتهم الاستعمارية ضد بلاد الشام، فبدأت الاستعدادات والجهود لخروجهم من أوروبا، وانطلاقهم بحملتهم الأولى.

---

([1]) هانس ابرهارد ماير، المرجع الساق، ص 313.

([2]) جمال محمد سالم، المرجع السابق، ص 164.

## المبحث الثالث

## الحملة الإفرنجية(الصليبية) الأولى على بلاد الشام (490-492هـ/ 1097-1099م)

لم تكن الحملة الإفرنجية الأولى استثناءً من كل الأفكار والمشاريع، التي حاول الغرب الأوروبي التخطيط لها، بعقد مؤتمرات واجتماعات لشرح وتوضيح فكرتها، وكان أولها مؤتمر عقد في مدينة بلاصانس في إيطاليا عام (489هـ/1095م)، كمشاورات بين البابا (أوربان الثاني) والرهبان والقساوسة حول محاربة المسلمين.

والملاحظ أن جميع الخطط التي وضعها الغرب آنذاك كانت غالبًا تخرج من قبة الكنيسة ورجال الدين، لا سيما إذا كان الأمر يتعلق بالإسلام والمسلمين، لكن الأمر هنا لم يصل بعد إلى الكيفية التي يمكن بها محاربة المسلمين في المشرق الإسلامي، مما جعلهم ينتقلون من إيطاليا إلى فرنسا، حيث تم عقد مجمع كنسي آخر في مدينة كليرمونت جنوب فرنسا عام (1095/489م)، وكان هذا المجلس برئاسة البابا (أوربان الثاني)، وعدد كبير من الأساقفة والقساوسة، ووصلت إليه وفود الشعوب من أمراء ورؤساء كنائس ووفود ملوك أوروبا، "عندما سمع أوربان أن الأتراك قد احتلوا المناطق الداخلية من أراضي بيزنطة، وأن المسيحيين خضعوا لشعب متوحش هدام، هزته مشاعر التقى والورع، واجتاز مدفوعًا بمحبة الله الجبال هابطًا إلى أراضي فرنسا، ودعا إلى مجلس يعقد في أوفيرن، في مدينة كليرمونت وتألف هذا المجلس الذي كان قد بعث الدعاة للتحضير له في جميع النواحي من (310) أعضاء من الأساقفة والقساوسة"[1].

واجتمع الغرب الأوروبي بكل ممثليه السياسيين ورجال الدين، لمناقشة فكرة محاربة الشرق الإسلامي، وبعد مناقشات عديدة بينهم خلال المدة المقررة ألقى البابا (أوربان الثاني) خطابًا تناول فيه الغرض الذي دعاهم من أجله، حيث "التأم الجمع حول البابا (أوربان الثاني)، فألقى فيهم خطابًا بليغًا، تناول فيه الغرض الذي دعا من أجله، وبصوت مُفعم بالأسى أخبرهم عن عذاب الكنيسة، وألقى موعظة بليغة عن العواصف والهوجاء التي تجتاح العالم الذي انحط فيه مستوى الديانة المسيحية"[2].

وظهر من الخطاب أن مبررات صياغته كانت جاهزة، وهو كأي خطاب استعماري يحاول التبشير والخلاص لفئة من الناس، الذي استهل بالحديث عن المعاناة التي تواجه الكنيسة في الغرب والشرق، وأخطر سامعيه بضرورة بذل المساعدة لإخوانهم المسيحيين في الشرق؛ لما يعانونه من اضطهاد المسلمين لهم، كما أكد أهمية بيت المقدس وقداسته الخاصة، وحرض المسيحيين في الغرب لنجدة إخوانهم المسيحيين في الشرق، مانحًا لهم

---

([1]) فوشيه الشارتري، تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زياد العلي، دار الشروق للنشر والتوزيع، 1990م، ص 31.
وليم الصوري، المصدر السابق، ص 98.

([2]) فوشيه الشارتري، المصدر السابق، ص 31. قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 115

كل هبات الغفران، والتخلص من الذنوب، مُصورًا لهم الشرق الإسلامي بأزهى صورة تجذب سامعيه، لتملك الإقطاعيات والأراضي والعيش الرغيد [1].

ولا يختلف هذا الخطاب أيضًا عن غيره من الخطابات التي اعتاد الغرب الأوروبي صياغتها ، وبإعطائها نوعًا من المشروعية لتحقيق مآربه، خافيًا الغرض الحقيقي منها، وهو ما تمثل بالمطامع الأوروبية في الشرق تحت غطاء ديني، متمثلًا في نجدة المسيحيين في الشرق الإسلامي.

ولتأثير الخطاب الحماسي الديني بادر الآلاف من الصيليبيين للمشاركة في الحملة الإفرنجية الأولى، لا سيما بعدما عيّن البابا (أوربان الثاني) الأسقف البابوي، (أدهيمر) نائبًا عنه، وقائدًا للحملة الأولى، كي تكتمل أسس فكرة الحملة الإفرنجية التي أساسها العامل الديني، وبناءً عليه، فقد تولى أحد رجال الدين قيادتها[2].

وقد حدد البابا (أوربان الثاني) موعدًا لبداية الحملة ورحيلها إلى المشرق، وعيّن مكانًا لاجتماعهم تمثل في مدينة القسطنطينية عاصمة البيزنطيين، الأمر الذي أزعج الإمبراطور البيزنطي (الكسيوس كومنينوس)، لأنه كان على علم بطباعهم وأخلاقهم، المتمثلة في خلق الفوضى وعدم الاستقرار[3].

وبالرغم من معرفة البيزنطيين بنوايا الغرب الأوروبي اتجاههم، فإن الخطر الذي كان يهددهم من الشرق والسلاجقة ، كان أكبر مما سيأتي من الغرب، إضافة إلى ذلك تفشت منذ البداية عوامل الضعف، بسبب الفشل الذي اعتراهم في القيام وحدهم بمهمة مقاومة السلاجقة المسلمين، فاستعانوا بالكنيسة وملوكها ، وحثهم على حربهم[4].

إن الحملة الإفرنجية الأولى لم يتحمل وزرها رجال الدين والملوك فقط، بل كان هناك عامل آخر ساهم في شنها، تمثل بالعامل الشعبي الذي لم يغفله المؤرخون، حينما قسّموا الحملة الإفرنجية الأولى إلى قسمين، تمثل أولهما في الحملة الشعبية، والآخر النظامية المعروفة بحملة الأمراء، إلا أن الحملة الشعبية قد سبقت في الأهمية حملة الأمراء، إضافة إلى ذلك وجد عامل آخر تمثل في ظهور المبشرين المتجولين في أوروبا، الذين تأثروا بما حمله خطاب البابا (أوربان الثاني) من مواعظ في مجمع كليرمونت، وكان من بين هؤلاء المبشرين المدعو (بطرس الناسك)، الذي جاب أوروبا قاطعًا فرنسا والبلاد السلافية، وتمكن من كسب ود آلاف الفقراء للمساهمة في الحروب الإفرنجية، وقد استطاع هذا المبشر تجهيز خمسة جيوش من الفقراء، حيث كانت الجيوش الثلاثة

---

([1]) فوشيه الشارتري، المصدر السابق، ص31. المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة، حسن حبشي، دار الفكر العربي، 1958م، ص 7. ستيفن رانسيمان، المرجع السابق، ج 1، ص ص 189-190. قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 118.

([2]) ارنست باركر، المرجع السابق، ص 23. هانس ابرهارد ماير، المرجع السابق، ص67.

([3]) حسن حبشي، الحرب الصليبية الأولى، دار الفكر، 1985م، ص 59.

([4]) سيد علي الحريري، المرجع السابق، ص 24. ارنست باركر، المرجع السابق، ص 25.

الأولى بقيادة (جو تشلك)، و(وليام النجار)، إلا أن هذه الجيوش لم تستطع وصول القسطنطينية، بسبب ما لقوه من دمار على يد المجريين جراء ما ارتكبه الجند من أعمال العنف والدمار[1].

يقول وليم الصوري: "وسار (بطرس الناسك) بطائفة كثيفة من الناس، جمعهم بمشقة كبيرة من مملكة فرنسا وإمبراطورية ألمانيا"[2].

ولم يمنع (ولتر المفلس) و(بطرس الناسك) من الوصول بجيشهما إلى القسطنطينية، لكن الملاحظ على الحملة أنها لم تكن نظامية؛ لعدم وجود قيادة موحدة وخطة مرسومة، مما أدى إلى ملاقاة هذين القائدين مع رفاقهم حتفهم بين مدينتي نكوميديا ونيقية على أيدي السلاجقة المسلمين، ولم يبق من آثارهما إلا كومة من العظام، ليشهد من تلاهم من الإفرنج عند اجتيازهم هذا الموضع على مصير حملة الشعوب، ويؤكد كل من فوشيه الشارتري والمؤرخ المجهول ما حدث بقولهما: "كان أول من عبر هنغاريا المدعو بطرس الناسك، بعد أن جمع حوله حشدا من المشاة، وعددًا ضئيلًا من الفرسان، وبعد ذلك أصبح ولتر المعدم الذي كان جنديًا قديرًا قائد هذه المجموعة، وقد لقى هذا حتفه مع عدد كبير من رفاقه بين نيكوميديا ونيقيا، على أيدي الأتراك السلاجقة"[3]. وهذا يوضح أن قوة المسلمين كانت بيد الأتراك، كما أن الحملة الشعبية لم تكن منظمة مجهزة أو مدربة، لذلك سرعان ما تلاشت أمام أول قوة إسلامية واجهتها.

لم يمنع الحملة الإفرنجية (الصليبية) النظامية التي يقودها الأمراء والملوك من الوصول إلى القسطنطينية عام (490هـ/1097م)، ويذهب بعض المؤرخين الغربيين إلى أن أول حملة نظامية اتجهت إلى الشرق كانت بقيادة (جود فري بوايون) دوق اللورين وشقيقه (بلدوين) الذي سار بقواته إلى أن وصلت القسطنطينية[4]، وتتابعت بعد ذلك حملات الجيوش وجاء بعد ذلك (بوهمند جويسكارد) يقود حملته الإفرنجية المؤلفة من قادة النورمان، وفي مقدمتهم ابن أخته (تنكرد)، "وجاء من الجانب الآخر من جبال الألب بوهيموند ابن روبرت جيسكارد دوق أبو ليا، وابن أخته تانكريد وكثيرون" [5]..

وفي الوقت ذاته يوضح القس فوشيه الشارتري كيفية عبور حملة (الناسك) و(المفلس)، قبل أن تصل حملة (بوهمند) بقوله: "وبعده بيهمنده ابوليا ابن روبيرت جيسكارد، من النورمان، الذي مر بجيشه في نفس الطريق"[6] وعقب هذه الحملة وصلت الحملة البروفنسالية من فرنسا إلى القسطنطينية عام (491هـ/1097م)،

---

([1]) أرنست باركر، المرجع السابق، ص 25.

([2]) وليم الصوري، المصدر السابق، ص 110.

([3]) فوشيه الشارتري، المصدر السابق، ص 41. المؤرخ المجهول، المصدر السابق، ص 7.

([4]) موريس كين، المرجع السابق، ص 109.

([5]) وليم الصوري، المصدر السابق، ص 110.موريس كين، المرجع السابق، ص 110. قولفغانغ مولر- قيز؛ المرجع السابق، ص 11.

([6]) فوشيه الشارتري، المصدر السابق، ص 41.

بقيادة (ريموند دي صنجيل) أمير تولوز ومركيز بروفانس، وبرفقته المندوب البابوي وقائد الحملة الإفرنجية الأولى (ادهيمر)، الأسقف البابوي[1].

وآخر ما وصل من الحملات القسطنطينية كانت الحملة الفرنسية، التي وصلت عام (491هـ/1097م)، بقيادة (روبرت) أمير بورماندیا، وصهره (أيتين ستيفن) أمير بلوا، "وبدأ روبيرت كونت نورماندیا ابن وليم الفاتح ملك إنجلترا رحلته بعد أن حشد جيشًا كبيرًا من النورمان والإنجليز، وقد ذهب معه ستيفن كونت بلوا الذي كان زوج شقيقته وروبيرت كونت الأراضي الواطئة"[2].

وجاءت هذه الحملات من جميع بلدان أوروبا، وإن كان أغلبها من فرنسا إضافة إلى أعداد لا تحصى من بلاد تنطق لغات شتى، وإن غالبية المشاركين في الحملة الأولى كانوا من الفلاحين، وجماعة من سكان المدن وقطاع الطرق والمجرمين وصغار النبلاء، ولم تكن هناك أي رابطة تجمعهم سوى الحماس الديني الذي غرسه فيهم البابا (أوربان الثاني)، والرهبان[3].

إن الإمبراطور البيزنطي (الكسيوس كومنين) الذي استنجد بملوك أوروبا لإنقادهم من المسلمين، ما لبث أن ندم على ذلك، عندما أبلغ عن قرب وصول الجيوش الإفرنجية على حدود بلاده، لخوفه منهم، لذلك بدأ بالتخطيط لمواجهتهم ، وشرع في إعداد ما تحتاجه حملتهم نحو المشرق من مُؤن، أثناء اجتيازها للإمبراطورية، واتخاذ كل التدابير لمنعهم من تخريب القرى، وسلب السكان ونهبهم، وكان هدف الجيش الإفرنجي للإمبراطورية البيزنطية خلع (الكسيوس) على الرغم من تظاهرهم بنية الحج[4]، وزيادة في حرص (الكسيوس) على مدينة القسطنطينية، منع الإفرنج من دخولها؛ خشية نهبها وتخريبها، لكنه سمح لأعداد بسيطة منهم بدخول المدينة في كل يوم، وزيادة في الحيطة تم عقد اتفاقية في عام (491هـ/ 1097م)، مع قادة الحملة الإفرنجية، بشأن مدى مساعدة الإمبراطور البيزنطي لحملتهم في سبيل تحقيق مقصدها، مرفقًا ذلك بإعادة ممتلكاته بأيدي المسلمين[5].

وفي المقابل أدرك أمراء الحملة أهمية الاتفاق مع إمبراطور بيزنطة، على الرغم من الأعمال التي ارتكبتها جيوشهم في حقه، وهذا ما يشير إليه أحد المعاصرين للحملة الأولى بقوله: "كان من المحتم علينا إقامة علاقات ودية مع الإمبراطور، إذ لم يكن باستطاعتنا دون مساعدته ومشورته أن نقوم بهذه الرحلة، كما لن يكون

---

(1) فوشيه الشارتري، المصدر السابق، ص 41. المؤرخ المجهول، مصدر سابق، ص 31.

(2) فوشيه الشارتري، المصدر السابق، ص 41.

(3) ستيفن رانسيمان، المرجع السابق، ص 170. جوناثان ريلي، سميت، المرجع السابق، ص 57.

(4) فتحية النبراوي، حياة الإمبراطور الكسيوس كومينوس كمصدر من مصادر تاريخ العلاقات بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي في القرن الثاني عشر الميلادي، المجلة التاريخية المصرية، مج، 27، 1981م، ص 41.

(5) فتحية النبراوي، المرجع السابق، ص 41.

باستطاعته من يتبعنا على هذه الطريق أن يفعل ذلك، وقد وهب الإمبراطور للأمراء كثيرًا من الهدايا، وخلع عليهم الأردية الحريرية، بما أرضاهم وأعطاهم الجياد، والأموال التي احتاجوا إليها للقيام بهذه الرحلة"[1].

وقد زادت هذه الاتفاقية من توثيق عرى الصداقة بين الإمبراطور البيزنطي والأمراء الإفرنج، حتى وصل الأمر إلى تقديم الإمبراطور البيزنطي أشياء كثيرة لهم، يمكن أن تساعدهم أثناء سيرهم نحو المشرق العربي الإسلامي، فقدم لهم نصائح كثيرة، وتعليمات حول الطرق التي كان السلاجقة يستخدمونها أثناء القتال، وكذلك فيما يتعلق بترتيب جيوشهم، وكيفية نصب الكمائن، وإلى عدم مطاردة السلاجقة، واقترح عليهم أن يقوموا بعبور المضايق[2] بذلك تحركت الجيوش الإفرنجية ترافقها قوة بيزنطية بقيادة (تاتيكوس) لملاقاة السلاجقة المسلمين، وقتالهم في مدينة نيقية بآسيا الصغرى، وبالفعل تمت محاصرتهم للمدينة عام (491هـ/ 1097م)[3].

ساعدت عدة عوامل في دخول الإفرنج للمدينة الإسلامية بعد أن حاصروها لمدة زمنية، منها أن السلطان السلجوقي (قلج أرسلان بن سليمان) كان قد توجه إلى الحدود الشرقية للقضاء على المنازعات بين الأمراء المجاورين حول السيادة على ملطية، وغيرها من المدن الأخرى التي كانت تحت سيطرة الأرمن، إضافة إلى عدم إدراك (قلج أرسلان) ما يتهدده من خطر الغرب [4].

ليس صحيحًا ما ذهب إليه (رانسيمان) أن الخطر الإفرنجي في تلك الفترة لم يكن قد كشر عن أنيابه الحقيقية، بل جل ما كان يشغل بال (قلج أرسلان) المخاطر التي تهدده من الجهة الشرقية، فبادر إلى إنقاد المدينة المحاصرة، ولكن إنقاده لها جاء متأخرًا لسقوطها بأيدي البيزنطيين، لأن سكان المدينة قد راسلوا البيزنطيين، وسلموها لهم.

ويؤكد (وليم الصوري) دفاع أهالي المدينة عن مدينهم، بقوله:"وهاجموها أعنف هجوم، واستولوا قسرًا على ذلك المكان، رغم استبسال أهلها في مقاومتهم لكنهم فتكوا بهم وملكوها كل شيء في البلد ثم أعجبهم جمال الناحية وغناها، فحصنوها تحصينًا قويًا"[5].

أزعج تسليم المدينة للبيزنطيين الإفرنج كثيرًا، لأنهم كانوا على أمل أن ينهبوا كنوزها، لكن الإمبراطور البيزنطي كان أكثر حكمة منهم، حيث تمكن بعد استيلائه على المدينة من إرضاء الإفرنج بإغداقهم بالهدايا والأموال التي غنمها من المدينة [6].

وأدى ذلك إلى تحالف الجيوش الإفرنجية مع القوة البيزنطية، حيث تحركا نحو الشرق العربي الإسلامي، متخذين الطريق المؤدية إلى مدينة دوريليوم، وحدثت أثناء تحركهم هذا معركة دارت بينهم وبين السلطان

---

([1]) فوشيه الشارتري، المصدر السابق، ص 45.

([2]) أرنست باركر، المرجع السابق، ص 30-31.

([3]) عادل زيتون، المرجع السابق، ص 89.

([4]) ستيفن رانسيمان، المرجع السابق، ص 222- ص 232.

([5]) وليم الصوري، المصدر السابق، ص 126.

([6]) ستيفن رانسيمان، المرجع السابق، ص 230.

السلجوقي ( قلج أرسلان)[1]، أدت إلى انتصار الإفرنج برفقة البيزنطيين، على الرغم من استخدام السلاجقة المسلمين الخطط الحربية المتنوعة، لكن الكثرة العددية للإفرنج والبيزنطيين غلبت التكتيك العسكري السلجوقي، وهذا أدى إلى انتصارهم في المعركة، وبذلك كانت هذه المعركة نكبة على الإفرنج، حيث لقى كثير منهم مصرعهم، وتلقوا درسًا جعلهم يدركون خطورة السلاجقة المسلمين، ويولوهم ما يليق بهم من احترام[2].

وحرص بعض مؤرخيهم في قولهم للحقيقة بالإشادة بأعمال السلاجقة بأنهم "جنس شجاع من الشرق ماهرون باستعمال القوس"[3]. ولم تقف الحملة الإفرنجية عند حدود مدينة نيقية، بل سارت نحو مدينة قونية، التي لا تزال تحت حكم (قلج أرسلان) الذي ما إن وصله نبأ قدومهم حتى جمع عساكره، واستعد لرد هجماتهم، إلا أن الجيوش الإفرنجية حاصرت المدينة، واشتد القتال بين الطرفين، وانتهت بهزيمة (قلج أرسلان) وجيشه عام (490هـ/1097م)[4].

ويصف (ابن الأثير) أحداث هذه المعركة، فيقول: "ووصلوا إلى بلاد فلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش، وهي قونية وغيرها، فلما وصلوا إليها لقيهم (قلج أرسلان) في جموعه، ومنعهم فقاتلوه فهزموه، واجتازوا في بلاده[5]"، لذلك استمر الإفرنج في زحفهم نحو باقي المدن، ووصلوا إلى وادي هرقله الخصيب حتى وصلوا مدينة مرعش ثم إلى سهل أنطاكية، "فسلكوها وخرجوا إلى أنطاكية فحصروها"[6] إلا أن استمرارهم ذلك لم يكن سهلًا، حيث تعرضوا في كل مرحلة بقوة امتازت بالعنف وسرعة التنقل والحركة، إلا أن الإفرنج استطاعوا تحقيق هدفهم، بسبب عوامل عدة ساعدتهم على تحقيق ما وصلوا إليه تمثل في ضعف الدولة السلجوقية بعد (ملكشاه)، وانقسامها إلى جانب ضعف الفاطميين في مصر.

ولا يخفى الجانب الآخر الذي ساعد الإفرنج في حركتهم نحو بلاد الشام المتمثل في الإمارات الأرمينية الصغيرة الموجودة في آسيا الصغرى والممتدة على نهر الفرات الأوسط، وعلى جوف جبل طوروس مثل أرمينيا وملاطية والرها التي كان لها تأثيرها البارز اتجاه أحداث الشرق العربي الإسلامي، وخصوصًا أرمن الرها، حيث يشكلون الجزء الأكثر عددًا ونفوذًا من السكان، الذين هاجروا من بلادهم إلى آسيا الصغرى في

---

([1]) أحمد علي إسماعيل، تاريخ السلاجقة في بلاد الشام في القرنيين الخامس والسادس الهجري، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، 1983م، ص 183.

([2]) ستيفن رانسيمان، المرجع السابق، ص 234.

([3]) فوشيه الشارتري، المصدر السابق، ص 45.

([4]) سيد علي الحريري، المرجع السابق، 33.

([5]) ابن الأثير . المصدر السابق . ص 398

([6]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 398.

أواسط القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بسبب السياسة البيزنطية نحوهم، وسيطرة السلاجقة على ممتلكاتهم[1].

إضافة إلى ذلك فإن الحملة الإفرنجية عندما دخلت لأول مرة إلى بلاد الشام (491هـ/1097م) كانت هناك في جبال طوروس والجبال المقابلة طوائف مسيحية من السريان والأرمن مستقلة تحت حكم أمرائهم الخاصين، أما في السهول فكانت الطوائف الأرمينية تحت سيطرة الحكم العسكري للحاميات السلجوقية [2].

وكانت أولى المدن التي خضعت للغزو الإفرنجي مدينة الرها التي كانت تحت زعيم أرمني يدعى (ثوروس بن هيثوم)، الذي حكمها بعد أن خضعت لحكم السلاجقة على إثر وفاة زعيمها الأرميني الأول (فلاريتوس)، ومنحها السلطان السلجوقي (ملكشاه) لقائده (بوزان) عام (480هـ/ 1087م)، لكن احتدم النزاع بين أمراء السلاجقة وتمكن (ثوروس) من إعادة حكم الرها عام (488هـ/ 1095م) في مقابل دفع الجزية في كل سنة للمسلمين[3].

ونستنتج من ذلك، أن هناك عوامل أخرى أسهمت في نجاح الغزو الإفرنجي ـ الصليبي الأول

منها :

أولًا : تحالف الجيش الإفرنجي مع القوى البيزنطية في الهدف والغاية، في محاربة الإسلام والمسلمين، والحصول على مغانم الشرق الكثيرة والمتنوعة.

ثانيًا: انشغال السلطان السلجوقي بحروب داخلية ، تمثلت في النزاعات القائمة بين الأمراء العرب المحليين.

ثالثًا: عدم توقع أو احتساب خطورة الغزو البيزنطي الذي كان على أبواب مركز السلطان السلجوقي.

رابعًا: وجود طوائف عرقية ومذهبية كانت تعاني من التهميش في ظل حكم السلاجقة، مما ساعدهم على الترحيب بالغزو الإفرنجي (الصليبي) لإنقاذها من التسلط الإسلامي الذي يمثله السلاجقة.

خامسًا: كثرة الجيوش الإفرنجية عددًا وعدة مقابل قلة هذا العدد وضعفه في الجانب السلجوقي، حيث شكل عدم التكافؤ هذا عاملًا مساعدًا لغلبة الإفرنج في المعارك التي خاضوها مع السلاجقة، على الرغم من تنوع أساليب الحرب عند السلاجقة .

وبذلك دخل الإفرنج (الصليبيون) الأراضي الشامية، وبدأت مدنها وقراها بالجهاد، والتصدي لهم، والوقوف بوجههم بكل الطرق، لمنع زحفهم وتقدمهم، وإن كانت بدايتهم محاولة ليس إلا وهذا ما سنتناوله بالفعل .

---

([1]) ر.سي.سميل، المرجع السابق، ص 47.

([2]) سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 53 وبعدها.

([3]) سيد علي الحريري، المرجع السابق، ص 37...

## الفصل الثاني

## جهاد أهل الشام ومصر ضد الحملات الصليبية .

**المبحث الأول: جهاد مدن وقرى بلاد الشام ضد الغزو الصليبي .**

**المبحث الثاني: حملات الخلافة الفاطمية لاستعادة بيت المقدس من أيدي الصليبيين .**

**المبحث الثالث: تداعيات الجهاد الإسلامي في البلاد العربية والإسلامية على المستويين الشعبي والرسمي .**

**المبحث الأول : جهاد مدن وقرى بلاد الشام ضد الغزو الافرنجي-الصليبي .**

على الرغم مما أبداه (ابن القلانسي) المؤرخ الدمشقي عن حالة أهل الشام السيئة ، وموقفهم من قدوم الغزو الإفرنجي (الصليبي) إلى بلادهم، "فقلق الناس لسماعها واشتهارها[1]"، وما حققته الحملة الإفرنجية الأولى من نتائج باهرة، في الاستيلاء على بعض مدن وقرى الشام- فإن ذلك لم يمنع أهل الشام من اتخاذ موقف مضاد لهذا الغزو، حيث لم يتخذ أهل المدن والقرى التي تعرضت للغزو موقف الاستسلام والخضوع، إنما طلبوا الجهاد بالموت، والاستشهاد في الدفاع عن مواطنها وبلدانها، ولم يتركوها لنهب وسلب الإفرنج بالهروب والهجرة، وهو ما سنطرحه حول مقاومة وجهاد كل بلدة ومدينة هاجمها الإفرنج في حملتهم الأولى.

إن أول مدينة تعرضت لغزو الإفرنج (الصليبيين) في بلاد الشام أثناء الحملة الأولى، كانت مدينة الرها، وأظهرت موقفًا ضد هذا الغزو، تمثل في ترحاب أهلها المسيحيين بهذا الغزو، حيث سلموا المدينة إليهم دون مقاومة تذكر كي يُشعروا الإفرنج بتفضيلهم لهم، أما الموقف الرافض والمناوئ للغزو مثله السلاجقة المسلمون الذين كانوا على علاقة غير طيبة معهم تمثلت في دفع الجزية.

ولم تقف أطماع الإفرنج عند حدود الرها، بل تجاوزتها حيث أخذوا في التوسع والاحتلال، وكانت أنطاكية المدينة الإسلامية هدفهم الأول، وهنا لم يجد الإفرنج ما وجدوه عند إمارة الرها، فما كان من حاكمها وأهلها إلا جهادهم ومنع وتحصين مدينتهم من غزوهم، "وخف ياغي سيان إلى أنطاكية، وسيّر ولده دمشق إلى الملك دقاق، وجناح الدولة بحمص، وإلى سائر البلاد والأطراف بالاستصراخ والاستنجاد، والحث على النهوض إلى الجهاد..."[(2)]، وأخذ في تحصين مدينته وإعدادها للجهاد والمقاومة، ويقول (ابن الأثير): "ولما سمع ياغي سيان بتوجههم إليها، خاف من النصارى الذين بها، فأخرج المسلمين من أهلها ليس معهم غيرهم، وأمرهم بحفر خندق، ثم أخرج من الغد النصارى لعمل الخندق أيضًا، ليس معهم مسلم، فعملوا فيه إلى العصر، فلما أرادوا دخول البلد منعهم وقال لهم: أنطاكية لكم تهبونها لي حتى أنظر ما يكون منا ومن الفرنج..."[(3)].

وقبل وصول الإفرنج (الصليبيين) إلى مدينة أنطاكية نزلوا على البلانة، وهي قرية من قرى الشام وقاتلوا أهلها، وكذلك بلدتي بغراس وارتاح أيضًا، "ووصلوا إلى البارة وقتلوا فيها تقديرًا خمسين رجلًا"[4]، وهذا يؤكد أن أهل هذه القرى فضلوا الجهاد والقتال والموت ورفضوا الاستسلام، أو المهادنة لهذا الغزو، ويبدو أن الإفرنج لم يقاتلوا على جبهة واحدة، إنما كانوا يغيرون ويقاتلون هنا وهناك، لإفشال أي نجدة قد تأتي أنطاكية؛ ولجلب الغنائم والتموين لجندهم المحاصرين لمدينة أنطاكية.

وللجهاد والمقاومة دورهما الفعال، في الصمود لمواجهة حصار الإفرنج ـ الصليبي، من قبل أهلها وحاكمها، قبيل وأثناء الحصار فيما أبدوه من خطوات جهادية لمنع الغزو والاحتلال، والمتمثلة فيما كان يخرج من جنده

---

([1]) ابن القلنسي .المصدرالسابق . ص134.
([2]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 134.
([3]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 398.
([4]) ابن الأثير، المصدر نفسه .ص398.

لجهادهم خارج المدينة، الأمر الذي "جعل الإفرنج بينهم وبين أنطاكية خندقًا لكثرة الغارات عليهم من عسكر أنطاكية"؛ وتمكن (ياغي سيان) وأهل أنطاكية من جهاد الإفرنج ومقاومتهم "تسعة أشهر"[1]، مع بعض المحاولات الجهادية من جانب مدينة دمشق في الغارة والترصد لجماعات الإفرنج، ومع ذلك "ظهر من شجاعة ياغي سيان، وجودة رأيه، وحزمه، واحتياطه ما لم يشاهد من غيره، فهلك أكثر الفرنج...".

يقول (ابن الأثير): "فلما طال مقام الفرنج على أنطاكية راسلوا أحد المستحفظين للأبراج وهو زراد يعرف بروزبه، وبذلوا له مالًا وإقطاعًا.."[2].

بينما يقول ابن القلانسي: "في آخر جمادى الأولى ورد الخبر بأن قومًا من أهل أنطاكية من جملة الأمير ياغي سيان من الزرادين عملوا على أنطاكية وواطوا الإفرنج على تسليمها إليهم لإساءة تقدمت منه في حقهم ومصادرتهم، ووجدوا الفرصة في برج من أبراج البلد، مما يلي الجبل باعوه للإفرنج، وأطلعوهم إلى البلد في الليل، وصاحوا عند الفجر، فانهزم ياغي سيان..."[3].

وكلا الرأيين مقنع في كسب الإفرنج (الصليبيين) للرجل الزراد، وتسليمه البرج والمدينة لهم حتى ينهزم ياغي سيان وأهل مدينته، وتقع المدينة في قبضتهم، وليستولوا عليها، والسؤال: كيف أبقى ياغي سيان وغفل عن وجود هذا الرجل؟ وهو رجل أرمني على حد ذكر (ابن القلانسي).

ويؤكد هذا الرأي أغلب المؤرخين بـأن فيروز اتفق مع الإفرنج، وأطلع أحد قادتهم على أسرار الدفاع، وفتح له البرج الذي يتولى قيادته، بذلك تم دخولهم للمدينة[4].

وهو ما يؤكده أيضًا المؤرخ (يوشع براور) بأن سبب سقوط المدينة هو خيانة فيروز الأرمني بقوله "على الرغم من بسالة الدفاع عن المدينة، فإنها سقطت بسبب خيانة الأرمن"[5].

وسقطت المدينة في يد الإفرنج (الصليبيين)، إلا أنه وبعد أشهر يبدو أن هناك إنجادًا من قرى ومدن الشام لإنطاكية، فيما يقول ابن القلانسي: "وبعد افتتاح الإفرنج بلد أنطاكية، تواصلت الأخبار بصحة ذلك، فتجمعت عساكر الشام في العدد الذي لا يدركه حصر ولا حرز، وقصدوا عمل أنطاكية للإيقاع بالإفرنج، فحصروهم حتى عُدم القوت عندهم فأكلوا الميتة، ثم زحفوا وهم في غاية من الضعف إلى عسكر الإسلام وهم في الغاية من القوة والكثرة، فكسروا المسلمين، وفرقوا جموعهم".

ويعلق ابن القلانسي أيضًا، قائلًا: "وانهزم أصحاب الجرد السبق، ووقع السيف في الرجال المتطوعين والمجاهدين والمغالين في الرغبة في الجهاد وحماية المسلمين"[6].

---

([1]) ابن الأثير، المصدر نفسه، ص 398.
([2]) ابن الأثير، المصدر نفسه ، ص 398-399.
([3]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص135.
([4]) الحافظ الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق فؤاد سيد، الكويت، 1961م، ج3، ص 330، أحمد بن يوسف الفارقي، تاريخ الفارقي، تحقيق، بدوي عبد الطيف عوض، الهيئة العامة للشؤون المطابع الأميرية، 1959م، ص 268.
([5]) - يوشع براور، المرجع السابق، ص 54.
([6]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 136.

و مما سبق يتضح أن أهالي الشام ومدنها وقراها لم يقفوا مكتوفي الأيدي تجاه الغزو الإفرنجي ـ الصليبي منذ بدايته، أو نهايته، وعلى الرغم من قسوة الغزو ووحشيته، وضعف الإمكانات والقدرات العسكرية للمسلمين في بلاد الشام، فإن ذلك لم يمنعهم من المقاومة والجهاد في سبيل الإسلام والمسلمين .

واصل الإفرنج ـ الصليبيون زحفهم إلى باقي المدن الشامية، إلى أن وصلوا معرة النعمان "وفي عام (492هـ) زحف الإفرنج (الصليبيون) إلى سور معرة النعمان، وقتل خلق كثير من الفريقين".

ولم يقف الإفرنج (الصليبيون)عند هذه المدينة فقط، بل امتد مسيرهم إلى بيت المقدس المدينة التي تعدُّ من أهم المدن لديهم، لما تمثله من مكانة دينية وتاريخية ، فملكوها وقتلوا كل من بها.

ويقول ابن القلانسي في هذا الشأن: "ثم قصدوا ناحية بيت المقدس، واجفل الناس منهم من أماكنهم، ونزلوا على الرملة، فملكوها وانتقلوا إلى بيت المقدس، فقاتلوا أهله"[1]. ويتوسع (ابن الأثير) في ذكره لأحداث سقوط بيت المقدس بقوله: "لبث الإفرنج في البلدة أسبوعًا يقتلون فيه المسلمين، واحتمى جماعة من المسلمين بمحراب داوود، فاعتصموا به، وقاتلوا فيه ثلاثة أيام"[2]، بذلك سقطت بيت المقدس وقتل علماؤها ومشائخها، وأسس الإفرنج (الصليبيون) إمارتهم بها.

ولم يكتف الإفرنج ـ الصليبيون عند حدود بيت المقدس ، بل كان سقوطها عاملًا مشجعًا لهم ليواصلوا تقدمهم نحو باقي المدن الشامية، حيث شرعوا في حصار مدينة طرابلس، التي قاوم أهلها حصارهم، حتى اشتد بهم الأمر "اشتد الأمر بفخر الملك بن عمار بطرابلس من حصار الإفرنج (الصليبيين) وتطاول أيامه وتمادي الترقب لوصل الإنجاد"[3].

رغم كل ذلك، ظل أميرها فخر الملك مدافعًا عنها حيث أرسل للمدن المجاورة لطلب العون والمساعدة، ولكن دعوته لم تلق قبولًا، فمنهم من تخاذل ومنهم لم يحرك له وضع المدينة ساكنًا، وبذلك سقطت المدينة حالها حال باقي المدن الشامية التي وقعت تحت يد الغزو الإفرنجي ـ الصليبي.

إن تاريخ الحروب الإفرنجية (الصليبية) يكشف لنا بلا أدنى شك عمق الجهاد والمقاومة التي أبداها أهالي الشام، وقضاتها وحكامها ضد الغزو، على الرغم من جسامة التضحيات التي قدمها المجاهدون، التي تمثلت في الجهاد بالنفس وعلى الرغم من ضعف الجانب الاقتصادي أيضًا، والمتمثل في فقر المواد اللازمة لديمومة الحياة، فإن حركة الجهاد والمقاومة لم تقف ولم تتخاذل أمام جبروت وطغيان الإفرنج ـ الصليبيين.

إلا أن ذلك لم يمنع الإفرنج ـ الصليبيين من إعادة المحاولة مجددًا للوصول إلى بيت المقدس بيسر وسهولة، حيث ساعدت الخلافات بين الأمراء المحليين وعدائهم في تلك المرحلة على أن يحتل الإفرنج بيت المقدس، ويجعلوه قاعدة للانطلاق نحو السيطرة على باقي بلاد الشام بما يمثله بيت المقدس من عُمق ديني وتاريخي

---

([1]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 136.
([2]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 405.
([3]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 160.

ونفسي، ومع ذلك فإن حركات المقاومة لم تتوقف أو تتخاذل، فقد ساعدت القوة الإسلامية على تنظيم صفوفها، والوقوف بوجه المد الإفرنجي، حيث أدركوا أن الإفرنج لم يقفوا عند حدود بيت المقدس فقط، وهذا ما سوف يتم توضيحه في الصفحات المقبلة حول استمرار الغزو الإفرنجي في مقابل تزايد الجهاد والمقاومة في صفوف المسلمين، ومن أبرز مظاهره التي أخذت طابعًا تنافسيًا محاولة الفاطميين لاسترداد واسترجاع بيت المقدس من أيدي الإفرنج.

**المبحث الثاني : حملات الخلافة الفاطمية لاستعادة بيت المقدس من أيدي الصليبيين**

كان بيت المقدس بيد الفاطميين أثناء الهجوم الإفرنجي وأخذهم لها، إلا أن ذلك لم يقف حائلًا دون محاولة الفاطميين استرداد بيت القدس، حيث شكل ذلك تحديًا لهم لأنهم اعتبروه من ضمن ممتلكاتهم، بعيدًا عن أية محاولة تصنف بأنها تنتمي إلى حركة الجهاد والمقاومة.

وعند قراءة الأحداث التاريخية التي تناولت محاولة الفاطميين لاسترداد بيت القدس، نجد أن هناك ثلاث حملات على الرغم من قلة الإمكانات والعدة والعدد، إذ لم يأل أمير الجيوش العربية والعساكر في مصر جهدًا في تسخير الإمكانات والعساكر، لطرد الإفرنج من بلاد الشام ومصر وفلسطين.

"جمع الأفضل أمير الجيوش العساكر وحشد وسار على عسقلان، وأرسل إلى الإفرنج ينكر عليهم ما فعلوا ويتهددهم"[1]، وحتى بعد أن تلقى الهزائم لم ييأس، "وعندما تلقى الأفضل أنباء الهزيمة التي حلت بجيوشه على يد الإفرنج جاش غضبًا، وأسرع إلى إعداد حملة كبيرة من العرب والسودان، وتم تجميع هذه القوة الكبيرة التي بلغت عشرة آلاف رجل في عسقلان بقيادة شرف الدولة المعالي ابن الوزير الأفضل"[2].

وإذا ما عدنا إلى الوزير الأفضل وجدناه لم ينفك عن التفكير في إرسال حملة كبيرة من مصر لطرد الإفرنج من الشام، وفعلًا اندفع باتجاه الخطوة الحاسمة والأخيرة، "فجمع عام (498هـ/1105م) بعسقلان جيشًا كبيرًا بلغ خمسة آلاف من المصريين والسودان، فضلًا عن الفرسان العرب، واضعًا هذا الجيش الضخم بقيادة ولده سناء الملك حسين"[3] ونكتفي بهذا العدد القليل من الجهود التي بذلها هذا الوزير وأبناؤه في سبيل صد الغزو الإفرنجي .

وفي المقابل، لم يألُ الآخر متمثلًا في القائد (بلدوين) أمير الرها وأخيه (جودفري) جهدًا في سبيل هزيمة المسلمين والانتصار عليهم.

إن الأمير (جودفري دي بويون) أخذ يشن من الرملة غارات على ضواحي أرسوف لإرغام أهلها على الاستسلام[4]، أما (بلدوين) فلم تكن خطورته كبيرة، "وكان يتعين على الدولة الفاطمية أن تواجه عدوًا شرسًا كان أكبر همه أن يخضع مدن الساحل، فيؤمّن المواصلات البحرية بالوطن الأم، ويقطع الطريق على الأسطول الفاطمي ونشاطه ضد الإفرنج"[5] حتى بعد اندحاره في الحملة الثانية التي حدثت عام (495هـ/ 1102)، وبدأ على جناح السرعة تجميع الجيوش الإفرنجية لمواجهة الجيوش الفاطمية حتى تحقق له النصر، وبفضل ما عمله (بلدوين) من تنظيم لقواته تمكن من إنزال الهزيمة بالجيوش الفاطمية التي استطاعت أن تشق طريقها إلى عسقلان، لتفادي إبادة قواتها من جهة، ولتجميعها من جديد بانتظار نجدة سريعة من الأفضل من جهة أخرى.

---

([1]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص407.
([2]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص137.
([3]) ابن الأثير، المصدر السابق، 479.
([4]) سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، المرجع السابق، ص207.
([5]) السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مطابع رمسيس ، الإسكندرية، 1967م، ص83- 88.

وعلى الرغم من التشابه في الأدوار، فالاختلاف واضح بينهما من حيث الأساليب والشجاعة، فقد كان الأفضل أكثر شجاعة وأخلاقًا من (بلدوين) ومن جميع القادة الإفرنج الذي استعملوا أساليب غير شرعية وإنسانية في غزوهم، وكان (بلدوين) في كثير من الأحيان مغرورًا، لأن النصر السابق الذي أحرزه جعله يستخف بأمر الفاطميين، ولم يستطع (بلدوين) الممتلئ غرورًا وغطرسه والنائم على حرير انتصاراته السابقة مع فرسانه أن يثبتوا أمام الجمع الإسلامي[1]، ويؤكد (ابن الأثير) أنه كان جبانًا يخاف المواجهة بقوله: "فانهزم الإفرنج وقتل منهم مقتلة عظيمة، وعاد من سلم منهم مغلولين، فلما رأى بلدوين شدة الخوف وخاف القتل والأسر ألقى بنفسه في الحشيش، واختفى فيه، فلما أبعد المسلمون خرج منه إلى الرملة"[2].

كان الأسلوب الذي اتبعه العرب المسلمين ضد الإفرنج ـ الصليبين يختلف اختلافًا كبيرًا عن الأسلوب الذي اتبعه الإفرنج ضد المسلمين، وقد ساعد هذا الأسلوب المتباطئ على فوز الفاطميين عليهم، ففي الوقت الذي لم يحسب فيه الفاطميون أساليب الإفرنج وقوتهم وسرعتهم المباغتة، إضافة إلى استخدامهم أساليب غير شرعية كل ذلك ساعدهم في دحر المسلمين، ولم تكن حملاتهم قد أتت بنتائج إيجابية فباغت الإفرنج الفاطميين، ونزلوا لهم في عقر دارهم حيث لم يتوقف وجودهم بهذه السرعة المفاجئة، "فأعادوا الرسول، ولم يكن عند المصريين خبر وصولهم، ولا من حركتهم، ولم يكونوا على أهبة القتال فنادوا إلى ركوب خيولهم، ولبسوا أسلحتهم، وأعجلهم الإفرنج فهزموهم وقتلوا منهم من قتل"[3].

إن أسلوب المفاجأة غير المتوقعة الذي اتبعه الإفرنج ـ الصليبيون أسهم إلى حد كبير في هزيمة الفاطميينو في الوقت الذي أضاعوا فيه كثيرًا من الوقت والجهد في الانتظارو مما عاد بالفائدة على الإفرنج في تحقيق النصر"على أن تلك الحملة أضاعت كثيرًا من الوقت في عسقلان، مما ترتب عليه تجميد الجيش الفاطمي عدة أشهر بلا عمل أو حركة، ومن المرجح أن الانتظار هذا مرده إلى وصول إمدادات جديدة من مصر، وكان لا بد أن تظهر النواحي السلبية من هذا الانتظار بالاستعداد الكافي الذي استفاد منه بلدوين في جمع قواته ووضع خطته"[4].

إضافة إلى هذا الأسلوب، كانت السرعة في توقع الخطر، أو احتلال أماكن جديدة أسهمت في استيلاء الإفرنج (الصليبيين) على أماكن جديدة، وطرد العرب المسلمين منها إلى الأهمية الاستراتيجية والحصينة، ناسيًا- بلدوين- أو متناسيًا أن عكا من أحصن موانى الشام في كل العصور التاريخية، وإنه لا يستطيع بوضع قواته الراهن آنذاك أن يقهر عكا، لكنها مع ذلك سقطت في يد الإفرنج، وكان ذلك لتباطؤ الفاطميين وعدم قدرتهم، وبسقوط عكا يكون الأسطول الفاطمي قد خسر أهم قواعده بالشام، وأصبحت السيادة على شواطئ فلسطين للإفرنج ـ الصليبيين.

---

([1]) فهمي توفيق، الفاطميون والصليبيون، الدار الجامعية للنشر، بيروت، 1980م، ص85 -87.
([2]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص459.
([3]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 407.
([4]) المصدر نفسه، ص 459.

إن ضياع عكا كان خسارة فادحة للمسلمين، وظهر ذلك جليًا في أقوال المؤرخين الذين أبدوا أسفًا وحزنًا عميقين لتلكؤ الفاطميين، وعجزهم عن حماية مواني الشام التي أخذت تتساقط واحدة تلو الأخرى، في أيدي الإفرنج[1]، ومن هؤلاء المؤرخين (ابن تغرى بردي) الذي يقول عن الخليفة الفاطمي إنه كان "يتباهى في العظمة، ويتقاعس عن الجهاد... وكان فيه تهاون في أمر الغزو والجهاد حتى استولت الإفرنج على غالب السواحل وحصونها في أيامه... فإنه لم ينهض لقتال الإفرنج البتة"[2].

لذلك، انتصر الإفرنج (الصليبيون) بفضل "الاستعداد الذي أفادوا منه خلال تلكؤ الجيش الفاطمي في المسير والانتظار"[3]، كما رافق هذا الأسلوب أساليب غير شرعية وغير إنسانية رافقت الغزو الإفرنجي من القتل الوحشي والإبادة الجماعية والحرق والسرقة والنهب، مما اعتاد عليه الإفرنج الذين لم يكونوا سوى شرذمة من المقاتلين، وهذا ما يؤكده المؤرخ (ستيفن رانسيمان) أن الأمير (جودفري دي بويون) أخذ يشن من الرملة غارات عدوانية على ضواحي أرسوف، لإرغام أهلها على الاستسلام وتمكن الإفرنج من أسر بعض أهالي أرسوف عام (49 هـ/ 1100م)، وهم متوجهون لمباشرة نشاطهم في مزارعهم القريبة من أجل لقمة العيش، فانتقم منهم الإفرنج انتقامًا وحشيًا، وذلك بإقدامهم على قطع أنوفهم وأقدامهم وأيديهم[4].

إن فشل الحملات الفاطمية الثلاث يرجع إلى ضعف الدور الذي أدته الخلافة الفاطمية في مواجهة الغزو الإفرنجي، صحيح أنها لم تقف مكتوفة الأيدي أمام الإفرنج ولم تتخاذل، بل عملت على بذل جهدها من أجل إنقاذ الموقف على الرغم مما آلت إليه نتيجة هذه الحروب، لكن دورها لم يرتق إلى مستوى المسؤولية التاريخية فقد اكتفت بتقديم مساعدات ضعيفة وبسيطة للمسلمين لم تستطع من خلالها أن تنقذ الموقف ، إذ اكتفى الأفضل بأن بعث إليهم قوة صغيرة من" ثلاث مئة جندي، وهذه القوة وقعت في كمين نصبه الإفرنج مارس عام(492هـ/ 1100م) مما جعل إيمان أهل أرسوف يضعف في جدوى الحماية الفاطمية، مما اضطرهم إلى الدخول في تبعية الإفرنج، وهذا ما حصل تمامًا بالنسبة لحكام عسقلان وقيسارية وعكا، حين عجزت الدولة الفاطمية عن حمايتهم"[5]، وهكذا فإن هذه الاشتباكات والمعارك بين الإفرنج والفاطميين أعطت صورة واضحة للإفرنج عن حقيقة الدولة الفاطمية وضعفها، صحيح أنها قدمت مساعدات لكنها لم تثمر عن شيء، فقد رافقتها أساليب الانتظار وعدم التوقيت المناسب، مما أدى إلى ذهاب هذه المعونات أدراج الرياح، "فقام الوزير الأفضل بإرسال ثلاث حملات كبيرة إلى فلسطين في السنوات (493-494 -498هـ/ 1101-1102-1105م) أما الحملة الفاطمية الأولى فكانت بقيادة المملوك (سعد الدولة القواس)، وقد تجمعت هذه الحملة في عسقلان التي أصبحت بمثابة قاعدة للانطلاق لجميع الحملات التي خرجت من مصر ضد الإفرنج في تلك المرحلة ، على أن تلك الحملة

---

([1]) فهمي توفيق مقبل، المرجع السابق، ص 88-90 .
([2]) ابن تغرى بردي، المصدر السابق، ص 178.
([3]) ابن الأثير، المصدر السابق، 459.
([4]) ستيفن رانسيمان، المرجع السابق، ص 105.
([5]) توفيق فهمي مقبل، المرجع السابق، ص88.

أضاعت كثيرًا من الوقت في عسقلان ، وكذلك بعد وصول الإمدادات تحركت الجيوش الفاطمية متجهة إلى منطقة الرملة، حيث تستطيع تهديد كل من يافا وبيت المقدس وبعد طول انتظار التقى الجيشان الفاطمي والإفرنجي في الرملة، ودارت معركة رهيبة، انتصر فيها الإفرنج بفضل الاستعداد الذي أفادوا منه خلال تلكؤ الجيش الفاطمي في المسير والانتظار.

ويلاحظ أن تلك الإمدادات غالبًا ما تأتي لتأزم عسكري، فقد كانت إمدادات أزمة وليس إمدادات حل، ولذلك لم تكن لها نتائج تذكر لأن "الوزير الأفضل ما إن سمع بهزيمة ابنه (شرف المعالي) حتى أسرع على الفور بإرسال حملتين، إحداهما برية تألفت من أربعة آلاف فارس تحت قيادة المملوك تاج العجم، والأخرى بحرية برئاسة القاضي ابن قادوس"[1]، وفي ظل افتقار التعاون بين هذه الحملات والإمدادات آثرت الجيوش الفاطمية الانسحاب بعد أن لقت هزيمة أمام يافا، خاصة بعد وصول نجدات قوية للإفرنج[2]، يضاف إلى ذلك قوة المساعدات الإفرنجية التي كانت تقف في وجه المساعدات الفاطمية، "مما أسرع في إحباط خطط الحصار لميناء عكا، وتبديد الحماس الإفرنجي بوصول نجدات فاطمية بحرية على عجل من سائر السواحل انطلقت من صور وصيدا، وبوصول السفن الفاطمية إلى ميدان المعركة انسحب الملك (بلدوين) رافعًا الحصار عن عكا، بعد أن ضيّق عليها وكاد أن يأخذها، وبذلك فشلت جهود (بلدوين الأول) للانقضاض على عكا، إلا أنه بقى مستعدًا لتحقيق غرضه، فما إن سنحت الفرصة عام (497هـ/ 1104م) بوصول عدد كبير من السفن إلى الشام، شرع (بلدوين) مستعينًا في إعادة الكرة بشن هجوم واسع، مستهدفًا عكا من جديد"[3].

لم يستهن الإفرنج ـ الصليبيون بالإمدادات أو المعونات الفاطمية لكنهم عملوا جاهدين على أن يوازوا هذه المساعدات، فقد جاءتهم مساعدات كثيرة أنقذتهم في بعض الأحيان من مواقف صعبة، كما ساعدتهم على خوض المعارك والانتصار فيها، وعلى ما يبدو أن "حملة الفاطميين عام (498هـ/ 1105م) كانت آخر محاولة قاموا بها ضد الإفرنج في ذلك الدور من أدوار ضعف الخلافة الفاطمية"[4].

هناك عامل مساعد آخر، ساعد على فشل العرب والمسلمين في صد هجمات الغزو الإفرنجي، ومن ثم فوزه عليهم، تمثل في خضوع وتخاذل كثير من المناطق العربية في مصر، أو في بلاد الشام، حيث ساهمت في تسهيل الأمور والدخول إلى المناطق العربية دون مقاومة تذكر بل وصل الأمر بها إلى تقديم المساعدة المادية والمعنوية للجيوش الإفرنجية، خاصة مع ضعف المساعدات الفاطمية، وعندئذ اكتفى الأفضل بأن بعث إليهم قوة صغيرة من ثلاث مئة جندي، وهذه القوة وقفت في كمين نصبه الإفرنج مما جعل إيمان أهل أرسوف يضعف في جدوى

---

([1]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 459.
([2]) سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 234.
([3]) ـ ابن القلانسي، المصدر السابق، ص143- 144.
([4]) ـ فهمي توفيق مقبل، المرجع السابق، ص91.

الحماية الفاطمية، مما اضطرهم للدخول في تبعية الإفرنج وهذا ما حصل تمامًا بالنسبة لحكام عسقلان وقيسارية وعكا، حين عجزت الدولة الفاطمية عن حمايتهم، فأعلنوا تبعيتهم للإفرنج[1].

وإذا كان الانضمام إلى الإفرنج ـ الصليبيين قد تم تحت ظرف الاضطرار، إلا أن هناك انضمامًا آخر للإفرنج لم يكن الاضطرار فيه بل على العكس تمامًا، حيث لقيت الجيوش الإفرنجية كل ترحيب واحترام ومساعدة.

يؤكد ذلك المؤرخ (السيد عبد العزيز سالم) في كتابه "طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي" بقوله إنه "وصل إلى طرابلس، حيث أكرمه أميرها ( فخر الملك) وأمده ورجاله بكل ما كانوا في حاجة إليه من ميرة وغذاء، وخرج (بلدوين) من طرابلس وتابع سيره إلى بيت المقدس، واجدًا ترحيبًا حارًا في بعض المناطق التي مرَ بها، وأخيرًا وصل بيت المقدس، حيث نُودي به ملكًا على هذه المنطقة"[2] .

وافتقد العرب لروح التعاون فيما بينهم، ولكنهم وقفوا أو بعض منهم مع المحتل، ويبدو هذا جليًا برفض (تاج العجم) معاونة (ابن قادوس)، حيث أخبره بأنه لا يمكنه أن يمد له العون دون أمر الأفضل، وأدار له ظهره مما اضطر (القادوس) أن يرسل إلى قاضي عسقلان وشهودها وأعيانها، وأخذ خطوطهم إثباتًا على أنه أقام على يافا عشرين يومًا استدعى (تاج العجم) فلم يأته، ولا أرسل رجلًا[3]. بل الأمر وصل به إلى محاولة الهرب من الجيوش الإفرنجية وعدم مقاومتها عبر الصحراء حتى وصل إلى ميناء إيلات، وعندما وصل إليها وجد سكانها قد هربوا إلى البحر طلبًا للحماية[4].

وإذا كانت هذه العوامل سالفة الذكر ، أسهمت وبشكل رئيسي في إفشال الحملات الفاطمية الثلاث، إلا أن ذلك لا يمنع القول من باب الإنصاف لكلا الفريقين إن محاولات الفاطميين لم تتوقف، ولم تكن أرض العرب والإسلام لقمة سائغة أمام الإفرنج، بل على العكس تمامًا فقد شهدت تلك المرحلة محاولات جادة للقضاء على الإفرنج، و"أن الفاطميين احتفظوا بزمام المبادرة مهددين الإفرنج بين حين وآخر، ولكن في نطاق ضيق، وكانت عسقلان أكبر قاعدة للفاطميين لشن الهجمات ضد الإفرنج، ومن أشهر هذه الغارات الهجومية غارة القوات الفاطمية عام (499 هـ/1106) على قافلة من الحجاج الإفرنج بين يافا وأرسوف، ثم أغاروا على الخليل عام (500هـ/ 1107م)، كما سجل عام (503هـ/ 1110م) وصول الفاطميين إلى أسوار المدينة المقدسة"، كما شهدت تلك المرحلة الصعبة تعاونًا بين الفاطميين والشاميين، وهذه أول محاولة عملية يشترك فيها المسلمون في مصر والشام ضد الإفرنج[5].

هرب الإفرنج (الصليبيون) وقائدهم (بلدوين) عند محاولة دخولهم إلى مصر، حيث شهدت تلك المرحلة تنامي الوعي على الصعيد الرسمي، فما إن وصلت أخبار الغزو الإفرنجي وما صاحبه من أعمال تخريبية حتى هبت

---

([1]) ـ سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص213-214.
([2]) ـ السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص 88.
([3]) ـ ابن الأثير، المصدر السابق، ص459.
([4]) ـ فهمي توفيق مقبل، المرجع السابق، ص93.
([5]) ـ ستيفن رانسيمان، المرجع السابق، ص ص119-121.

مصر الفاطمية على الصعيد الرسمي، فأرسل الوزير الفاطمي الأفضل العساكر إلى والي الشرقية يطلب منه أن يتقدم بنفسه على رأس هذه القوات للتصدي للإفرنج، ولكن (بلدوين) ما إن علم بقدوم القوات المصرية حتى أمر جنوده بالرحيل فورًا.

بقى أن نقول، إن هناك عاملًا خارجيًا أسهم إلى حد ما في نصرة الإفرنج، تمثل في خروج بعض الأمور من تحت سيطرة الفاطميين، التي لا يستطيع الفاطميون التغلب عليها، نعني العوامل المناخية التي قضت على بعض سفنهم، أما الأسطول الفاطمي فقد عاد إلى قواعده في صور وصيدا وطرابلس، لكنه تعرض بعد ذلك أثناء عودته إلى مصر لعاصفة قذفت نحو عشرين سفينة من سفنه إلى الموانئ التي احتلها الإفرنج، فتم أسرها جميعًا[1].

إن ضعف العامل الخارجي (البحري)، والمساعدات والإمدادات الخارجية من أوروبا للإفرنج ساهمت إلى حد ما في فشل الحملات الثلاث التي وإن انتصر فيها الفاطميون في إحداها (الحملة الثانية)، لكنهم فشلوا في اثنتين، لا سيما بعد أن أصبحت سيطرة الفاطميين على الموانئ الخارجية سيطرة شكلية.

وفي هذه المرحلة الخطيرة، ظهرت تداعيات جديدة أفرزتها طبيعة المرحلة، حيث لم تكن محاولات الفاطميين لاسترداد بيت المقدس تنبع من عقيدة دينية وجهادية، بقدر ما كانت محاولة لاسترداد ملك خاص بهم، وهذا ما أدى إلى فشلهم في النهاية، لأنهم لم يتحركوا ضمن عقيدة الجهاد والمقاومة.

ومن أبرز تداعيات الحملات الفاطمية لاسترداد بيت المقدس أن تحول الجهاد فيها إلى مستوى آخر هو المستوى الشعبي، حيث أدركت الجماهير العربية والإسلامية أنه لا مناص من توحيد صفوفها لاسترجاع بيت المقدس وغيرها من المدن العربية في بلاد الشام وفلسطين.

أسهم هذا التحول الخطير في مستوى الجهاد بشكل واضح في ازدياد وتيرة الجهاد، الذي أفرز تقدمًا واضحًا في حركة المقاومة، نتج عنه تحرير الأرض العربية من الإفرنج (الصليبيين).

---

([1]) فهمي توفيق مقبل، المرجع السابق، ص ص91 - 94.

**المبحث الثالث : تداعيات الجهاد الإسلامي على المستويين الشعبي والرسمي .**

لم تكن تداعيات الجهاد على المستوى الرسمي بأكثر وعي من المستوى الشعبي، حيث لم يدركوا طبيعة وأهداف ذلك الغزو في بداياته الأولى، لأنهم كانوا مكونين من فئات متباينة وغير متماسكة سواء في الموقف السياسي أو الاقتصادي، ويبرز على رأس تلك الفئة جماعة القضاة والأمراء الذين أمسكوا بالسلطة السياسية في غالبية مدن الساحل الشامي، وحاولوا الاحتفاظ بها لأطول فترة ممكنة، على الرغم من وصول طلائع الإفرنج ـ الصليبيين إلى بعض مدنهم ـ كما هو الحال مع القاضي ابن عمار في طرابلس، والقاضي ابن عقيل في صور.

وكان هؤلاء القضاة منهمكين في السياسات المحلية والإقليمية، وبذلك ساهموا ولو بصورة غير مباشرة في استمرارية حالة التجزئة السياسية والدينية، وتوفير الفرصة للإفرنج ـ الصليبيين للتحرك نحو باقي المدن الشامية، حيث لم يسعوا في تكوين جبهة واحدة.

والأمر يختلف ولو إلى حد ما في المستوى الشعبي الذي أدرك عجز الخلافة العباسية في تقديم يد العون والمساعدة لهم، لذلك التجأوا إلى الإمارات المحلية التي لم تكن بأحسن حالٍ من الفقهاء أنفسهم، فاعتمدوا على أنفسهم في صياغة مقاومة شعبية تحركت لاتخاذ موقف جهادي.

كانت مشاركة العلماء بارزة في المقاومة ، كما برز دورهم في إثارة الناس للجهاد بل شارك بعضهم بالفعل في أعمال الغزو و الجهاد ، حيث كانت المشاركة القتالية بينهم و بين الافرنج أو بحمل السلاح أو المشاركة في الحصار و قيادة الحملات أو وضع الخطط العسكرية .

عندما بسط الافرنج سيطرتهم على المدن الشامية بقي علماء المسلمين في الشام للتصدي لهذا الغزو من خلال الدعوة للجهاد و تصدر ذلك الفقيه الدمشقي أبو الحسن السلمي الذي كان أول من نبه إلى مخاطر الغزو الافرنجي و دعا لمقاومته من خلال دروسه التي قام بعقدها في المسجد ([1])

وقد تناولت هذا الموضوع العديد من الدراسات الحديثة، نذكر منها على سبيل المثال (رمضان حسين الشاوش) الذي حقق كتاب (الجهاد) للسلمي، و(أحمد عبد الكريم حلواني) في كتابه (ابن عساكر ودوره في الجهاد ضد الصليبيين)، ونخص بالذكر كتاب الدكتور (جمال محمد سالم خليفة) (موقف فقهاء الشام من الغزو الصليبي) الذي تناول فيه قضية الجهاد والمقاومة التي برزت عند رجال الدين من فقهاء وقضاة، حيث تناولها بشكل مفصل ودقيق لم نجده في باقي المراجع الأخرى، وذلك لما امتاز به من سعة في المعلومة، ودقة في اختيار النصوص ومنهجية واضحة، قلما امتازت به الدراسات الأخرى، مما سهل للباحثة سرعة الحصول على المعلومات التي خدمت بحثها وأغنتها عن الكثير من المراجع الحديثة الأخرى، كما وضح للقارئ "السلطة الشعبية" في بلاد الشام المتمثلة في القضاة والفقهاء من غزو الإفرنج لبلادهم، فهم لم يقبلوا بهذا الغزو عكس "السلطة السياسية" المتمثلة في الحكام وأصحاب النفوذ فحاول قضاتها الإمساك بزمام الأمور وفرض سيطرتهم

([1]) يوسف جمعة ، الأسر العلمية المقدسية و دورها ابان عصر الحروب الصليبية ،أسرة بنو قدامة نموذجاً ، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية ، جامعة الموصل، العدد4 ، 2005 ص67 .

على هذا الغزو، فبدأت مسيرتهم تأخذ طابعًا جهاديًا مستندين إلى الكتاب والسنة، وبذلك بدأت تداعيات الجهاد واضحة ومفهومة لدى أهالي المنطقة، وذلك نتيجة للدور القيادي والتوجيهي الذي قام به هؤلاء الفقهاء والقضاة الممثلون للسلطة الشعبية، حيث عملوا جاهدين على مقاومة عدوهم والعمل على طرده من أرضهم.

ويؤكد الدكتور جمال في كتابه هذا أن فقهاء وقضاة الشام لم يدركوا أهداف ذلك الغزو في بداياته الأولى، لأن موقفهم في بداية الأمر غير موحد، فكانوا من فئات متباينة وغير متماسكة، سواء كان ذلك في الموقف السياسي أو الاقتصادي، ولكن موقفهم هذا لم يدم طويلًا فسرعان ما تبدل موقفهم عقب ذلك، وأدركوا الخطر المحدق بهم، فحاولوا توحيد صفوفهم متناسين كل الخلافات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، على عكس الحكام والأمراء فلم يتخلوا يومًا عن خلافاتهم حتى في أصعب الظروف، لذلك أخذ الفقهاء الحل الأنسب لهم هو الخروج بالأهالي من دهاليزهم المظلمة([1]).

ومن خلال الاطلاع على مجموعة من المصادر والمراجع تبين أن تداعيات الجهاد في تلك الفترة مرت بالعديد من المواقف تمثلت في"موقف السلطة الشعبية "وموقف" السلطة السياسية"، وهذا ما سيتم توضيحه في طيات هذا المبحث.

**أولًا: الموقف الشعبي للجهاد الإسلامي ضد الغزو الصليبي**

**1- الموقف التقليدي:**

لم يكن جميع الفقهاء والقضاة على موقف واحد تجاه الحروب الإفرنجية، فقد تباينت وجهات نظرهم حولها، حيث لم تشارك مجموعات كبيرة منهم في التصدي والجهاد والمقاومة لتلك الحروب، بل اكتفت بدورها التقليدي المختصر على النصح والإرشاد للسلطات السياسية، أو "لم تتدخل في ذلك الصراع وإنما احتفظت بدورها التقليدي في الإرشاد والوعظ، فضلًا عن احتفاظ مجموعة أخرى، وهي فقهاء الصوفية بالاعتكاف والبُعد عن الناس، وكان لذلك أثره على تلك الفئة، بحيث لم تدرك حقيقة الغزو الإفرنجي لبلاد الشام وأهدافه"[(2)].

**2 - الموقف الرسمي :** ويمكن تقسيمه إلى قسمين:

**أ - الاستنجاد بالخلافة العباسية في بغداد بعهد الخليفة العباسي المستظهر بالله :**

لم يكتب للموقف التقليدي الاستمرار، وعلى الرغم من أن مبررات بقائه كانت قائمة، ولا سيما عند فقهاء الصوفية، فإن الصدمة التي واجهتهم بسقوط بيت المقدس بأيدي ذلك الغزو عام (492هـ/ 1097م) وقتلهم جماعة من أئمة المسلمين- أيقظت هؤلاء من غفوتهم، وأدركوا حقيقة الغزو بعد أن هدد وجودهم ومكانتهم، لذلك بادروا إلى الاستنجاد بالسلطة المركزية في بغداد، والإمارات المحلية، باعتبارها تملك قدرًا كبيرًا من المواجهة؛ نظرًا لما تملكه من قوة عسكرية، لذلك اتفقوا على إرسال وفد من خيرة علمائهم عام (492هـ/1098م) برئاسة قاضي

---

([1]) ابن الفلاعي ، المصدر السابق ص175.

([2])- جمال محمد سالم خليفة، دور فقهاء الشام وقضاتها من الغزو الصليبي (492- 660هـ/1098 -1262م)، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2000م ، ص 4 -15.

دمشق (زين الإسلام نصر أبو سعد الهروي) (ت 519هـ/1125م) إلى مركز الخلافة الشرعية في بغداد، والذي كان اختياره "إشارة واضحة لضخامة المخاوف والآمال التي كانت تجول بأذهان فقهاء الشام وقضاتها"[1].

وعلى الرغم من مكانة (الهروي) المرموقة، فإن "المرحلة الأولى من رحلته إلى بلاد الشام لم تكن ناجحة على ما يبدو "لذلك فكر القاضي (الهروي) في خطة ذكية لإشادة السكان في بغداد كوسيلة للضغط على الخليفة، حتى يرغمه في التفكير جديًا بطلبهم، ودعوتهم عن طريق استخدام الجوامع في بغداد مركز الرأي العام الإسلامي[2]، وهذه هي المرحلة الثانية من الموقف الاستنجادي لفقهاء الشام وقضاتها بأنهم "وقاموا بالجامع يوم الجمعة، فاستغاثوا وبكوا وذكروا ما داهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال وسبى الحريم والأولاد ونهب الأموال، فلشدة ما أصابهم أفطروا"[3]، وإذا كانت هذه الخطة الذكية قد نجحت في حث الرأي العام الشعبي في ذلك الوقت، فإنها لم تقنع الخليفة العباسي (المستظهر بالله) (486-512هـ/1091-1118م) الذي أدرك خطورة الموقف، فطلب استدعاء القاضي (الهروي) وجماعته لمقابلتهم، وبالتالي استجاب لدعوتهم كما يبدو لأول وهلة، ولكن استجابته لم تؤت أكلها؛ لأنَ الخلافة العباسية كانت عاجزة لا تملك شيئًا غير الوعود بالمساعدة.

ومن المحاولات الاستنجادية الأخرى، محاولة القاضي (الشيرازي) الذي تمكن من مقابلة الخليفة العباسي في بغداد، الذي وعده بالإنجاد، إلا أنه أدرك هو الآخر (عجز السلطة السياسية والشرعية في بغداد، ولجأ للاعتماد على النفس والعودة إلى دمشق، وتعبئة سكانها للدفاع عنها، حيث كان له مجلس يعظ فيه للجهاد، ويلقى تأييدًا من الحكام حتى وفاته عام (536هـ/ 1142م)[4].

ويبدو أن الموقف الرسمي للخلافة العباسية في بغداد لم يكن بأحسن أحواله، فقد كان موقفًا متخاذلًا لا حول له ولا قوة، وهذا ما سنحاول توضيحه في هذا المبحث عند دراسة الموقف الرسمي ضد الغزو الإفرنجي.

**ب ـ الاستنجاد بالإمارات المحلية لبلاد الشام للجهاد ضد الصليبيين:**

لم يكن الاستنجاد بالإمارات المحلية بأحسن حالًا من الاستنجاد بالخلافة العباسية في بغداد، فقد أثبتت الإمارات المحلية عجزها هي الأخرى في تقديم يد العون والمساعدة التي طلبها قضاة بلاد الشام وفقهاؤها، ولعل جهود القاضي الأمير (فخر الملك بن عمار) على إمارته، ولا سيما عندما تعرضت مباشرة للغزو الإفرنجي عام (498هـ/1105م)، حيث لم يدرك القاضي (ابن عمار) حقيقة ذلك الغزو، عندما تعرضت مدينة عرقه التابعة لإمارته لغزوهم إذ هادنهم وأمدهم بالمال والمرشدين ليبعدهم عنه، لكن ما إن تحقق هدفهم في أخذ بيت المقدس

---

([1]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 405 - 406.
([2]) جمال محمد سالم، المرجع السابق، ص 68.
([3]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 406.مجير الدين ابن الحنبلي، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، مكتبة المحتسب الأردن، ج1، 1973م، ص 308.
([4]) الحنبلي، المصدر السابق، ص297- 308.

حتى تفرغوا له وحاصروا طرابلس[1]، وهنا توجه القاضي إلى الإمارات المحلية في مدن الشام والجزيرة الفراتية لطلب النجدة، وخصوصًا من أمير دمشق (ظهير الدين) الذي تردد كثيرًا في تقديم المساعدة للقاضي الأمير، واعتذر عن ذلك بادعائه المرض، لكن القاضي الأمير لم يتردد في طلب نجدة أمير حلب والذي بادر لنجدته، لكنه في الطريق إليه اصطدم بالقوى الإفرنجية عند حصن ارتاح، وجعلته يتراجع إلى مدينته، ولم يتمكن من مساعدة (ابن عمار)الذي أدرك بعدها تمامًا عجز الإمارات المحلية لنجدته، وفشله في إقناعها على تقديم المساعدة له، حيث كانت تهتم بمصالحها الخاصة، فضلًا عن محاولتها للسيطرة على بعضها بعضًا في وقت عصيب كهذا.

ولا يختلف استنجاد فقهاء حلب وقضاتها بخلافة بغداد والإمارات المحلية عن موقف سابقتها "وعلى أية حال لم يكن فقهاء حلب أوفر حظًا مع خلافة بغداد عن بقية وفود المدن الشامية الأخرى، رغم ما أشار إليه (ابن كثير) أن فقهاء بغداد على رأسهم الفقيه (ابن الدغواتي) قد استجابوا لفقهاء حلب، وقرروا الخروج معهم لجهاد الإفرنج في بلاد الشام، ولما علموا بما آلت إليه تلك المدن من وقوعها تحت الغزو الإفرنجي رجعوا إلى بغداد، ولم يفعلوا شيئًا"[2].

أمام الموقفين (التقليدي ـ والاستنجادي) لم يبق أمام فقهاء الشام وقضاتها إلا الجهاد والمقاومة، لا سيما بعد تزايد الخطر الإفرنجي على المدن الشامية، ونستطيع القول إن بداية المقاومة الشعبية بدأت من مدينة القدس، فبعد "اجتياح الإفرنج للمدينة جاسوا خلال الديار، وانطلقوا في شوارعها وبيوتها ومساجدها، يقتلون كل من صادفهم من الرجال والنساء والأطفال، ولبث الإفرنج أسبوعًا يقتلون المسلمين"[3].

ولم يكتفوا بذلك، بل اقتحموا المسجد الأقصى، وارتكبوا فيه مذبحة وحشية ضد من لجأ إليه، وكان منهم "جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم ممن فارقوا الأوطان وجاوروا بذلك الموضع الشريف"[4]، ويؤكد المؤرخون الغرب هذا: "خاض الصليبيون بخيلهم في الدم الذي وصل إلى ركبهم وسروج خيلهم"[5]، وقد وصل عدد القتلى عشرة آلاف في ساحة المسجد الأقصى، ومثلهم في الطرقات والمنازل[6].

وقد اتخذ الموقف الجهادي لقضاة الشام وفقهائها أشكالًا عدة منها:

**1 ـ تحريض الحكام والأمراء والناس على المقاومة والانخراط فيها:**

لقد أثار استيلاء الإفرنج على القدس المسلمين في كل أنحاء العالم الإسلامي، لا سيما مصر وبلاد الشام والعراق ، وخلق هذا الاحتلال توترًا في العالم الإسلامي"وانزعج المسلمون في سائر ممالك الإسلام بسبب أخذ

---

([1]) ـ ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 139.
([2]) جمال محمد سالم ، المرجع السابق، ص74.
([3]) أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، ج4، ص 126.
([4]) ابن الأثير ، المصدر السابق، ص 405.الحنبلي، المصدر السابق، ص 307.
([5]) ريموند جيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة، حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، 1990م، ص 247.مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، المصدر السابق، ص 119.
([6]) فوشيه الشارتري، المصدر السابق، ص 46.

بيت المقدس غاية الانزعاج"[1] مما أدى إلى قيام العلماء والشعراء والكتاب والفقهاء بحملة إعلامية لإثارة الناس ودفعهم لتحرير الأراضي المقدسة، وبدأت دعوة الجهاد تسري بين الناس في العالم الإسلامي بسرعة كبيرة، وفي ظل الحركة الفكرية التي قادها هؤلاء المفكرون تبلورت اتجاهات المقاومة الشعبية ضد الإفرنج (الصليبيين).

وقد استمرت حملات الاستنفار والاستغاثة الشعبية، على الرغم من مرور أكثر من سنة على بيت المقدس وغيرها من المدن الشامية، حيث خرجت جماهير شعبية حاشدة بزعامة القاضي (زين الدين أبي سعد الهروي) إلى بغداد، ليشكلوا رأي عام ضاغطًا على الحكام المتخاذلين "فأوردوا كلامًا أبكي العيون وأوجع القلوب، وقاموا في الجامع يوم الجمعة فاستغاثوا، وذكروا ما داهم المسلمين بذلك البلد الشريف المعظم من قتل الرجال وسبي الحريم والأولاد"[2]، وبناءً على ذلك طلب الخليفة في بغداد من الفقهاء أن يحرضوا الملوك على الجهاد فخرج "الإمام أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي وغير واحد من أعيان الفقهاء وساروا في الناس"[3]، ليحرضوهم على المقاومة.

لذلك تجمهر الناس في الحملات العامة في دمشق وحلب، ودخل الكثير منهم بقيادة علماء الدين المساجد، وأخذوا يدعون للجهاد والمقاومة ضد المحتلين، فقد كان المسلمون إذا لمسوا تهاونًا من الحكام المسلمين بصدد الجهاد ضد المحتلين الإفرنج اجتمعوا ومعهم رجال الدين، وتوجهوا نحو المساجد لإعلان احتجاجهم كي تصل تصرفاتهم إلى الحكام، لدرجة تصل في بعض الأحيان إلى "وأنزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه، وصاحوا وبكوا لما لحق الإسلام من الإفرنج، وقتل وسبي النساء والأطفال ومنعوا الناس من الصلاة"[4] .

إن الأمر تطور إلى إعلان النفير العام كما يدعو ذلك الخطيب (أبو الحسن السلمي الدمشقي) (452-533هـ/1060-1138م) في خطبه، يقول "فشمروا عن سوق الاجتهاد إلى مفترض هذا الجهاد ومتعين الذنب عن دينكم وإخوانكم بالمؤازرة والإنجاد"، وفي هذا حث على المقاومة الشعبية ضد الإفرنج، مع علمه أن هذا العدد لا يمكن أن يستمر دون أن يأتيه المدد من أوروبا، لأنه يعاني من نقص العنصر البشري، وهذا في مصلحة المقاومة الشعبية "فإن النظير إليهم وقصدهم في البلاد التي قد تملكوها علينا إنما هو حرب يقصد بها الدفاع عن النفوس، والأولاد والأهل والأموال والحراسة لما بقي في أيدينا من البلاد"[5].

ومن القضاة الذين اشتهروا بتحريض الناس على القتال القاضي (أبو الفضل ابن خشاب) (ت 570هـ/ 1175م) قاضي حلب، فعندما اشتد الحصار الإفرنجي على حلب (513هـ/1119م) ، ألقى هذا القاضي خطبة

---

([1]) الحنبلي، المصدر السابق، ص 308.

([2])- ابن الأثير، المصدر السابق، ص406.

([3]) - الحنبلي، المصدر السابق، ص308.

([4])- ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 173. الحافظ ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف بيروت، ج 12، ط2، 1990م، ص 156.

([5])- علي بن طاهر السلمي، كتاب الجهاد، تحقيق رمضان حسين الشاوش، رسالة ماجستير غير منشورة، طرابلس جامعة الفاتح، 1992م، ص ص9-12-21.

بليغة استنهض بها همهم الناس وألهب مشاعرهم، "فأبكى الناس ، وعظم في أعينهم حتى أقدموا على قتال الغزاة"[1].

**2 ـ المشاركة الفعلية للفقهاء والقضاة في جهاد الصليبيين:**

لم يقتصر دور الفقهاء والعلماء على الخطب وإثارة الحماس فقط، بل تعدى ذلك إلى المشاركة الفعلية في القتال والاستشهاد بالمعركة، وممن استشهد في بداية الغزو الإفرنجي مدافعًا عن مدينة أنطاكية قبل سقوطها عام (491هـ/ 1098) الفقيه (أبو عبدالله الحسين الشهرستاني) "الذي خرج من الجموع إلى أنطاكية، واستشهد بها"[2].

ومن الفقهاء أيضًا الذين برزوا في بداية الغزو الإفرنجي، وحمل السلاح ضدهم الشيخ (أبو القاسم الأنصاري)، الذي كان قاضيًا للقدس عندما اجتاحها الإفرنج (الصليبيون) تزعم "حركة المقاومة الشعبية ضد الإفرنج، وأدى دورًا بارزًا في القتال وتحريض الناس على الجهاد في سبيل الله، وقد قاموا بالقبض عليه، وساقوه أسيرًا حتى أقدموا على إعدامه، حيث رمى بالحجارة على باب أنطاكية"[3] وكذلك الشيخ (أبو القاسم الرازي) الذي "استشهد مدافعًا عن ثرى القدس الشريف"[4].

إضافة إلى ذلك نذكر الشيخ (حمدات الكردي) الذي شارك في القتال مشاركة فعلية، على الرغم من كل الإغراءات التي قدمت له للبقاء في المسجد، وحث الناس على الجهاد، فإنه أبى ذلك وأصر على المشاركة في القتال "والله يا أمير ما تطاوعني نفسي على القعود في البيت، وقتلى على فرسي أشهى إلىّ من موتي على فراشي"[5] حتى أذن له الأمير بالخروج إلى القتال، فتعرض للموت والقتل.

وكذلك الفقيه (شهاب الدين البلاغي) الذي نزع عمامته وارتدى زي الجند، وقاتل حتى وقع أسيرًا لدى الإفرنج.

وتوجد المشاركة الفعلية في القتال التى لم تقتصر على فقهاء المشرق فقط، بل تعدتهم إلى فقهاء المغرب والأندلس، ومنهم حجة الإسلام (أبو الحجاج يوسف بن دوناس الفندلاوي المالكي)، والشيخ (عبد الرحمن الحلواني) اللذان شاركا جيوش دمشق لمواجهته الغزو الإفرنجي "فقاتلا حتى استشهدا"[6] لقد كان جهاد الفقهاء مساويًا وموازيًا لقتال الجنود.

ويتبين مما سبق أن الفقهاء شاركوا في المقاومة الشعبية، وقاتلوا حتى نالوا شرف الشهادة في سبيل الدفاع عن الأراضي الإسلامية، وهذا راجع إلى استشعارهم وفهمهم لركن الجهاد الذي رسخه الإسلام كمفهوم أساسي

---

([1])- ابن العديم، زبدة تاريخ حلب، تحقيق، سامي الدهان، ج2، (د. ت)، ص 188.
(2)- تاج الدين السبكي، طبقات الشافعي الكبرى، تحقيق، محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، عيسى البابي الحلبي وشركاه، (د.ت)، ج7، ص76.
(3) ـ الحنبلي، المصدر السابق، ص 299.
(4) ـ السبكي، المصدر السابق، ج1، ص 299.
(5) أسامة أبو المظفر الكناني ابن منقد، الاعتبار، تحقيق، فيليب حتي، الولايات المتحدة ، جامعة برنستون، 1930م، ص 63-64.
(6) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص174.

وواجب على المسلمين، حيث وردت كلمة الجهاد في العديد من الآيات القرآنية: {انفروا خفافًا وثقالًا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون}.. وفي آية أخرى: {وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج}[1]، لذلك فلا غرو أن يبرز دورهم في بذل النفس، وشحذ الهمم، وحث الناس على الجهاد.

**3 ـ الموقف الرسمي في مواجهة الغزو الصليبي:**

ظهر مدى ضعف الموقف الرسمي سواء أكان ذلك في الخلافة الإسلامية في بغداد أم عند الأمراء المحليين، حيث استنجد القاضي (الهروي) كما سبق ذكره بالخليفة العباسي (المستظهر بالله 486-512هـ/1091-1118م) حيث عاد (الهروي) وجماعته من بغداد دون أن يحقق نجاحًا، "وعاد القاضي ورفقته بغيره نجدة ولا قوة إلا بالله"[2]، وكانت لهذه الرحلة آثارها السلبية على بقية الفقهاء والقضاة حيث "لم تذكر المصادر أن فقهاء دمشق قد اتبعوا سياسة ضغط مستمرة على مركز الخلافة الشرعية ببغداد بعد فشل مهمة الهروي"، إلا أنها مع ذلك لم تخلُ من فائدة، حيث أدرك هؤلاء الفقهاء "عدم جدوى الذهاب إلى بغداد لطلب النجدة، مما أقنع الفقهاء بضرورة الاعتماد على قدرات المدينة الذاتية وتحصينها ضد ذلك الغزو"[3].

وعندما حاول القاضي (عبد الوهاب بن عبد الواحد الشيرازي الدمشقي) الاستنجاد بالخليفة العباسي (المسترشد بالله 512-529هـ/1118 -1135م)، إلا أن مهمته لم تؤت بالشيء الجديد كما هو الحال بالنسبة لمهمة زميله (الهروي)، ويبدو أن الخلافة العباسية كانت عاجزة لا تملك شيئًا غير الوعود بالمساعدة، فلقد أدرك هؤلاء الفقهاء عجز السلطة السياسية والشرعية في بغداد عسكريًا ومعنويًا وماديًا.

لم يكتف الأمر عندما حاول هؤلاء القضاة والفقهاء الاستنجاد بالإمارات المحلية، الذين اتبعوا سياسة المهادنة مع الغزو الإفرنجي، فعندما تعرضت إمارة القاضي (ابن عمار) للغزو الإفرنجي "هادنهم وأمدهم بالمال والمرشدين ليبعدهم عنه، لكن ما إن تحقق هدفهم في أخذ بيت المقدس، حتى تفرغوا له وحاصروا طرابلس"[4].

وادّعى بعض الأمراء المحليين المرض هربًا من المساعدة والإنجاد منهم "الأمير ظهير الدين الذي تردد في تقديم المساعدة للقاضي الأمير، واعتذر عن ذلك بادعائه المرض"[5].

ويمكن القول إن بعض المساعدات التي قام بها بعض الأمراء المحليين لم تكن سوى (مجرد مناورة)، وهنا أدرك القاضي (ابن عمار)عجز القوى الإسلامية المحلية كلها عن نجدته، وقرر التوجه بنفسه إلى بغداد مقر الخلافة العباسية[6].

---

(1) سورة التوبة، الآية41.. وسورة الحج، الآية 76.
(2) ابن تغرى بردي، ج5، المصدر السابق، ص152.
(3) جمال محمد سالم، المرجع السابق، ص ص70- 72.
(4) ابن ثغرة بردي ، المصدر السايق ، ص152.
(5) ابن القلانسي،المصدر السابق ، ص174.
(6) جمال محمد سالم، المرجع السابق، ص73- 76.

ونحن نعلم موقف الخلافة في بغداد مسبقًا من الغزو الإفرنجي ـ الصليبي، حيث لم تكن مهيئة عسكريًا لصد أي عدوان، وأن الموقف الرسمي سواء للخلافة العباسية في بغداد أم للأمراء المحليين كان موقفًا متخاذلًا، لا حول ولا قوة له.

وبذلك كان لأصداء الموقف الشعبي والرسمي على الرغم من حسناته وعيوبه دورٌ كبيرٌ في خروج المدن العربية والإمارات الإسلامية لمواجهة الإفرنج، وردعهم والوقوف في وجه أطماعهم ، فتزعمت مدينة الموصل و من ثم دمشق حركة المقاومة والجهاد ضد الغزو الإفرنجي ـ الصليبي.

# الفصل الثالث

## قيادة الموصل ودمشق للجهاد الإسلامي ضد الغزو الإفرنجي ـ الصليبي

### المبحث الأول: قيادة الموصل للجهاد الإسلامي في بلاد الشام

### المبحث الثاني: دور دمشق ودورها الجهادي والسلبي في بلاد الشام

### المبحث الثالث: الدور الجهادي للإمارات المحلية الأخرى

**المبحث الأول : قيادة الموصل للجهاد الإسلامي في بلاد الشام**

تعد محاولات الموصل الجهادية ضد الإفرنج ـ الصليبين من أهم المحاولات للدفاع عن الأراضي الإسلامية ، لذلك سيتم توضيح دور هذه المدينة في محاولتين من قبل أمرائها:

**أولًا: محاولة كربوغا أمير الموصل لإنقاذ أهل أنطاكية من الحصار الصليبي**

لقد وصل الإفرنج ـ الصليبيون إلى إمارة الرها ، دون معاناة تذكر؛ بسبب كثرة عددهم وقوتهم ويصف ابن القلانسي هذا الحال وصفًا دقيقًا حين يقول: "بوصولهم أصاب الهلع أهالي الشام، لأن كثرتهم جعلت الناس يشعرون بأنهم أمام قوة لا تهزم"[1].

وقد ساعد الإفرنج عدم إدراك أهالي الشام، لا سيما الفقهاء والقضاة لحقيقة الخطر المحدق بهم إلا بعد أن استولى الإفرنج على إمارة الرها، وكذلك الضعف الداخلي الواضح، المتمثل في التجزئة العارمة بين ولاتها أمام هذا الخطر، فأسرع قضاتها وفقهاؤها بالاستغاثة بالخليفة العباسي والسلطان السلجوقي[2].

وعلى هذا الأساس، أسس الإفرنج إمارتهم فيها، بعد وصولهم أنطاكية وأسرع أميرها (ياغي سيان) الذي كان خارج الإمارة بالاستنجاد بالدول المجاورة، "ولما دخل ياغي سيان أنطاكية أخرج ولديه شمس الدولة ومحمد، فسار أحدهما إلى دقاق وطغتكين يستنجدهما، وبث كتبه إلى جناح الدولة وثاب بن محمد وبني كلاب، وسار محمد ابنه إلى التركمان وأمراء الشرق وملوكه، وسارت كتبه إلى جميع أمراء المسلمين"[3]، لنجدة مدينته من الحصار الإفرنجي الصليبي.

ويذكر (وليم الصوري) الحالة التي وصلها (ياغي سيان) في طلبه النجدة من الدول المجاورة: "ولما علم ياغي سيان أن جيشًا كبيرًا بقيادة قادة صليبيين في طريقه إليه – أرسل كثيرًا من الرسائل – شفاهة وكتابة – إلى جميع أمراء الشرق كله، يطلب منهم مساعدته، لا سيما خليفة بغداد وسلطان فارس العظيم"[4].

ولا يوجد اختلاف كبير بما ذكره (وليم الصوري) مع بقية المؤرخين من أحداث، حيث ركز بكتابته للأحداث على مساعدة الخلافة العباسية وطلب المساعدة لإنقاذ المدينة الإسلامية من الغزو الإفرنجي، وما إن وصل الرسل حتى أسرع صاحب الموصل لإنقاذ (ياغي سيان)، "ولما سمع قوام الدولة (كربوغا) صاحب الموصل بحال الفرنجة وملكهم أنطاكية جمع العساكر وسار إلى الشام، وأقام بمرج دابق، واجتمعت معه عساكر الشام تركها وعربها سرى من كان بحلب"[5].

---

([1]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 134.

([2]) جمال محمد سالم خليفة، المرجع السابق، ص 68.

([3]) كمال الدين عمر بن العديم، زبدة حلب من تاريخ حلب، تحقيق سهيل زكار، دار الكتاب العربي، دمشق، ج 1، 1996م، ص 345.ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 134.

([4]) وليم الصوري، المصدر السابق، ص 278.

([5]) محمد راغب بن محمود الحلبي، أعلام النبلاء تاريخ حلب الشهباء، تحقيق محمد كمال، دار القلم العربي، حلب، ج1، 1988، ص343.

زيد الدين عمر بن الوردي، تاريخ ابن الوردي، منشورات المطبعة الحيدرية النجف، ج2، 1969م ص 15.

وبأمر من السلطان السلجوقي انطلق (كربوغا) إلى أنطاكية للدفاع عنها ولاستنجاد أهلها به، فوصل إليه دقاق وطغتكين[1] وجناح الدولة[2] ووصل سكمان ابن ارتق[3]، وانطلقوا جميعهم لإنقاذ أنطاكية[4].

وقبيل وصول المساعدات استطاع ياغي سيان الصمود أمام قوات الإفرنج وساعده على ذلك موقع أنطاكية الحصين[5].

لم تستطع المدينة الصمود طويلًا أمام الحصار الإفرنجي (الصليبي)، بسبب تأخر وصول المساعدات الموصلية، لذلك سقطت قبيل وصول كربوغا بثلاثة أيام، وهرب صاحبها (ياغي سيان) ومعه عدد من الفرسان، "ونجا صاحبها ياغي سيان ومعه ثلاثون فارسًا غير أنه ندم على تركه المدينة، ومن شدة ندمه أغشى عليه، فوجده حطاب أرمني فحمله إلى الإفرنج بعد أن قطع رأسه"[6]

ويبين المؤرخ (وليم الصوري) حالة الهلع التي انتابت أهالي مدينة أنطاكية، والأوضاع التي أدت إلى سقوطها بقوله: "حيث رأى (ياغي سيان) أن المدينة قد استسلمت لخصمه الذي تملك جميع أبراجها وحصونها، وحين شاهد الناجين من الهلاك يرتدون إلى القلعة على عجل، بدأ الخوف يتسرب إلى نفسه من أن يتعقبه المسيحيون إلى حيث هو واقف، فاندفع كأنما قد أصابه مس من الجنون نحو بوابة خلفية وهرب وحده من غير رفيق، وبينما كان يتخبط هنا وهناك، إذ بطائفة من الأرمن يصادفونه فعرفوه في لحظتهم، فلما تبينوه وحده عرفوا أنه هارب، وأدركوا، فوثبوا عليه وطرحوه أرضًا، وأخذوا سيفه وقطعوا به رأسه، وحملوها إلى المدينة، وقدموها هدية إلى القادة "[7].

واختلفت المصادر العربية حول تحديد عدد الفرسان الذين كانوا مع (ياغي سيان)، فابن القلانسي يصف مقتل (ياغي سيان) وطريقة موته: "فانهزم ياغي سيان، وخرج في حلف عظيم فلم يسلم منهم شخص، سقط عن فرسه على الأرض فحمله بعض أصحابه وأركبه فلم يثبت على ظهر الفرس، وعاود سقط ومات "[8].

وتتفق المصادر العربية مع (وليم الصوري) في أن الأرمن هم من قتلوا ياغي سيان، وقطعوا رأسه وأخذوه إلى الإفرنج (الصليبيين).

---

([1]) طغكتين، أبو منصور الطغتكين من أمراء تاج الدولة، كان شهمًا شجاعًا له مواقع مع الصليبيين، ينظر الصفدي، تحفه ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الحلفاء والملوك والنواب، تحقيق إحسان بنت سعيد خلوطي، زهير حميدان الصمصام، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ج2، 1992م، ص 61.

([2]) جناح الدولة، صاحب حمص كان مجاهدًا شجاعًا يتولى الحروب بنفسه، توفى عام 495هـ/1107م، ينظر الدواداري، كنز الدرر جامع الغرر، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة، ج 18، 1961م، ص137

([3]) سكمان بن أرتق بن اكسب، معين الدولة التركماني كان هو وأخوه أميرين على القدس الشريف بعد أبيهما، وتوجها إلى الجزيرة وأخذا ديار بكر، ينظر صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق عدد من العلماء جمعية المستشرقين، ألمانيا ج 13، (د. ت)، ص 287.

([4]) ابن العديم، المصدر السابق، ص 347.

([5]) رشيد الجميلي، إمارة الموصل في العصر السلجوقي ، جامعة بغداد، 1980م.ص(489-521) .

([6]) ابن الأثير، المصدر السابق ج8، ص 186. محمد عبد الله اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعبر من حوادث الزمان، منشورات مؤسسة الإعلمي للمطبوعات بيروت، ج3، ط2، 1970م. الذهبي، المصدر السابق، ص 330.

([7]) وليم الصوري، المصدر السابق، ص 359- 360. فوشيه الشارتري، ص85.

([8]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 135.

ويتضح من النصوص السابقة السلوك النفعي للأرمن، واستغلالهم المعارك في حالة نهاية (ياغي سيان) بعد هروبه من أنطاكية ووقوعه من فرسه، الأمر الذي جعل أحد الأرمن يستفيد من هذا الموقف بأن قطع رأسه وسلمه للإفرنج، وهذه ليست المرة الأولى التي يتعامل معها الأرمن مع حاكم أنطاكية.

وكان لتأخر وصول (كربوغا) سبب آخر لسقوط أنطاكية، وهو خوفه من أن يهاجمه الإفرنج في الرها من الخلف ويقطعوا عليه خط الرجعة[1]. ويبدو أن (لكربوغا) أسبابه في التوقف عند ارها قبل الخوض في إنقاذ أنطاكية، مما جعله يضيع وقتًا قبل وصوله لمساعدة أهلها.

ولقد حاول (كربوغا) جاهدًا أن يقف أمام الإفرنج في التصدي لهم، محاصرًا المدينة وهُم بداخلها، واستمرت مدة حصاره لها خمسة عشر يومًا، وهي من أشدّ الفترات التّي تعرض لها الإفرنج في الشام[2]، ويصف (ابن القلانسي) هذا الحصار بقوله: "فحصروهم حتى عُدم القوت عندهم وأكلوا الميتة"[3]، ويؤيد ذلك المؤرخ (ريموندا جيل) ويصف الحالة التي كان عليها الإفرنج بقوله "في تلك الأثناء أصبح الطعام نادرًا جدًا"[4].

وأضاف (وليم الصوري) في وصفه للحصار بقوله:ـ "كانت المجاعة إذ ذاك تزداد تفشيًا وشدة في الجيش يومًا بعد يوم، مما نجم عنها انتشار الطاعون وكثير من الأمراض الأخرى"[5].

ويتفق (الرهاوي) مع المصادر آنفة الذكر في الحالة التي وصلها الإفرنج من قحط ومجاعة بقوله: "نقص المؤن والعلف للخيول"[6].

وتتفق المصادر السابقة على أن (كربوغا) قد استحكم حصاره للمدينة، حتى أنهى كل ما لديهم من قوت، فلم يستطع أحد منهم الخروج لجلب الإمدادات، وكذلك لم يسمح بدخول أية مساعدات خارجية للوصول لهم، فكانت المجاعة سائدة بينهم، وأدت إلى انتشار الأمراض في صفوف جيشهم حتى أيقن الإفرنج أن المسلمين قوة استطاعت أن تقف أمام زحفهم، غير أن كربوغا لم يقدر ما فعله من جهد فلم يحسن معاملة رفاقه من أمراء المسلمين فأغضبهم وترفع عليهم [7].

فلم يستغل الأوضاع المتردية التي كانوا عليها داخل المدينة من جوع وقحط، بل نجد الإفرنج أنفسهم استطاعوا التغلب على هذه الظروف الحرجة لصالحهم.

---

([1]) رشيد الجميلي، المرجع السابق، ص 214. سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 165.

([2]) ارنست باركر، المرجع السابق، ص 34. حسين محمد عطية، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون (1171-1268م/567-666هـ)، دار المعرفة الجامعية، 1989م، ص118.

([3]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 136. شهاب الدين أحمد النويري، نهاية الأدب في الفنون والأدب، تحقيق، محمد محمد أمين، محمد حلمي محمد، مركز تحقيق التراث ج 28، 1992م، ص 254.

([4]) ريموندا جيل، المصدر السابق، ص 141.

([5]) وليم الصوري، المصدر السابق، ص 300.

([6]) الرهاوي، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر دمشق، ج5، 1995م، ص24.

([7]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 178.

فبعد أن ضيق حصاره على المدينة دفع بأعداد كبيرة منهم للفرار وطلب الأمان، "و أرسلوا إلى كربوغا يطلبون منه الأمان ليخرجوا من البلد"[1]، ما يعمق مدى شدة الحصار الذي فرضه (كربوغا) عليهم لدرجة جعلتهم يفقدون أمل خروجهم من المدينة أحياء.

لم يستجب (كربوغا) لطلبهم، ولم يسمح لهم بالخروج، وظل متمسكًا بموقفه على عدم استسلامهم له دون قيد أو شرط[2]، "وقال لهم لا تخرجوا إلا بالسيف"[3]، بينما ينفرد وليم الصوري في رفض (كربوغا) لطلب الإفرنج الصليبيين، فيوضح الرسالة التي أرسلها لهم "فاذهب الآن إلى هؤلاء القادة الأغبياء الذين أوفدوك – وقد غم عليهم الآن الوضع الذي هم فيه – وقل لهم إنني سوف أستبقي عندي منهم كل من هم في زهرة الشباب، ليكونوا في خدمة مولاي السلطان، أما من سواهم فسوف أجعلهم نهب السيوف كأوراق الشجر المتساقطة، حتى لا يبقى منهم من يذكر بهم، و لولا أني آثرت أن أتركهم يلاقون الموت بالجوع القاسي بدلًا من قتلهم بالسيف، لدككت الأسوار عليهم منذ زمن بعيد، ولاستوليتُ على المدينة عنوة، فيجنون ثمرة مسلكهم تحت ضربات السيف المنتقم"[4].

ظل الإفرنج متمسكين برأيهم، والمتمثل في الخروج من المدينة متفرقين، ولما رأى الأمراء المسلمون ذلك طلبوا من (كربوغا) الوقوف أمامهم على أبواب المدينة، وقتل كل من يخرج، لأن أَسرهم وهم متفرقون أسهل، لكنه لم يأخذ برأي المسلمين وأصرّ على موقفه "فقال المسلمون لكربوغا ينبغي أن تقف على الباب فتقتل كل من يخرج فإن أمرهم الآن وهم متفرقون سهل، فقال لا تفعلوا حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم"[5].

ويبدو أن (كربوغا) ظن أن خروجهم متكاملين أفضل وسيلة للتخلص منهم، وضمان استيلائه على المدينة، ويتبين من خلال المشاورات التي دارت بين الأمراء المسلمين و(كربوغا) أنهم لم يكونوا على توافق وانسجام إن صح التعبير، بل كانوا على اختلاف في الآراء.

وما إن تكامل خروجهم، وخلت المدينة تمامًا منهم، وقع المسلمون في فخ، حيث سد الإفرنج (الصليبي) جميع المنافذ عليهم، فحلّت الهزيمة بأمراء المسلمين.

يختلف (ابن الأثير) بذكره لأحداث سقوط أنطاكية عن (ابن القلانسي) فالأول يصف وصفًا دقيقًا سقوط المدينة وهزيمة كربوغا، بينما اكتفى الأخير بذكر هزيمة المسلمين في أسطر بقوله:

"فلما تكامل خروج الإفرنج ولم يبق بأنطاكية أحد منهم، ضربوا مصافًا عظيمًا فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به (كربوغا) أولًا من الاستهانة لهم والإعراض عنهم، وثانيًا من منعهم عن قتل الإفرنج، وتمت الهزيمة عليهم ولم يضرب أحد منهم بسيف ولا طعن برمح ولا رمي بسهم، وآخر من انهزم سقمان بن أرتق وجناح

---

([1]) شمس الدين محمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق، شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1982م، ص 343.
([2]) ابن الفضل محمد بن الشحنة، نزهة النواظر، تحقيق، كيكو أوتا، (د. ت) ص 184.
([3]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 187.
([4]) الصوري، المصدر السابق، ص 401.
([5]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 187.

الدولة، لأنهما كانا في الكمين، وانهزم كربوغا معهم فلما رأى الإفرنج ذلك ظنوه مكيدة"[1] بينما نجد (ابن القلانسي) يقول: " ثم زحفوا وهم في غاية من الضعف إلى عساكر الإسلام وهم في الغاية من القوة والكثرة، فكسروا المسلمين وفرقوا جموعهم"[2].

وحلت الهزيمة بالمسلمين بسبب تمسك (كربوغا) برأيه، إلا أن هذا الرأي عاد بنتائج عكسية على المسلمين، واستطاع الإفرنج التغلب على أسوأ ظروفهم، مُستغلين حالة التدهور التي كان عليها أمراء المسلمين، ويوضح نص (السلمي) أن المسلمين لم تُصب سهامهم ولا رماحهم أحدًا منهم، لدرجة أنهم لم يصدقوا ما حدث، فكانوا يظنون أنها مكيدة بسبب تحكم روح الأنانية فيهم، وفي شمال بلاد الشام كانت الأسر العربية الحاكمة ترقب سقوط المدينة في حالة من البهجة، ولم يحرك أحد منهما ساكنًا لإنقاد المدينة، لم تكن هذه المحاولة التي قام بها أمراء المسلمين لإنقاذ أنطاكية محاولة جدية، بل كانت محاولة تحمل في طياتها بذور الشقاق والفشل قبل الدخول لمواجـهة الصليبيين، فلا جدال أن تضم مـجموعة متنافرة من الأمراء والـقواد[3].

وتجمع جل المصادر[4] على أن كربوغا وحده المسؤول عن ما حدث من خلاف، وتهاون في الجهاد بين الأمراء، "وأساء السيرة فيمن اجتمع معه من الملوك والأمراء المذكورين، وتكبر عليهم فخبثت نياتهم على ( كربوغا)"[5].

(كربوغا) ليس المسؤول وحده عما حدث من انقسام، واختلاف بين الأمراء والقواد، وإن كان قد استخدم الشدة في معاملة قواته وإصراره على موقفه، ولعل ذلك يرجع إلى أن عسكره يضم عناصر مختلفة من العرب والأكراد والتركمان، فكان من الضروري أن يفرض نفسه عليهم، وزد على هذا فإن جل القادة المسلمين الذين خرجوا لإنقاذ أنطاكية لم تكن لديهم روح الجهاد والوازع الديني، بل كان خروجهم لأوامر أصدرتها السلطة المركزية، فما كان لهؤلاء سوى القبول والإذعان دونما رغبة منهم.

وفي المقابل، كانت هناك عوامل أخرى ساعدت في سقوط المدينة، والمتمعن في تاريخ سقوط أنطاكية سرعان ما يُدرك من المسؤول عن سقوطها، فبدلًا أن نحمل (كربوغا) كامل المسؤولية عن سقوط المدينة، لا بد لنا أن ندرك أن خيانة (فيروز الأرمني) هي العامل الأول لسقوط المدينة، فلولا خيانته لاستطاع (ياغي سيان) الصمود إلى أن تصل مساندة كربوغا ورفاقه.

ويذكر (وليم الصوري) العلاقة الوطيدة التي كان عليها فيروز و(ياغي سيان) إلا أنه لم يكن الشخص المناسب لهذه الثقة، فبدل أن يساعد أميرها ليوقف الزحف الإفرنجي، نجده يقيم علاقة سرية مع بوهيموند، "وأنه كانت تربطه أواصر صداقة متينة بوالي أنطاكية (ياغي سيان) المسلم الذي أغدق عليه نعمًا كثيرة شرفه بها، فكان

---

([1]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 187.
([2]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 136.
([3]) السلمي، المصدر السابق، ص 46.
([4]) ابن الوردي، المصدر السابق، ص 15. الحلبي، المصدر السابق، ص 343. أبو الفداء، المصدر السابق، ص 210-211. سهيل زكار، المرجع السابق، ص 238.قاسم عبده قاسم، المرجع السابق، ص 168.
([5]) ابن الوردي، المصدر السابق، ص 15.

(فيروز) كاتم السر في القصر، إلى جانب تقلده غير ذلك من الوظائف السامية، وسمع (فيروز) أن بوهيموند أمير كبير ذائع الصيت، وله ضلع بارز في كل ما هو جار في الخارج، ومن ثم ما كاد الحصار يبدأ حتى نجح (فيروز) في كسب ود بوهيموند بواسطة الخدمات المترادفة بينهما، كما ظل (فيروز) طوال استمرار الحصار حريصًا على هذه الصداقة، فلا يقضى يوم حتى يوافي بوهيموند بتفصيل ما يجري بالمدينة، ويبعث إليه بخطط (ياغي سيان)، فقد حرص فيروز على أن يظل خبر اتصاله ببوهيموند سرا مكتوما بينهما"[1].

وكان لقصة الحربة المزعومة إضافة إلى عوامل أخرى دورًا فعالًا في صمودهم داخل المدينة، وتحملهم عبء الجوع الذي كان سائدًا بينهم[2].

ويمكن إرجاع العوامل التي أدت إلى سقوط مدينة أنطاكية في يد الصليبيين إلى عاملين رئيسيين ، وهما العامل الذاتي والعامل الموضوعي:

1- العامل الذاتي ، ونعني به مجمل العوامل النفسية والجسدية والذهنية المتمثلة في شخصية (كربوغا)، وكذلك في إدارته للأحداث وسوء تقديره للأمور، فهو على سبيل المثال لم يستمر في محاولته للدفاع لاعن مدينة أنطاكية فقط بل عن مجمل الأراضي الشامية الأخرى، فنجده يستسلم عقب هزيمته في تلك المدينة دون مقاومة تذكر، وأثاره الابتعاد عن ساحة الجهاد، فبدلًا من أن يعد العدة لاستكمال ما بدأه في الدفاع عن مدينة أنطاكية وإعداده للجيش نجده لا يحفل كثيرًا بذلك، ويبدو أنه كان من الشخصيات التي تهاب الحروب، ويتضح ذلك من عدم اتفاقه مع غيره من الزعماء والقادة في قتال الإفرنج، إضافة إلى ذلك وجود عامل نفسي وشخصي تمثل في تلك النرجسية العالية، حيث رفض جميع الآراء الأخرى التي طالبته بالقتال، وإصراره على رأيه، وهذا ما يجعل شخصيته متفردة في رأيها في أمر لا يحتاج إلى ذلك من أجل إنقاذ المدينة والمسلمين، وكذلك انغماسه في النزاعات القائمة بالموصل، وهكذا يكشف لنا جانبًا آخر لم يذكره لنا المؤرخون والمتمثل في تفضيل (كربوغا) للسلطة السياسية، وتحديدًا سلطة الحكم أكثر من رغبته في القتال والجهاد، مما أدى بعد ذلك إلى نهايته وسقوط المدن الواحدة تلو الأخرى في أيدي أعدائه.

2- العامل الموضوعي: ويتمثل في الأشياء الخارجة عن نطاق سيطرة (كربوغا)، كالنزاعات القائمة بين السلاجقة أنفسهم في مدينة الموصل إضافة إلى حالة التمزق والتفكك والتجزئة التي كان يعاني منها أهالي الشام، إضافة إلى ذلك عدم إذن السلطان السلجوقي (لكربوغا) في مواصلة الجهاد، ويبدو أن الأمور قد خرجت عن سيطرة (كربوغا) على الرغم من أنه كان كما وصفه وليم الصوري بأنه من المقربين للسلطان" ابنه المحبوب كربوغا"[3]، ولكن لأمور قد نجهلها هي التي منعت أو ربما ساهمت في عدم طلب (كربوغا) مواصلة الجهاد من

---

([1]) وليم الصوري، المصدر السابق، ص 335.

([2]) لقصة الحربة ينظر فوشيه الشارتري، المصدر السابق. بطرس توديبود، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1999. ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، دار التقدم موسكو، (د. ت)، ص 93. يوشع براور، المرجع السابق، ص 55. الرهاوي، المصدر السابق، ص 24. جوناثان ريلي سميت، المرجع السابق، ص 106.

([3]) وليم الصوري، المصدر السابق، ص 339.

السلطان، وآخر ما نستطيع أن نقوله إن انشغال السلطان والقائد بأمورهم الذاتية وابتعادهم عن الشأن العام كانت وراء هذا المصير المأساوي لمدينة أنطاكية، فقد اهتم السلطان وقائده بالذهاب إلى أبعد من ذلك بإرسالهم الجيوش لمقاتلة الخارجين عن طاعته في أذربيجان[1]، وبوصول مراغة[2]، مرض هناك ومات في خوي [3]، ويتضح مما سبق أن الأمور العامة والخاصة لم تكن في صالح المسلمين مما أدى إلى هذه الحالة من سقوط المدينة ودخول الإفرنج (الصليبيين) إليها.

([1]) أذربيجان هي كوره تلي الجبل، من بلاد العراق وهي مفتوحة الألف، وتلي كوره أرمينية من جهة الغرب، ينظر عبد المنعم محمد الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، مكتبة لبنان، 1975م، ص20.

([2]) مراغه بلد مشهور، من أعظم وأشهر بلاد أذربيجان، ينظر الحموي، معجم البلدان، دار صادر بيروت، ج5، 1977م، ص 93.

([3]) خوي مدينة معمورة من مدن أذربيجان، ذات سور حصين ومياه وأشجار كثيرة الخيرات وافرة الغلات كثيرة الأهل، ينظر القزويني، آثار البلاد في أخبار العباد، دار صادر بيروت، 1969م، ص527 . محمد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلاد الشام، دار النفائس بيروت، 1999م، ص 62.

**ثانيًا: جهاد إمارة الموصل في عهد الأمير مودود بن التونتكين([1]) ضد الصليبيين**

على الرغم من حالة التجزئة التي كانت عليها بلاد الشام، فإن ذلك لم يمنع من وجود مدن أخرى كانت سّباقة إلى تحسس الخطر الإفرنجي، وفي مقدمة تلك المدن مدينة الموصل[2]، بحكم موقعها وقربها من الأحداث التي كانت تعصف بالبلاد الإسلامية، إضافة إلى كونها من الإمارات المهمة في شمال العراق أصبحت قاعدة للعمليات العسكرية، حيث لم تتأثر هذه المدينة بفشل حملة (كربوغا) إنما واصلت دورها في قيادة حركة الجهاد بعد تولي أمرها الأمير (مودود).

استأنف مودود مسيرته الجهادية، استجابة لأوامر السلطان السلجوقي، فكانت الرها أول مدينة خاض منها جهاده، ودعا إلى وحدة الأمراء المسلمين لتكوين وحدة قوية تقف في وجه الإفرنج[3]، وقد ضم هذا الحلف العديد من الأمراء، منهم "السلطان الأمير سكمان القطبي صاحب أرمينية[4]، ومودود صاحب الموصل يأمرهما بالمسير إلى الجهاد الإفرنج، فجمعهما وسارا ووصل إليهما نجم الدين ايلغازي بن أرتوق وخلف كثير من التركمان"[5].

وبعد تكون هذا الحلف اختار الأمير (مودود) مدينة الرها لأنها أول إمارة إفرنجية تأسست في بلاد الشام، لذلك كان يهدف بأن تكون أول إمارة يتم فتحها، واسترجاعها للمسلمين. وبعد تكوين الحلف الإسلامي، أدرك الإفرنج خطورته عليهم، فسرعان ما طلب أميرها بلدوين المساعدة من باقي أمراء الإفرنج الصليبيين بالشام، فبدأت حشودهم تتوافد في الجمع لمواجهة الحلف الإسلامي "وحين عرف الإفرنج صورة هذه الحال، شرعوا في الجمع والاحتشاد والتأهب للذب عنها والاستعداد"[6].

ويتبين من خلال النص أن الإفرنج الصليبيين قد أخافهم تجمع المسلمين، وهي المرة الأولى التي يتكون فيها حلف إسلامي، يضم العديد من أمراء المسلمين، فسارعوا في الاستعداد لجمع قواتهم للذوذ عن أنفسهم.

ولم يحقق التحالف الإسلامي الأهداف المرجوة منه، فالمتمعن في تكوينه سرعان ما يدرك أنه لا يختلف كثيرًا عن حلف (كربوغا)، حيث لم يكن أعضاؤه على توافق وانسجام فيما بينهم، فوجه الاختلاف بين الحلفين واضح جدًا، فالحلف الأول يفتقر لطابع الجهاد بينما الآخر كان الطابع الجهادي هدفه، وإن لم يكن لدى الجميع، لذلك كانت أول محاولة للأمير(مودود) ورفاقه باءت بالفشل، ولم يكتب لها النجاح، فقد كانت محاولة لحصار مدينة الرها ليس إلا، ولكنه استمر في حصاره لها قرابة الشهرين دون اختراق استحكاماتها، وبذلك قرر(مودود)

---

([1]) الموصل مدينة عتيقة ضخمة، قد طالت صحبتها للزمن فأخذت أهبة استعدادها لحوادث الفتن، ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت (د. ت) ص 167.

([2]) الأمير مودود بن التونتكين ولاه السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي الموصل، كان فارسًا شجاعًا مجاهدًا وأخباره متفرقة، ابن الأثير، المصدر السابق، الفهارس، ص 448.

([3]) الفارقي، المصدر السابق، ص130. سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، المرجع السابق، ج1، ص365.

([4]) أرمينية بكسر أوله وبفتح وسكون ثانيه وكسر الميم وياء ساكنة وكسر النون وياء خفيفة مفتوحة، اسم لصقع واسع في جهة الشمال والنسبة إليها أرميني، ينظر، الحموي، المصدر السابق، ج1، ص ص 160-161.

([5]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 169.الحلبي، المصدر السابق، ص 362.

([6]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 169.

الانسحاب إلى حران، "ورحلوا عن الرها في آخر ذي الحجة منها ونزلوا أرض حران على سبيل الخديعة والمكر "[1].

كان الأمير (مودود) ينوي استدراج الإفرنج الصليبيين بعيدًا عن قاعدتهم (الرها)، لكي ينصب لهم فخًا، حتى يتمكن من إلحاق الهزيمة بهم لأنه يدرك جيدًا أنه لا يستطيع الدخول في معركة مفتوحة معهم، خصوصًا بعد أن ساد الخلل والضعف، وتباينت الآراء بين صفوف رفاقه، لذلك رأى في استحداث أسلوب جديد يخدمه في هذه المعركة تمثل في أسلوب المراوغة والخداع لإلحاق الهزيمة بهم، وإن صح التعبير محاولة (لمودود) أن يهاجمهم، لكنهم أدركوا ما كان يهدف إليه (مودود) ورفاقه، فسرعان ما كونوا حلفًا إفرنجيًا ضد المسلمين، إلا أن النزاع الذي سيطر على زعمائه، كان سببًا في فشل (مودود) في استدراجهم، لذلك اكتفى بمهاجمة مؤخرة الجيش الإفرنجي، وعاد عام (503هـ / 1109م) إلى الموصل[2]،"وفطن الإفرنج لهذا التدبير والاتفاق عليه، فخافوا واستشعروا الهلاك والخذلان"[3].

يتضح من ذلك أن الإفرنج (الصليبي) أدركوا نوايا (مودود) ورفاقه، لذلك سارعوا إلى تكوين حلف لمواجهته، وأدى هذا الحلف إلى فشل الأهداف التي كان يخطط له (مودود) وحلفاؤه.

ومما زاد الأمر سوءًا، تحالف (الملك رضوان ملك حلب) مع (تنكرد) أمير أنطاكية لمهاجمة حلب، والسيطرة عليها مما أثار مخاوف الملك رضوان فاضطر إلى عقد صلح معه بموجبه استولى تنكرد على الاتارب وزردنا[4] التابعة لحلب إلى جانب إتاوة مالية يدفعها له[5]، "واستمرت الموادعة بعد ذلك بين الملك فخر الملوك رضوان وبين طنكري، على أن يحمل إليه الملك مال حلب في كل سنة عشرين ألف دينار مقاطعة وعشرة رؤوس خيلًا"[6].

ويبدو أن الملك رضوان كان على يقين تام بعدم مساعدة أمراء المسلمين له، لكنه كان يرى أن في هذا الصلح مصلحة وحماية له من أجل المحافظة على منصبه وأملاكه، وهذا يدل دلالة قاطعة على عدم وعي هذا الملك بالخطر المحدق به نتيجة لتفضيله مصلحته الخاصة (منصبه وأملاكه)، وبمجرد دخوله في صلح مع الإفرنج يعني اعترافه غير المباشر بهم كقوة قادرة على حمايته والسماح لهم بالبقاء في الأراضي الشامية، ويتضح التصرف الشخصي لبعض الزعامات الإسلامية في أمر يخص المسلمين عامة، وهذا يكشف حقيقة مهمة تتمثل في وجود الانقسامات والنزاعات بين الأمراء المسلمين حتى في الأوقات التي كان يجب عليهم أن يبقوا على الحياد.

---

([1]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 169.
([2]) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 70.
([3]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 170. سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص366.
([4]) زردنا بليدة من نواحي حلب الغربية، ينظر، ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج3، ص 136.
([5]) ابن العديم، زبدة حلب من تاريخ، المصدر السابق، ص 366-367.
([6]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 171.

وكـان لتصـرف الملك رضـوان هـذا ردة فـعـل كبيرة لـدى المسلميـن، ولاقـى أصداء هذا التصـرف خـروج المسلميـن من فقهـاء وتجـار وعامـة الشعـب إلى بغـداد فـي تظـاهـرة واسعـة، معبريـن عن استيائهـم من تـردي الأوضـاع.

ففـي عـام (504هـ /1111م) ذهب وفد من الفقهاء وأعيان البلد برئاسة قاضي حلب (أبي غانم هبة الله بن أبي جرادة ) إلى بغداد، غير أن هذا الوفد لم يحقق شيئًا من أهدافه[1]

وقد أيقن الوفد عدم تحقيق هدفه بمقابلة الخليفة العباسي (المستظهر بالله)[*2]، فأدركوا ضعف الخليفة، وأن السلطة الفعلية ليست بيده بل بيد السلطان السلجوقي، لذا بدؤوا به أولًا بإثارة السكان ضده، ودخلوا الجامع الذي بقرب داره يوم الجمعة [3] "فانزلوا الخطيب عن المنبر وكسروه، وصاحوا لما لحق الإسلام من الإفرنج"[4]، وأدرك هؤلاء الفقهاء أنه لا جدوى من مقابلة الخليفة والسلطان فرأوا أن هذه الطريقة الأمثل لوعي عامة الناس بعيدًا عن الوعظ والإرشاد، وفي فترة حرجة قد يكون هذا الأسلوب أجدى من وجهة نظرهم في إيصال رسالة للناس بخطورة ما يحدق بهم من جراء هذا الغزو.

لم يستطع الوفد الوصول إلى مقر السلطان (بركيا روق)؛ بسبب الحرس وعدم السماح لهم لمقابلة السلطان في بداية الأمر، ولكن لإصرار الوفد على طلبه تم له تحقيق هدفه المتمثل في توصيل الأحداث للسلطان، غير أنه أوعـز إلى حراسه ليبلغـوه بأنه سيرسل قواته لإنقاذ أهل الشام[5]، إلا أن السلطان لم يرض بذلك "فمنعه السلطان من ذلك وعذر الناس فيما فعلوه، وأوعز إلى الأمراء والمتقدمين التأهب للمسير إلى الجهاد"[6]، ولم يكتف الفقهاء بذلك بل قرروا التوجه مرة أخرى لمقابلة الخليفة (المستظهر بالله) شخصيًا آملين في الحصول على مساعدة ما "فاندفعوا إلى دار الخليفة بعد أن دخلوا جامع القصر، ومنعوا الناس من الصلاة، وشرحوا أمرهم لهم، فثار الناس من حولهم"[7].

وكان لقبول الخليفة مقابلة الوفد أثر طيب لديهم، لأنه أيقن أن الوفد لن يرحل إلا بعد مقابلته، لا سيما بعد تطور الأحداث السياسية في بلاد الشام.

---

([1]) جمال محمد سالم المرجع السابق، ص 78.

([2]) الخليفة المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدي ولد عام (470هـ/1077م)، بويع له بالخلافة وله ست عشرة سنة، ينظر ابن دقماق، الجوهر الثمين في سيرة الملوك السلاطين، تحقيق، كمال الدين عز الدين، عالم الكتب بيروت، ج1، 1985م، ص 199.

([3]) جمال محمد سالم، المرجع السابق، ص 78-79.

([4]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 173.

([5]) عبد الرحمن محمد بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار مكتبة الهلال، بيروت، ج 5، 1979م، ص 411- 412. شمس الدين محمد الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام، الدار الكتاب العربي، بيروت، حوادث 501-520، 2002م، ص 21.

([6]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 73.

([7]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 261.ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 173.

لقد ازادت الأمور سوءًا، حين طالب الإمبراطور البيزنطي (اليكسيوس كومنين) من الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي بالتصدي للإفرنج ، وكان لهذا الحدث صدى كبير في نفوس المسلمين، "إما تتقي الله أن يكون ملك أكثر حمية فيك للإسلام حتى أرسل إليك في جهادهم"[1].

يتبين من خلال النص، أن وصول وفد من فقهاء حلب إلى بغداد قد تزامن مع وصول وفد من الإمبراطور البيزنطي لتسهيل التعاون مع السلطان والخليفة لردع الإفرنج، ويرجع سبب موقف (اليكسيوس كومنين) المُعادي للغزو الإفرنجي إلى أنه أدرك أن أطماعهم لن تقف عند احتلالهم للأراضي الشامية، بل إنها سوف تمتد إلى الأراضي البيزنطية.

وهكذا تحول الإمبراطور البيزنطي حليف الإفرنج في الماضي إلى عدو لهم، كان على تحالف وارتبط بوعود معهم، فقد مد لهم يد العون، وسهل عليهم الدخول للأراضي الشامية بشرط أن يعيدوا كل ما كان بحوزة الإمبراطورية البيزنطية.

لكن الإفرنج لم يحفظوا العهد، فاستولوا على كل مدينة وقعت في أيديهم، وعلى الرغم من أنهم إخوانهم في الدين، فإن ذلك لم يمنعهم من التعدي على ممتلكاتهم[2].

عندئذ أيقن الخليفة خطورة الموقف، فأرسل إلى السلطان السلجوقي يأمره بالاهتمام بهذا الأمر بإرسال قواته لمساندة المسلمين في بلاد الشام. "يأمره بالاهتمام بهذا القتل ورتقه"[3]، وبالفعل شهد عام (505 هـ / 1112م) تحركًا فعليًا وجديًا لمواجهة الإفرنج باتجاه الرها، فانضوى أمراء وحكام الأقاليم السلاجقة تحت قيادة الأمير (مودود)، وسكمان القطبي صاحب خلاط وتبريز[4] وايلغازي الأرتقي الذي أناب عنه ابنه أياز، والأميران الكرديان أحمد يل[5] صاحب فراغه؛ وأبو الهيجاء صاحب اربل[6]؛ إضافة إلى بعض أمراء فارس بزعامة الأميرين ايلنكي وزنكي بن برسف أمير همذان[7]، وعدد كبير من الأمراء[8]، ويُعد هذا التحالف الإسلامي للجهاد بادرة طيبة في نفوس المسلمين، إذ إنه يعد فاتحة لتوحد القوى الإسلامية في بلاد الشام، فتحرك مودود بقواته نحو سنجار[9] وتمكنوا من فتح عدة حصون للإفرنج، إلى أن بلغوا الرها وأحكموا حولها

---

([1]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 173.
([2]) فتحية النبراوي، حياة الإمبراطور اليكسيوس كومنين، المجلة التاريخية المصرية، المرجع السابق، ص 42.
([3]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 261.
([4]) تبريز مدينة عامرة حسناء، أسوار محكمة بالآجر والجص، وفي وسطها عدة أنهار جارية والبساتين المحيطة بها، والفواكه بها رخيصة، هي أشهر من أذربيجان، ينظر ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج2، ص 13.
([5]) الأمير أحمديل بن إبراهيم الكردي، صاحب مراغة، قيل كان إقطاعه في كل سنة أربع مئة ألف دينار، وجنده خمسة آلاف فارس، سهيل زكار، المرجع السابق، ص 254.
([6]) اربل قلعة حصينة، ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض، واسع وسيط، ولقلعها خندق عميق، وهي في طرف من المدينة وهي شبيهة بقلعة حلب، ينظر الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 138.
([7]) همذان سميت بهمذان بن الفلوج بن سام بن نوح عليه السلام، المصدر نفسه، ج5، ص 110.
([8]) ابن خلدون، المصدر السابق، ص 411، ابن كثير، المصدر السابق، ج12، ص 173.
([9]) سنجار بكسر أوله وسكون ثانيه ثم جيم وآخره راء مدنية مشهورة في نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، وسميت سنجار باسم بانيها، ينظر الحموي، المصدر السابق، ج3، ص 262.

الحصـــار[1]، ويـوضح لنا ذلك ابن الأثير بقوله: "اجتمعت العساكر التي أمرها السلطان بالمسير إلى قتال الإفرنج، فكانوا: الأمير مودود صاحب الموصل، والأمير سكمان القطبي صاحب تبريز وبعض ديار بكر، والأمير ايليكي وزنكي ابنا برسق، ولهما همذان وما جاورها، والأمير أحمد يل وله مراغه وكوتب، والأمير أبو الهيجاء صاحب اربل، والأمير ايلغازي صاحب ماردين، والأمراء البيكجية باللحاق بالملك مسعود و(مودود) فاجتمعوا ما عدا الأمير ايلغازي الذي سير ولده أياز، وأقام هو، وعندما اجتمعوا وساروا إلى بلد سنجار ففتحوا عدة حصون للإفرنج وقتلوا من بها، وحصروا مدينة الرها"[2].

واتخذ الأمير بلدوين الإجراءات لتحصين المدينة، فأيقن (مودود) بأنه لا جدوى في الاستمرار، وإن حصاره لن يكون فعالًا لحصانتها، فآثر الانسحاب إلى تل باشر[3]، وفي طريقهم دمروا كل ما صادفوه من ضياع ومزارع للإفرنج، وأقاموا على حصارها خمسة وأربعين يومًا[4]، إلا أن حصارهم لها لم يستمر؛ بسبب التخاذل الذي أصاب بعض الأمراء، حيث تعاون (أحمد يل صاحب مراغه) مع جوسلين الثاني، صاحب تل باشر وعرض عليه مبلغًا ماليًا، مقابل رحيله عن المدينة فقبل تعاونه.

وعلى الرغم من انفراد (ابن الأثير) بذكره للأحداث بشيء من التوسع، فإن (ابن القلانسي) قد تميز عنه بذكر هذه الحادثة التي لم نجدها عند (ابن الأثير)، حيث يذكرها (ابن القلانسي) بكل دقة ووضوح بقوله: "فأنفذ جوسلين صاحب تل باشر إلى الأمير أحمد يل الكردي يلاطفه بمال وهدية، ويبذل له الكون معه والميل إليه، وكان أكثر العسكر مع أحمد يل، وسأله الرحيل عن الحصن وينزل إليه فأجابه إلى ذلك"[5].

يتبين من خلال النص، مدى الانقسام الذي كان عليه المسلمون، فكانت الأطماع والإقطاعية والرغبات السياسية هي المسيطرة على زمام الأمور، فبدلًا من أن يستمروا في حصارهم للمدينة، نجدهم يتعاونون مع عدوهم لأجل مصالحهم الشخصية، فكان موقف الأمير مثيرًا للاستغراب، مما يدل على جهله بحقيقة الخطر الإفرنجي المحدق بالإسلام والمسلمين.

في هذه الأثناء، كان الأمير (مودود) يأمل المساعدة من (الملك رضوان) ملك حلب، لكن الأخير قد خيب أملهم في تقديم المساعدة، فتخلى عنهم وأغلق أبواب مدينته، ولم يكتف بذلك، بل أخذ رهائن منها واعتقلهم خوفًا من أن يقوموا ضده بأية مظاهرة تدفعه إلى تسليم المدينة[6] لأنهم "توقعوا خروج الملك فخر الملوك رضوان صاحب حلب إليهم، أو خدمة ينفذها لهم فلم يلتفت إلى أحد منهم، وأغلق أبواب حلب وأخذ رهائن من أهلها إلى القلعة"[7].

---

([1]) ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، المصدر السابق، ص 23.الحلبي، المصدر السابق، ص 361.
([2]) ـ ابن الأثير، المصدر السابق، ص 262.
([3]) تل باشر حصن على مرحلتين من حلب، فيه المياه والبساتين، ينظر أبو الفداء، تقويم البلدان، المصدر السابق، ص 232.
([4]) اليافعي، المصدر السابق، ص 177.
([5]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 175.
([6]) حسن حبشي، نور الدين والصليبيون، دار الفكر العربي، (د.ت) ص 16.
([7]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 175.

كان الأمير (مودود) في أمسّ الحاجة لمساعدة الملك (رضوان)، ولكن هذا لم يحرك له ساكنًا، ووضع المسلمين في موقف حرج بإغلاقه أبواب مدينته في وجههم، وعدم تقديم الإمداد والعون (لمودود) ورفاقه لمواجهة الإفرنج ـ الصليبيين.

كان الملك (رضوان) يخشى من مودود أكثر من خشيته الإفرنج، وهذه ليست المرة الأولى التي يقوم بها الملك رضوان بالتخلي عن المسلمين، حيث سبق أن تحالف مع تنكرد أمير أنطاكية، ودفع له غرامة مالية، لذلك فلا عجب أن يصدر منه هذا التصرف، وأدى هذا إلى سخط أهالي حلب عليه، فأخذوا يسبونه وأمر بإغلاق أبواب المدينة "وساء تدبير الملك رضوان فأطلق العوام ألسنتهم بالسب له"[1].

كان أهالي حلب على وعي وفهم للجهاد أكثر من ملكهم، لأنهم عانوا وضاقوا بمرارة الخوف والذل من الإفرنج، كما كان للتحالف الإسلامي بقيادة الأمير (مودود) صداه على المدن الشامية، فكانوا ينتظرون ساعة الفرج وطرد عدوهم من أرضهم، وزاد من تأزم الأوضاع موت سكمان القطبي وتفرق كل الحلف الإسلامي "ثم مرض هناك الأمير سكمان القطبي فعاد مريضا فتوفى، فقصدهم ايلغازي ليأخذهم ويغنم ما معهم، وقاتلوا فانهزم ايلغازي، وتفرقت العساكر، وكان سبب تفرقهم أن الأمير برسق بن برسق الذي هو أكبر الأمراء كان به نقرس فهو يحمل في محفة، وأراد الأمير أحمد يل صاحب فراغه العودة ليطلب من السلطان أن يقطعه ما كان لسكمان من البلاد"[2].

وبسبب تلك الظروف الحرجة اتجه الأمير مودود بقواته إلى معرة النعمان[3] فانضم إليه طغتكين أتابك دمشق، إلا أنه في بداية انضمامه للأمير(مودود) لم تكن نواياه صادقة اتجاهه، إذ أقام علاقات سرية مع الإفرنج، لم تكلل بالنجاح، فاضطر مرة أخرى إلى مصادقته ومساعدته في جهاده "ورحلوا إلى معرة النعمان واجتمع بهم طغتكين صاحب دمشق، ونزل على الأمير (مودود) فاطلع من الأمراء على نيات فاسدة في حقه، فخاف أن تؤخذ منه دمشق، فشرع في مهادنة الإفرنج سرًا، وكانوا قد نكلوا عن قتال المسلمين، فلم يتم ذلك"[4].

لم يكن الأتابك طغتكين في بداية انضمامه للأمير(مودود) قد انضم بنية صادقة، بل كان يخشى بأن تؤخذ دمشق منه، فرأى في مهادنة الإفرنج ضمانًا له بأن تبقى مدينته تحت سيطرته، وما إن فشلت علاقته معهم، رأى أن جهاده مع المسلمين ومودود أفضل له، وهذا يفسر بأن الأتابك طغتكين قد أدرك مدى الخطر الذي يهدد الأراضي الشامية، وصار على قدر من الفهم لمعنى الجهاد.

---

([1]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 175.
([2]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 263. سهيل زكار، المرجع السابق، ص 254.
([3]) معرة النعمان، بليدة بين حلب وحماة، كثيرة التين والزيتون ينسب إليها أبو العلا المعري المشهور بالذكاء ينظر القز ويني، المصدر السابق، ص 272.
([4]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 263.

لم تكن محاولة مودود وأعوانه إلا بداية لحركة الجهاد، لأن النزاع والانقسام سيطرا على الحلف الإسلامي، فالأمراء المشاركون فيه اختلفت الظروف التي مرت بهم، منهم من مرض، ومنهم من مات، ومنهم من تقاعس عن الجهاد أصلًا.

لم يبق أحد من الحلف الإسلامي سوى الأمير (مودود)، ومعه الاتابك طغتكين، فتحصن بقواته خلف شيزر[1]، وفي المقابل اجتمعت القوى الإفرنجية الصليبية قرب افامية[2] على الضفة الشرقية لنهر العاصي، بينما عسكر مودود بقواته على الضفة الغربية للنهر بإيعاز من صاحب شيزر الذي هون عليه مهمته وحثه على الجهاد " فتفرقوا، وبقي مودود وطغتكين بالمعرة فساروا منها، ونزلوا على نهر العاصي، ولما سمع الإفرنج بتفرق عساكر الإسلام طمعوا، وكانوا قد اجتمعوا كلهم بعد الاختلاف والتباين وساروا إلى افامية فسمع بهم سلطان بن منقذ[3] صاحب شيزر فسار إلى مودود وطغتكين، وهون عليهما أمر الإفرنج وحرضهما على الجهاد"[4] ولم يدخل المسلمون معركة مفتوحة معهم، بل كانت مناوشات أسفرت عن انسحاب مودود إلى الموصل، وتراجع كل أمير إلى إمارته[5].

وطمع الأتراك فيهم وسهل أمرهم عليهم وكانت خيل المسلمين مثل خيل الإفرنج، إلا أن رجالهم أكثر، وزحف الأتراك إليهم فنزلوا للحرب عند تل كانوا عليه، فهجم الأتراك عليهم، ونهبوا جانبًا من عسكرهم، وملكوا عدة من خيامهم، فعادوا إلى مكانهم الذي كانوا به ورجعوا منه واشتد خوف الإفرنج من الأتراك، وأقاموا ثلاثة أيام لا يظهر أحد منهم، ولا يصل إليهم شخص وعاد المسلمون لصلاة الجمعة، فرحل الإفرنج إلى افامية ولم ينزلوا فيها بل تعدوها، وتبعهم المسلمون عند معرفة رحيلهم، وتحفظوا أطرافهم ومن ظفروا به سائرًا على آثارهم وعادوا إلى شيزر ورحلوا إلى حماة[6] واستبشر الناس بعودة الإفرنج على هذه الحال"[7].

ويصف (ابن الأثير) الحالة التي كان عليها الإفرنج بقوله "ونزلوا عليها ونزل الإفرنج بالقرب منها فضيق عليهم عسكر المسلمين الميرة، ولما رأوا قوة المسلمين عادوا إلى أفامية، وتبعهم المسلمون، فتحفظوا من أدركوه، وعادوا إلى شيزر"[8].

---

([1]) شيزر، هي مدينة قديمة ذات قلعة حصينة وكوره حسنة وهي قريبة من حماة، ابن الشحنة، المصدر السابق، ص226.
([2]) افامية، مدينة حصينة من سواحل الشام وكوره من كور حمص، ينظر، المصدر نفسه، ص 227
([3]) بنو منقذ قبيلة عربية تنتهي إلى كنانة كانت تحكم شيزر، ونبع منها عدد كبير من الفرسان والأدباء والعلماء، كان منهم أسامة صاحب كتاب الاعتبار، لمزيد من التفاصيل ينظر، أسامة بن منقذ، الاعتبار، المصدر السابق، ص 14.
([4]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 263.
([5]) الذهبي، سير أعلام النبلاء، المصدر السابق، ص 360.
([6]) حماة مدينة كبيرة عظيمة، كثيرة الخيرات، ولها قلعة حصينة، وهي تقع بين حمص وقنسرين، ينظر أبو الفداء، تقويم البلدان، المصدر السابق، ص 262.
([7]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 177- 178.
([8]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 263.

كانت قوة المسلمين الأكثر عددًا وعُدة، وهو ما جعلهم يفرضون هيمنتهم على الإفرنج إلى أن نفدت منهم الميرة، إلا أن الأمير (مودود) لم يشأ خوض معركة مفتوحة مع الإفرنج، لا سيما بعد أن تقاعست جل قواته، لذلك كان يخشى من مصير هذه المعركة.

ولخوفه على الجيش، فضل الانسحاب عن الاستمرار في مقاتلة الإفرنج، وتبين حقيقة مهمة جدًا، وهي أن جل الأمراء لم يكن خروجهم للجهاد بدافع ديني، بل من أجل المطامع الشخصية للحصول على قدر أكبر من الأملاك والأراضي، وهذا ما يفسر التراخي والانحلال الذي كانوا عليه، بينما مودود كان هدفه جهاديًا من أجل تحرير الأراضي الشامية من الغزو الإفرنجي الصليبي .

**ثالثًا: حملة الأمير(مودود) الجهادية الثانية ضد الفرنجة الصليبيين**

لم يتوقف نضال أمير الموصل (مودود) عن جهاد الإفرنج عند الرها، بل ظل متمسكًا بفكرة الجهاد، وأخذ يخطط للقيام بعملية ناجحة ليحقق نصرًا حاسمًا عليهم فتحرك عام (506هـ/ 1113م) على رأس تحالف إسلامي بعد أن استنجد به طغتكين الذي تعرضت إمارته لهجوم إفرنجي من قبل بلدوين الأول ملك بيت المقدس، فدخلا في اشتباك حول مدينة صور، وأخذ (بلدوين) يشن هجماته على دمشق وانقطعت الطريق، وقلت الأقوات وغلت لأسعار[1]"وفي هذه السنة.. اجتمع المسلمون وفيهم مودود ابن التونتكين صاحب الموصل، وتميرك صاحب سنجار والأمير اياز بن ايلغازي وطغتكين صاحب دمشق، وكان سبب اجتماع المسلمين أن ملك الإفرنج بلدوين تابع الغارات على بلد دمشق ونهبه وخربه أواخر سنة ست وخمس مئة، وانقطعت المواد عن دمشق، فغلت الأسعار فيها وقلت الأقوات، فأرسل طغتكين صاحبها إلى الأمير مودود يشرح له الحال، ويستنجده ويحثه على سرعة الوصول إليه"[2].

وجد (مودود) فرصة لتحقيق هدفه في توجيه ضربة قوية للإفرنج، خاصة بعد أن فشل في محاولته ضد إمارة الرها، لذلك نجده سرعان ما لبى النداء، وجمع الجيش الإسلامي، واتجه به لملاقاة العدو، فما إن استنجد به (طغتكين) حتى خرج مسرعًا بقواته لمواصلة الجـهاد، وفور سماع (طغتكين) (بمودود) خرج للقائه عند سلمية[3] واتفقا على الجهاد معًا ضد الإفرنج، ونزلا بجيوشهما عند طبرية[4]، "وسمع طغتكين خبره فسار إليه ولقيه بسلمية، واتفق على رأيهم على قصد بلدوين ملك القدس، فسارا إلى الأردن"[5] وما إن وصلت أنباء تجمع المسلمين نحو طبرية للملك بلدوين الذي كان مقيمًا في عكا[*] حتى سار مسرعًا للاستنجاد بالقوى الإفرنجية

---

([1]) الذهبي، سير أعلام النبلاء، المصدر السابق، ص 26.

([2]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 266.

([3]) سلمية أوله وثانيه مضموم وياء مثناه من تحت خفيفة، قيل سلمية قرب المؤتفكة فيقال إنه مما نزل بأهل المؤتفكة ما أنزل من العذاب رحم الله منهم مئة نفس فنجاهم فانتزحوا إلى سلمية فعمروها، وسكنوها فسميت سلم مئة، ثم حرف الناس اسمها فقالوا سلمية، الحموي، المصدر السابق، ج3، ص 240.

([4]) طبرية هي بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية وهي في طرف جبل وجبل الطور فطال عليها، وهي من أعمال الأردن في طريق الغور بينها وبين دمشق ثلاثة أيام، ينظر الحموي، المصدر نفسه، ج 4، ص 14. الذهبي، تاريخ الإسلام، المصدر السابق، ص 26.

([5]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 262.

(الصليبية) التي سرعان ما لبت نجدته، "فلما وصل الخبر إلى الملك، وكان يعرف اعتماد خصومه على كثيرة عددهم، دعا لمساعدته كل من روجر بن ريتشارد، أمير أنطاكية وكونت طرابلس، ولكنه تعجل في الرحيل مع عسكره قبل وصول الإمدادات له"[1].

دخل الإفرنج ـ الصليبيون في معركة حاسمة مع الأمير(مودود) وقواته، واستطاع أن يلحق بهم الهزيمة، وقتل عددًا كبيرًا منهم عام (507 هـ/ 1113م )، وتكبد الإفرنج ـ الصليبيون خسائر كبيرة ووقع الملك بلدوين نفسه أسيرًا في تلك المعركة، غير أن المسلمين لم يتعرفوا على شخصيته، فأخذوا سلاحه وأطلق سراحه فنجا جريحًا، واستولى المسلمون على أموالهم وأسلحتهم وغنموا كل ما لديهم، "واشتد القتال وصبر الفريقان، ثم إن الإفرنج انهزموا، وكثر فيهم الأسر، ولما أسر ملكهم بلدوين فلم يعرف فأخذ سلاحه وأطلق فنجا، غرق منهم في بحيرة طبرية ونهر الأردن كثير، وغنم المسلمون أموالهم وسلاحهم"[2].

ولقد اعترف (وليم الصوري ـ رانسيمان) بهذه الهزيمة التي مني بها الإفرنج على يد مودود ورفاقه، فالأول يذكر أحداث هذه الهزيمة بقوله؛ "وتجمعت هذه القوات، فشنت هجومًا شرسًا على رجالنا الصليبيين الذين عمدوا في أول الأمر إلى مقاومتهم بالسيوف، وقاتلوهم قتالًا عنيفًا لعلهم يردونهم على أعقابهم، ولكن كانت الغلبة للعدو بسبب كثرته التي اجتاحت رجالنا، وأرغمتهم على الفرار، ولم يسعفهم هذا القرار بالسلامة بل جرت مذبحة مروعة في صفوف الهاربين حتى إن الملك ذاته ألقى بعلمه الذي كان في يده إلى الأرض، وكانت نجاته إحدى المعجزات، وجرى هذا على غيره من سادات المملكة، إذ فروا مخلفين وراءهم المعسكر بكل متاعهم"[3].

ويضيف (رانسيمان): "ونسى الملك بلدوين هذه المرة ما اعتاد عليه من توخي جانب الحذر، فلحقته هزيمة نكراء، و لولا وصول الإمدادات له لما استطاع الملك أن ينجو بنفسه"[4]، ويرجع (وليم الصوري) سبب هذه الخسارة إلى أن الملك بلدوين "لم يطق صبرًا حتى تصل إليه النجدة اطمئنانًا منه إلى شجاعته الذاتية"[5].

وتُعد معركة الصنبرة التي هزم فيها الإفرنج هزيمة فادحة، جعلتهم يقرون بالقوة الإسلامية ويحسبون لها ألف حساب- من أهم المعارك التي خاضها المسلمون، لا سيما (مودود) فهي تكشف حقيقة القوات الإسلامية، ومدى إصرارها على مواجهة الغزو الإفرنجي ـ الصليبي، كما أنها أوضحت مدى تفاهم المسلمين، وحرصهم على حماية أرضهم وعرضهم، وأنهم بإمكانهم فعل ذلك في حال توحدت كلمتهم وصفوفهم.

وفي هذه الأثناء وصلت القوات الإفرنجية لمساندة الملك بلدوين، مما أعاد الثقة له ولجيوشه إلا أن المسلمين منعوا الميرة عنهم، فأيقن الإفرنج أنه لا جدوى من الخروج[1].

---

([1]) الصوري، المصدر السابق، ج 2، ص 300. ستيفن رانسيمان، المرجع السابق، ج2، ص 157.
([2]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 262.ابن الوردي، المصدر السابق، ص 21. ابن كثير، المصدر السابق، ص 175. أبو الفداء، المصدر السابق، ص 145.اليافعي، المصدر السابق، ص 193. ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتاب العلمية بيروت، ج 9، (د. ت)، ص 133.
([3]) وليم الصوري، المصدر السابق، ص 301.
([4]) رانسيمان، المرجع السابق، ص 157.
([5]) وليم الصوري، المصدر السابق، ص 301.

وبذلك أذن (مودود) لقواته بالتراجع والرجوع لبلادهم[2]، وقرر هو وطغتكين العودة إلى دمشق على أمل العودة ، بعد فصل الشتاء لمواصلة الجهاد، فدخلا دمشق (507هـ/ 1113م )[3].

كانت معركة الصنبرة خاتمة لحياة الأمير (مودود)، وعقب وصول (مودود طغتكين) دمشق، وأثناء أدائهم للصلاة في جامع دمشق لاقى مودود مصيره حيث قتل على يد باطني[4]، "فلما فرغوا من الصلاة و خرج إلى صحن الجامع ويده في يد طغتكين، وثب عليه باطني فضربه فجرحه أربع جرحات، وقتل الباطني وأخذ رأسه، فلم يعرفه أحد فأحرق"[5].

ويرجح ابن (الأثير) أن طغتكين هو من أمر بقتل (مودود)لأنه "خافه طغتكين، فوضع عليه من قتله"[6]، ويضيف (وليم الصوري) على ذلك "حين وصل إلى دمشق مودود قائد الجيوش المعادية الذي كان قد أنزل كثيرًا من البلوى بالمملكة اغتاله الحشاشون، ويقال إن ذلك الاغتيال تم بعلم الملك طغتكين وموافقته، إذ كانت الشائعة أنه لم يكن يأمن بأس هذا القائد، ويخشى أن يحرمه من المملكة"[7]، ويؤكد رانسيمان هذا بقوله "وفي الحال قتل طغتكين القاتل ليبرئ نفسه من الجريمة، ورغم أن الرأي العام عّده مذنبًا، فإنه التمس له العذر تأسيسًا على أن (مودود) كانت له مخططاته حيال دمشق"[8].

بينما يرجح أحد المؤرخين المحدثين بأن الملك رضوان أمير حلب هو الجاني "روح رضوان أمير حلب هو الجاني، في حين حمّله العامة المسؤولية"[9]، ويضيف آخر"ولا ندري مدى حصة رضوان في الإعداد لهذا الاغتيال" [10].

وعلى أية حال كان رضوان، أو طغتكين أحدهما الجاني، فكلاهما سبق أن تعاون مع الإفرنج ضد (مودود) وتخلوا عنه، إلا أن طغتكين تراجع في نهاية الأمر، وعاد لمواصلة الجهاد معه بينما رضوان لم يفعل شيئًا بل

---

([1]) الفارقي، المصدر السابق، ص 281.
أبي الفرج جمال الدين ابن العبري، تاريخ الزمان، دار المشرق بيروت، 1991م، ص 134.
([2]) ابن الأثير، الباهر في الدولة الأتابكة في الموصل، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، مكتبة المثنى بغداد، 1963م، ص 19.
([3]) ابن الأثير، الباهر، المصدر السابق، ص 19. أبو الفداء، المصدر السابق، ج3، ص 145.
([4]) الباطنية يطلق هذا اللفظ على عدد من الفرق الإسلامية وغير الإسلامية، ظهر مذهبهم أيام العباسي، ومن أساليبهم التشكيك في المعتقدات الدينية وفي الكتب المقدسة، ومذهبهم في الإمام على رضي الله عنه قريب من مذهب النصارى في المسيح ومن فرقهم الحشاشون، ينظر عبد القاهر بن طاهر الإسفراييني، الفرق بين الفرق، تحقيق محي الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث بيروت، 2007، ص 31.
الشهرستاني، المصدر السابق، ص 191. رانسمان، المرجع السابق، ص 158. ابن العبري، تاريخ الزمان، المصدر السابق، ص 134.
ابن شداد، الأغلاف الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق زكريا عبارة، منشورات وزارة الثقافة دمشق، ج 3، ق1، 1991م، ص 133.
أبي الفلاح عبد الحي الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتبة التجارية للطباعة والنشر والتوزيع، ج 4، ( د. ت) ص 20 - 21.
([5]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 187. ابن الأثير، ص 266.
([6]) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ص 266.
([7]) الصوري، المصدر السابق، ص 302.
([8]) رانسيمان، المرجع السابق، ص 158.
([9]) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 78.
([10]) سهيل زكار، المرجع السابق، ص 247.

كانت أفعاله كلها لصالح الإفرنج، وكلاهما كان يخشى من (مودود) بأن يأخذ أملاكه، وهذا ما يوضح الانقسام الذي كانت عليه الأراضي الإسلامية، لاسيما الشامية، فبعد الانتصار الذي حققه مودود، كان من المفترض عليهم الحفاظ على هذا النجاح، والتعاون معًا، لتحرير بقية الأراضي الشامية.

وعقب موت (مودود)، أصيب سكان بلاد الشام باليأس والحزن، إذ إن الأخير قد جمع جيشًا قويًا من الموصل، ليتوجه به للجهاد ضد الإفرنج ـ الصليبي، غير أن موته أدى إلى تفرق الجيش الإسلامي، وتبدد الآمال التي عقدها المسلمون عامة وأهل الشام، خاصة عليه وعلى جيشه، ونجد هذا اليأس المؤقت مجسدًا في الرسالة التي يذكرها ابن الأثير، أن ملك الإفرنج في القدس أرسلها إلى طغتكين، حاكم دمشق يقول فيها، لما سمع ما حدث (لمودود) "إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها، في بيت معبودها، لحقيق على الله أن يبيدها" [1].

وقد ترتب على محاولات السلاجقة نتائج عدة أهمها أن (كربوغا) قد فرض حصارًا على الإفرنج، على الرغم من الإخفاق الذي حل بمحاولته، ولكن هذا الحصار والمحاولة كشفا أمرًا مهمًا، وهو التخاذل الذي كان عليه المسلمون، بينما نجد عكس ذلك في محاولة الأمير (مودود)، فعلى الرغم من قصر مدة إمارته، فإنها تعد فاتحة خير للمسلمين خلال تلك المرحلة المبكرة، والتي أصبحت فيها فكرة الجهاد حقيقة واقعة.

وعليه، لا أحد يستطيع إغفال أو إجحاف محاولات السلاجقة لمواجهة الغزو الإفرنجي، فهي التي وضعت أساس حركة الجهاد، لذلك يجب أن نقر بأن للقيادة السلجوقية في الموصل الفضل في إرساء حركة الجهاد الإسلامي ضد الإفرنج ـ الصليبي.

---

([1]) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ص 266. الباهر، المصدر السابق، ص19.
أبي الفلاح الحنبلي، المصدر السابق، ص21.

**المبحث الثاني : دور دمشق الجهادي والسلبي في بلاد الشام ضد الغزو الصليبي**

امتازت مدينة دمشق عن غيرها من بلاد الشام باختلاف موقفها من الغزو الإفرنجي، وإن كان يصب في النهاية بنفس الهدف الذي سعى إليه باقي المدن الشامية، فموقفها لا يمكن قياسه بأي حال من الأحوال مع موقف حلب، على سبيل المثال موقف هذه المدينة من الغزو الإفرنجي ـ الصليبي كان واضحًا منذ اللحظات الأولى لبداية هذا الغزو.

أما موقف مدينة دمشق، فقد امتاز بالمناورة والسياسة والدهاء، إضافة إلى الحرب والجهاد ضد الإفرنج، لذلك يمكننا القول بأن دور دمشق قد امتاز بثنائية انفرد بها، وهما الدور الإيجابي المتمثل بجهاد الإفرنج والدور الدبلوماسي المتمثل بالهدنة معهم، وعليه قسم هذا المبحث إلى مطلبين الأول الدور السلبي، والثاني الدور الإيجابي.

**1- الدور الدبلوماسي لمدينة دمشق:**

لا يمكن اتهام مدينة دمشق بأن موقفها سلبي ، و بإدراك الظروف المحيطة بهذا الموقف، الذي لم يكن في حقيقته موقفًا سلبيًا بقدر ما كان موقفًا حكيمًا إذا أخذنا بالنتائج التي ترتبت عليه، والتي أنقذت المسلمين من كوارث كان من الممكن أن تصيبهم، لولا تلك الهدنة التي بين (طغتكين) و(بلدوين) ملك الإفرنج، والتي كانت مدتها "أربع سنين، وكان ذلك من لطف الله تعالى بالمسلمين، ولولا هذه الهدنة لكان الإفرنج بلغوا من المسلمين بعد الهزيمة الآتي ذكرها، أمرًا عظيمًا"[1].

لذلك آثرت هذه المدينة اتباع سياسة يمكن أن نطلق عليها مصطلح "دبلوماسي"، إن كان يجوز تسميته في تلك الفترة.

ولكن مع كل هذا الذي ذكره (ابن الأثير) فنحن لا نؤيد فكرة الهدنة مع العدو، لأنها أنقذت المسلمين لفترة ما، فإن العدو يبقى عدوًا مهما طالت أو قصرت تلك الهدنة، ولذلك لحق بالمسلمين الخسران بعد تلك الهدنة، فقد أدت إلى انهزام (طغتكين) من الإفرنج بعد ذلك.

وسبب هذه الهزيمة يتلخص في أن "حصن عرقة وهو من أعمال طرابلس، كان بيد غلام للقاضي فخر الملك أبي علي بن عمار صاحب طرابلس، وهو من الحصون المنيعة، فعصى مولاه فضاق به القوت، وانقطعت عنه الميرة، لطول مكث الإفرنج في نواحيه، فأرسل إلى أتابك (طغتكين)، صاحب دمشق وقال له: أرسل من يتسلم هذا الحصن مني، قد عجزت عن حفظه، ولأن يأخذه المسلمون خير لي دنيا وآخرة من أن يأخذه الإفرنج" فما كان من (طغتكين) إلى أن يرسل له صاحبًا اسمه (إسرائيل) في ثلاث مئة رجل، فتسلم الحصن، إلا أنه ما أن نزل غلام ابن عمار من الحصن "رماه إسرائيل في الأخلاط بسهم فقتله، وكان قصده بذلك أن لا يطلع أتابك طغتكين على ما خلفه بالقلعة من المال"[2].

---

([1]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص528.

([2]) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، المصدر السابق، ج8، ص 528.

وأراد (طغتكين) قصد الحصن للاطلاع عليه وتقويته بالعساكر والأقوات وآلات الحرب "فعاقته الثلوج والأمطار عن الوصول إليها، فرجع إلى حصن الأكمة مقاتلًا، ثم رحل عنه شبه مهزوم إلى حصن حمص، ونزل الإفرنج على طرابلس وشرعوا في قتالها، ومضايقة أهلها زهاء أربعة أشهر، فشمل البأس أهلها لتأخر وصول الأسطول المصري في البحر، فملكها الإفرنج بالسيف"[1]، إلا أن ذلك لم يمنع (طغتكين) بالتوقف عن فتح حصون أخرى للإفرنج، منها حصن الأكمة، لكن القائد السرداني الإفرنج عندما سمع بقدوم (طغتكين) توجه في ثلاث مئة فارس، وهجموا على عسكر(طغتكين) وهزموهم "ونهبوا ما فيها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها، وحصل في أيديهم من أمتعتها وذخائرها ودفاتر علمها، وما كان في خزائن أربابها ما لا يحد عدده ويحصر، ونزل بأهلها أشد البلاء"[2].

لما وصل (طغتكين) إلى دمشق بعد هذه الهزيمة أرسل ملك القدس يقول له: "لا تظن أنني أنقضت الهدنة للذي تم عليك من الهزيمة، فالملوك ينالهم أكثر مما نالك، ثم تعود أمورهم إلى الانتظام والاستقامة، وكان طغتكين خائفًا أن يقصد بعد هذه الكسرة، فينال من بلده كل ما أراد"[3].

هكذا نكتشف أن هذه الهدنة لم تكن إلا مرحلة حاول فيها الإفرنج ـ الصليبيون تنظيم صفوفهم، وتعزيز قوتهم، فلا أمان للغازي مهما كان نوعه، إفرنجيًا أم غير ذلك.

ويضاف إلى ذلك عامل الهدنة السالف الذكر، نجد عاملًا آخر في موقف دمشق السلبي، والمتمثل أصلًا في عصيان (طغتكين) على السلطان، وكذلك قوة الإفرنج، فما كان من السلطان إلى أن جهز عسكرًا كثيرًا بقيادة (برسق بن برسق)، فلما وصلوا إلى حلب راسلوا المتولي لأمرها (لؤلؤ الخادم)، ومقدم عسكرها المعروف بـ(شمس الخواص)، يأمروهما بتسليم حلب، وعرضوا عليهما كُتب السلطان، إلا أنه استنجد (بطغتكين) و(ايلغازي)، "فسارا إليهم في ألفي فارس، ودخلا حلب فامتنع من بها حينئذ عسكر السلطان، وأظهرا العصيان، فسار الأمير(برسق بن برسق) إلى مدينة حماة، وهي في طاعة طغتكين وبها ثقله فحصرها، وفتحها عنوة، ونهبها ثلاثة أيام وسلمها إلى الأمير قرجان صاحب حمص"[4].

كان السلطان قد أمر قواته بتسليمه كل بلد يفتحونه، وبعد هروب (طغتكين) و(ايلغازي) إلى أنطاكية، سألا صاحبها أن يساعدهما في استعادة حماة، إلا أن وصول بلدوين صاحب القدس وصاحب طرابلس وغيرهما من الإفرنج أدى بهم إلى تأجيل معاودة القتال مرة ثانية، لذلك رجع ايلغازي وطغتكين إلى دمشق فاشلين.

هذا الفشل العسكري شجع ملك الإفرنج في منطقة رفينة من أرض الشام، وقد كانت تابعة (لطغتكين) وقووها بالرجال والذخائر، مما أدى إلى خروج (طغتكين) عليهم، إلا أن قوة الإفرنج أدت إلى انهزام المسلمين، وتتبع الإفرنج المنهزمين حتى وصلوا إلى عقبة سحورا، وقربوا من شرحوب، وقصدت الإفرنج رفينة، واستعادوها

---

([1]) ابن الاثير.المصدر السابق.ص528

([2]) محمد كرد علي، خطط الشام، دار العلم للملايين، بيروت، ج1، 1969م، ص263.

([3]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 528.

([4]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 561.

من المسلمين، واجتمع المسلمون والإفرنج في دمشق، واشتد القتال بينهم وكان الفشل حليف المسلمين، ونهب الإفرنج كل ما لديهم من مال وذخائر[1].

وتوجد عوامل عدة أسهمت في صياغة الموقف الذي يبدو للوهلة الأولى سلبيًا، وإن كنا لا نرى دقة ذلك، حيث فرضت بعض الظروف الداخلية والخارجية هذا الموقف المتردي، أو على أقل تقدير قد ساهمت في صياغته وهذه العوامل هي:

1ـ ضعف العلاقة بين (طغتكين) و(ايلغازي) مع السلطان، وتحديهما له مما أدى إلى نفوره منهما، ومحاولته القضاء عليهما، في الوقت الذي عليهما أن يكونا على علاقة جيدة معه، لخدمة أغراضهما وأهدافهما النبيلة، التي لا نشك في صحتها.

2 ـ التعامل مع العدو الخارجي المتمثل في الإفرنج ـ الصليبيين على أنه عدو قابلٌ للمساومة والمهادنة، مما أجبر حُكام دمشق على أن يقعوا فريسة هذا الوهم، الذي أثبتت الأحداث عدم صحته.

3 ـ وجود أطماع كثيرة عند بعض قادة الجيوش، وتصرفهم خارج إرادة السلطان والحاكم، كما هو الحال عند (إسرائيل) الذي كانت أطماعه سببًا في سقوط مدينة حلب، خارج إطار الحكم العربي.

4 ـ ضعف الرابط القومي بين الإمارات والمدن العربية الإسلامية، وعدم تعاونها في طرد الغزو الإفرنجي، نتيجة للعلاقات المريبة وغير الحسنة فيما بينها، وكان ذلك واضحًا في حالة الاستنجاد الذي لم يجد قبولًا عند بعض الأمراء والحكام في بلاد الشام.

5 ـ السماح للإفرنج ـ الصليبيين بتقوية جيوشهم، وتعزيز قوتهم، عن طريق السماح لهم بإقامة مواثيق وعهود كان من الممكن الاستغناء عنها.

**2ـ الدور الإيجابي لمدينة دمشق:**

لم يقتصر دور مدينة دمشق على الدور السلبي بكل ما حمله من نتائج سلبية، تمخضت عنها جملة من الهزائم والانكسارات فقط، بل تعدى ذلك إلى الموقف الإيجابي، المتمثل في حركة الجهاد والمقاومة ضد الغزو الإفرنجي وقادته من الإفرنج ـ الصليبيين.

لقد كانت لدمشق وصاحبها (طغتكين) معارك وحروب عدة مع الإفرنج، حيث أدركت هذه المدينة أنه لا مفر من المقاومة والجهاد، ولا سيما بين (طغتكين) وبلدوين ملك القدس، وكان تبادل المواقع يتم أحيانًا لأحد الفريقين على الآخر، وكان صراعًا مستمرًا، مما حدا ببلدوين أن يبني حصنًا بينه وبين دمشق، إلا أن خوف (طغتكين) من عاقبة هذا الأمر وما يُحدثه من أضرار جعله يجمع عسكره لمحاربة قس من قساوسة الإفرنج، فسارع بلدوين لمناصرة هذا القمص، إلا أنه رفض ذلك واستغنى عن أية مساعدة، وأنه قادر فعلًا على مقارعة المسلمين، وتقدم (طغتكين) إلى الإفرنج "واقتتلوا واشتد القتال، فانهزم أميران من عسكر دمشق، فتبعهما طغتكين وقتلهما، وانهزم

---

([1]) محمد كرد علي، المرجع السابق، ص 276.

الإفرنج إلى حصنهم، فاحتموا به فقال طغتكين: من أحسن قتالهم وطلب مني أمرًا فعلته معه، ومن أتاني بحجر من حجارة الحصن أعطيته خمسة دنانير، فبذل الرجال نفوسهم، وصعدوا الحصن وخربوه"[1].

هذا الحصن مثل الجدار العازل الذي بناه الكيان الصهيوني في فلسطين في الوقت الحاضر، وما أحوجنا إلى إزالته، كما فعل (طغتكين)، كما أنه يثبت لنا رعب وخوف وجبن الإفرنج، وعدم قدرتهم على المقاومة، وكان من نتيجة ما أمر به (طغتكين) من حمل حجارة الحصن أن وفى" لهم بما وعدهم، وأمر بإلقاء الحجارة في الوادي، وأسروا مَن بالحصن، فأمر بهم فقتلوا كلهم، واستبقى الفرسان أسرى، وكان في مئتي فارس، ولم ينجح ممن كان في الحصن إلا القليل"[2].

إن هذا الموقف يشير إشارة صريحة إلى موقف دمشق الرافض لكل أشكال السيطرة والهيمنة الإفرنجية، حيث لم يكتف (طغتكين) بذلك، لا سيما بعد عودته إلى دمشق منصورًا "خرج منها إلى رفنية، وهو من حصن الشام، وقد تغلب عليه الإفرنج، وصاحبه ابن أخت صنجيل المقيم على حصار طرابلس، فحصره طغتكين وملكه، وقتل به خمس مئة رجل من الإفرنج"[3].

إن حاكم دمشق (طغتكين) كان أحد القادة الذين ساهموا وشاركوا في قتال الإفرنج، وتذكره المصادر التاريخية بكثير من التقدير والاحترام والإنصاف والعدل بعد وفاته عام (522هـ/ 1128 م): "كان عاقلًا خيرًا، كثير الغزوات والجهاد للإفرنج، حسن السيرة في رعيته مؤثرا العدل فيهم"[4] وكذلك "مات طغتكين صاحب دمشق يوم 12فبراير1128م، وكان لسنوات كثيرة سيد المدينة بكل ما في السيادة من معنى، فأكثر شخصيات المسلمين احترامًا في غربي سوريا"[5].

وهذه الوثائق تثبت أن مدينة دمشق كانت ولسنوات عدة مدينة مستقلة، ومُقاومة ومجاهدة لكل أشكال الغزو الإفرنجي، مما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن هذه المدينة قد كان لها دور فعال وإيجابي في الأحداث التي مرت على بلاد الشام، ولم تقف محدوديتها عند حدودها الجغرافية فقط، بل تعدت إلى كل المدن والقلاع والحصون في بلاد الشام، وما دورها هذا إلا استكمال لنهضتها من جديد، بعد الدور السلبي الذي قامت به، وعلى الرغم من الصعوبات التي واجهتها وكانت خارج قدراتها الذاتية، فإن المبادئ العامة في رفض المحتل هي التي انتصرت في النهاية.

ونحن إذًا نقتصر على هذه المحاولة لكسر الحصن وعلى سيرة حاكمها، فإن هذا الاختصار والتقليل دلالات كافية لإعطاء صورة واضحة عن جهاد هذه المدينة الإسلامية، تاركين لمن أراد البحث والمزيد في هذا الموضوع المجال واسعًا.

---

([1]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 482.
([2]) المصدر نفسه، ص 483.
([3]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 165.
([4]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 666.
أبو الفداء، المصدر السابق، ج2، ص 161.
([5]) رانسيمان، المرجع السابق، ج2، ص 209.

**المبحث الثالث : جهاد الإمارات المحلية ضد الغزو الإفرنجي (الصليبي)**

يُلاحظ على حركة الجهاد في هذه المرحلة الخطرة التي مرَت بها بلاد الشام ومصر وفلسطين، أنها حركة جهاد متميزة، فقد أفرزت محطات جديدة، سواء أكان ذلك على مستوى القادة، أم على مستوى التحرك والقتال، بل لا نبالغ كثيرًا إذا ما قلنا إنها مهدت الطريق إلى من جاء بعدها لتحقيق النصر، وخصوصًا في عهد زنكي، وقد ساعدت عدة عوامل على هذا التميز، وهي على النحو الآتي :

1 ـ على الرغم من حالات التفكك والتجزئة التي مرّ بها السلاجقة، بسبب الحروب والنازعات وخصوصًا بعد وفاة السلطان (محمد السلجوقي)، فإن ذلك كان عاملًا مساعدًا لكي يُوحّد باقي المسلمين جهودهم، دون الاعتماد على مساعدات السلاجقة الذين كانوا غارقين في مشاكلهم، وأزماتهم الداخلية وما أصاب جبهتهم الداخلية من تصدع؛ نتيجة للأطماع التي بدأت تأكل الجبهة السلجوقية.

و شكّل هذا التمزق السلجوقي حافزًا للأراتقة على وجه الخصوص، لتوحيد صفوفهم، واستعادة استقلالهم الذاتي، بعيدًا عن الحماية السلجوقية، لا سيما بعد ظهور بعض القادة والزعماء الأراتقة الذين كانوا على قدر كبير من الحكمة والشجاعة وحسن التصرف، مثل (ايلغازي بن أرتق).

وعانت الدولة السلجوقية مرة أخرى من جراء الفوضى والانقسام، مما منعها من القيام بعبء الجهاد.

2 ـ الفراغ السياسي الذي كانت تعاني منه السلطنة والخلافة الإسلامية؛ نتيجة لانصرافها إلى معالجة الفتن التي كانت تعاني منها؛ لذلك لم يعد لديها الفرصة للتفكير في شؤون الشام والجهاد المقدس ضد الإفرنج، مما أوجد فراغًا في هذه الناحية، وعمل الأمراء المحليون على سده والقيام بدورهم[1].

3 ـ تعرض المسلمون في بلاد الشام لأخطار القتل والنهب، ولم يعد في الإمكان انتظار جيوش جديدة، فاضطلع الأمراء المحليون بدورهم، وهنا جاءت مرحلة الجهاد الجديدة.

4 ـ هناك عامل آخر لا يقل خطورة في تشكيل الوعي الجهادي في هذه المرحلة، لا سيما عند الإمارات المحلية، ألا وهو ضعف الخلافة الإسلامية في بغداد، من جراء خروج صاحب الحلة العربي وطرحه الطاعة ومحاربته الخليفة (المسترشد بالله)، وهذا ما أدى إلى تبلور الفكرة الجديدة التي مفادها عدم الاعتماد على المساعدات الخارجية عند جهاد الإفرنج، لذلك بدأ الجهاد في هذه الفترة يأخذ طابعًا متميزًا، من حيث قدرته على إدارة دفة الصراع معتمدًا على سياسة الاكتفاء الذاتي، وبجهود فردية لبعض زعامات الأمارات.

تم تحقيق النصر على جيوش الإفرنج، دون طلب العون والاستنجاد من الخلافة الإسلامية في بغداد أو السلاجقة، لذلك يمكن أن نصنف الجهاد في هذه المرحلة بالخصائص الآتية:

1 ـ اتخذ الجهاد لأول مرة في هذه المرحلة صفة الجهاد، بمعنى أنه غدا نابعًا من داخل حدود الشام وأطراف بلاد الرافدين، ولم تعد الجيوش المنوط بها الجهاد تأتي من خلف الحدود، من هناك، من فارس، وأقاليم الشرق، كما حدث في المراحل السابقة .

---

([1]) محمد مرسي الشيخ، المرجع السابق، ص 262- ص 269.

2 ـ أحدث الجهاد في هذه المرحلة نقلة كبيرة في فكرة الحرب المقدسة، لما تتميز به دائمًا من روح الحماس والاندفاع في سبيل تحقيق النصر على الإفرنج.

3 ـ أحدث تمهيدًا مهمًا لقضية الوحدة تمثل في"خضوع أطراف العراق وشمال بلاد الشام لأمير واحد لأول مرة منذ عهد العقيليين، وعهد (تاج الدولة تتش)، بما يعنيه ذلك من التمهيد لوضع المنطقة في يد أمير واحد وهو ما حدث فعلًا في عهد (زنكي)" [1]، وكان ذلك مقدمة وتمهيد لقيام الجبهة المتحدة، وهي التي حدثت بصورة أوضح على عهد (زنكي).

4 ـ ظهور قادة وزعماء على قدر كبير من الوعي بطبيعة المرحلة، والمستجدات التاريخية التي حدثت فيها- ذلك تطلب جهدًا استثنائيًا منهم لتطوير الجهاد، والقيام بنقلة نوعية جديدة في حركة الجهاد الإسلامي، ومنهم (ايلغازي بن أرتق)، ثم جاء بعده (بلك ابن بهرام) ثم (البرسقي)، وهذا الشيء يعد "شيئًا جديدًا يجذب الانتباه، لأن (زنكي) لم يأتي إلا بضم المدن والحصون الواقعة ضمن نطاق هذه الجبهة العريضة، فجنى ثمرة ذلك كله، بإسقاط إمارة الرها اللاتينية، ووضع بداية النهاية للاستقرار الإفرنجي ذاته"[2].

كانت إمارة الشام تشهد أحداثًا متسارعة تستدعي منها مواجهة الغزو الإفرنجي ـ الصليبي، لا سيما بعد أن تدهورت أحوالها الاقتصادية، "ولم يعد بها من المؤن ما يكفي لمدة شهر، وبات أهلها في خوف شديد من الإفرنج، ولم يقبل هؤلاء الهدنة معهم إلا بشرط مقاسمتهم على أملاكهم بباب حلب"[3]، مما استدعى أهالي الشام إلى أن يقوموا بأنفسهم في إدارة شؤونهم الداخلية، وخصوصًا الأمراء المحليين الذين بدؤوا في الإعداد لمواجهة الغزو الإفرنجي، مثل (ايلغازي بن أرتق) الذي بدأ يجمع بين إمارته في ديار بكر شمال العراق وبين حلب في بلاد الشام، وهو أمر ترتبت عليه نتائج مهمة حيث "غدت إمارته الأرتقية في شمال العراق مركز إمدادات حربية وبشرية، ساعدت على تحقيق بعض الانتصارات على الإفرنج في ذلك الوقت، فقد كانت سابقة هامة استند إليها رواد الجهاد الديني من بعده، وغدت تقليدا جديدًا أفاد دعاة الجهاد، ولا سيما (زنكي) في قيادة حركة المقاومة ضد الإفرنج"[4].

كانت أولى محاولاته في الجهاد ضد إمارة أنطاكية التي كان يعاني منها أهل حلب، حيث عمل على جمع التركمان ولم شملهم، كما ضمَّ إليه بعض الأمراء المحليين كأسامة بن مبارك، بن شبل الكلابي، وطغان أرسلان بن المكر صاحب بدليس، وأوزان وقد "بلغ جيشه نحو عشرين ألف جندي"[5].

وبهذا العدد الكبير أغار(ايلغازي) على الرها، وأنزل بالإفرنج خسائر كبيرة، ثم عبر الفرات "وأغار على تل باشر قبل أن يزحف إلى بلاد الشام وأقام فيها أيامًا دون أن يقاتلها "[1]، ثم رحل إلى عزاز للاستيلاء عليها،

---

([1]) محمد مرسي الشيخ، المرجع السابق، ص261.
([2]) محمد الشيخ، المرجع السابق، ص 266.
([3]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 592.
([4]) محمد الشيخ، المرجع السابق.
([5]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 592.

ولكنه ما لبث أن ابتعد عنها وراح يتنقل في أعمال الروج "وهرب كثير من أهالي المواقع التابعة لأنطاكية، وأرسلوا إلى بلدوين الثاني ملك بيت المقدس، يطلبون منه نجدة سريعة، فخف الملك لنجدتهم"[2].

لقد عاثت هذه الجيوش في نواحي أنطاكية، واتخذ (ايلغازي) قنسرين قاعدة له ليشن منها هجماته على الإفرنج، وهذا ما دعا (روجر) الإفرنجي إلى طلب النجدة، والاستغاثة بالإفرنج في الرها وطرابلس وبيت المقدس، ونتيجة لغرور (روجر)، ولا سيما بعد انتصاره على جيش السلطان في تل دانيث عام (509هـ/ 1115م) استعجل الخروج من أنطاكية قبل أن تصله الإمدادات الإفرنجية، وكان كله جيشه مؤلفًا من700 فارس ونحو أربعة آلاف رجل [3]، لذلك اجتاز جسر الحديد، وعسكر في موضع قريب من شرمذا شمالي الأثارب بين حلب وأنطاكية، وهو موقع حصين بين جبلين، ليس له طريق إلا من ثلاث جهات[4]، أما (ايلغازي)، فقد حشد قواته، وانتظر مقدم (طغتكين) الذي تباطأ كثيرًا في قدومه، وقبل أن يقاتل ايلغازي الجيوش الإفرنجية جدّد على الأمراء والقادة الإخلاص في الجهاد، وأن "يصابروا في قتال العدو، فحلفوا على ذلك بنفوس راضية، ومن ثم ساروا تجاه المعسكر الإفرنجي"[5].

طلب (ايلغازي) من الخطباء أن يحثوا المجاهدين على القتال، وعندئذ وقف القاضي أبو الفضل الخشاب، وأخذ يحرض الناس على الجهاد والقتال "وخطب فيهم خطبة بليغة استنهض عزائمهم واسترهف همهم بين الصفين، فأبكى الناس وعظم في أعينهم"[6]، ونتيجة لهذه العوامل أوقع المسلمون بالإفرنج خسائر فادحة، وما لبث التركمان أن أخذوا في حصد الإفرنج بالسيوف والسهام"، وكانت السهام كالجراد ولكثرة ما وقع في الخيل من السهام عادت منهزمة وغلبت فرسانها، وطحنت الرجالة والأتباع والغلمان، وأنزلت سيوف المسلمين القتل الجماعي بالإفرنج في إبادة شبه تامة، حتى اشتهرت هذه الموقعة عن الإفرنج بساحة الدم"[7]، ويشير المؤرخ وليم الصوري إلى "أنه لم يفلت من الألوف الكثيرة التي تبعت سيدها من يروي سيرة القتال، وذلك بسبب ما ارتكبناه من الذنوب، على حين لم يلق مصرعه من العدو إلا عدد قليل"[8].

وهذا الانتصار الكبير الذي أحرزه المسلمون لم يأت بنتائج إيجابية، ولم يستفد منه (ايلغازي) كما يجب، رغم ما أصاب الإفرنج من رعب وذعر فقط، إضافة لمقتل (روجر)، كما أن "معظم قواتهم في الشمال طحنتها المعركة، حتى حاميات المدن والقلاع والحصون المحيطة التي كانت قد التحقت بالقوات الرئيسة لأنطاكية، والتي لقيت حتفها أيضًا"[9].

---

([1]) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج1، ص 404.
([2]) ابن العديم، زبدة حلب، ج2، ص195- ص 196.
([3]) رانسيمان، ج2، المرجع السابق، ص 163.
([4]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 593.
([5]) رانسيمان .المرجع السابق.ص167
([6]) ابن العديم، المرجع السابق، ص 188- ص 189.
([7]) رانسيمان، المرجع السابق، ص 180. فولفغانغ مولر فير، المرجع السابق، ص 16.
([8]) وليم الصوري، المصدر السابق، ج2، ص 352.
([9]) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج1، المرجع السابق، ص 405.

وأما نتائجه الإيجابية، فتمثلت فيما أحدثه هذا النصر من دوي هائل، بلغ أرجاء العالم الإسلامي، وتغنى به الشعراء وبقائده (ايلغازي)،الذي ما إن ارتاح قليلًا حتى انضم إليه (طغتكين) بقوات دمشق، فاتجها معًا نحو الأتارب وزردنا واستوليا عليهما، كما أرسلت فرق التركمان لتعيث في أراض أنطاكية وضياعها، بغرض السلب والنهب[1].

وعمل (بلدوين الثاني) - فى المقابل - على الدخول في أنطاكية، وتنظيم شؤونها خصوصًا بعد انصراف (ايلغازي) عن متابعة الإمارة، لذلك قام (بلدوين) باسترداد بعض القلاع والحصون من أيدي المسلمين، منها كفرطاب والبار والمعرة، مصرين وسرمين، وحاول الاستيلاء على زردنا، إلا أنه ارتد عنها إلى أنطاكية[2]، وهذا نذير بدخول الطرفين في حرب كبيرة، لكن ذلك لم يحدث، وانتهى الأمر بينهما بأحقية أنطاكية في أملاكها شرقي نهر العاصي، وما لبث (ايلغازي) أن عاد إلى ماردين، وأناب عنه بحلب ابنه (سليمان)[3].

لم يهتم (ايلغازي) كثيرًا بشؤون الشام، كما يذهب إلى ذلك المؤرخ (ابن القلانسي)، ويرجح ذلك لسببين أولهما: تأييده لدبيس بن صدفة، الذي قدم إليه بماردين هاربًا من الخليفة (المسترشد)، وارتبط به بعلاقة مصاهرة إذ تزوج ابنته، ومن ثم غدت قضية خروج دبيس، ومناواته الخلافة تشغل حيزًا من تفكير (ايلغازي)[4] وثانيهما: ما حدث من فتنة الكرج وخروجهم من أطراف بلاد الإسلام، والإغارة عليها واستنجاد الأمير السلجوقي (طغرل محمد) صاحب أران ونفجوان، فلما خرج وبصحبته دبيس لحربهم، تعرضوا جميعًا لهزيمة ساحقة على أيدي الكرج، وسقطت تفليس في يد الملك (داود) زعيم الكرج، وعاد ايلغازي ودبيس إلى ماردين[5] ولم يحدث بعد ذلك شيء يذكر، سوى عصيان ابن ايلغازي سليمان، وعقده صلحًا مع الإفرنج، ولكنه عاقب ابنه، وتخلص من الذين ساعدوه على ذلك حتى وفاته (516هـ/1122م) لتنتهي صفحة الجهاد التي قام بها، وليكمل مسيرته ابن أخيه (بلك بن بهرام).

عمل (بلك) على حصار الرها لكنه اقتنع بعدم جدوى هذا الحصار لحصانة هذه المدينة، وحاول كل من (جوسلين وجاليران) إلى الإيقاع به، ولكنه (كمن بقواته في مكان مناسب، فلما وصلوا أمصرهم أصحاب بلك بوابل من النشاب فلم يفلت منهم أحد ووقع جوسلين نفسه في الأسر، وكثير من رجاله وجاليران أيضًا وطلب بلك من جوسلين تسليم الرها مقابل إطلاق سراحهم، ولكنه رفض فحمل أسيرًا إلى قلعة خرتبرت[6].

كل ذلك حدث دون تغير في وصاية الرها وأنطاكية فقد بقيت بيد (بلدوين الثاني) ملك بيت المقدس، الذي جهز حملة كبيرة لتخليص جوسلين، وبعد مسيرة طويلة استولى فيها على البيرة شرق حلب، والتفاوض مع أمير حلب (سليمان بن عبد الجبار ابن ارتق ) استمر سيره لفك أسر جوسلين، فما كاد يعبر نهر سنجه، وهو أحد روافد

---

([1]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 593. أبو الفداء، المصدر السابق، ص 151.
([2]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 593.
([3]) عماد الدين خليل، المرجع السابق، ص 254.
([4]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 211.
([5]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 602.
([6]) المصدر نفسه، ص 619.

الفرات، حتى انقض عليه بلك، قرب قنطرة سنجه، وأنزل به هزيمة قاسية (517هـ/1123م)، وقع على إثرها بلدوين أسيرًا في يد بلك، فلم يتوان في حمله إلى قلعة خرتبرت ليسحب بصحبة جوسلين[1].

كان بإمكان هذا النصر الذي حققه المسلمون أن يكون ذا شأن كبير، إذا استطاعوا الاستفادة منه والقضاء نهائيًا على الإفرنج، لكن ما حدث لقادة الجهاد الإسلامي من معوقات جعلت الإفرنج يعيدون تنظيم صفوفهم، لا سيما في الإمارات الخالية من الجيش المسلم، لذلك عمل بعض الأوصياء على قتال المسلمين، ولكن النصر وهو الذي أمسى يحمل راية الجهاد الديني إلى انتزاع حلب من يد أميرها المتخاذل في التصدي للإفرنج، وربما كان يفكر أيضًا في توحيد جبهة الأراتقة من جديد [2].

لذلك عمل على مهاجمة ممتلكات أنطاكية، لكن لما استولى الإفرنج على قلعة خرتبرت جعله يعزف عن ذلك بعد أن تمكن جوسلين من الهرب، واستيلاء بلدوين الثاني على القلعة بمساعدة الأرمن، ولكن بلك نجح في استعادة القلعة من يد بلدوين قبل أن يتمكن جوسلين من العودة لتخليصه، وأمر بنقله إلى حران ليسحب هناك بعيدًا عن متناول الإفرنج[3].

لم يستسلم جوسلين حتى بعد عجزه عن تخليص بلدوين الثاني، فعمل على الانتقام من المسلمين بالإغارة والسلب والنهب والقتل، والعبث بقبور الأموات في الوقت الذي لم ينتهز بلك الفرصة ويعمل على سحق القوات الإفرنجية[4]، حيث انتهت أحداث منبج وخروج أميرها (حسان البعلبكي)عن طاعته، لذا فرض الحصار على هذا الحصن ولما حاول الإفرنج ـ الصليبيون إزاحته عنه، تفوق عليهم وطردهم واستأنف حصاره ثانية، غير أنه تقرَب ذات يوم من الأسوار ليختار موضعًا ينصب فيه المنجنيق "فأصابه سهم طائش وقع في ترقوته اليسرى فانتزعه، وقال هذا قتل للمسلمين كلهم"[5] وكان تعبيره الأخير أصدق تعبير، لأن مقتله جاء خسارة كبيرة للمسلمين، ولقضية الجهاد الإسلامي حيث عانى الأراتقة بعده من عوامل الضعف والانحلال، ووقعت حلب في يد أمير أرتقي آخر هو أحد أبناء ايلغازي، ويدعى (تمرتاش) لكنه لم يكن له من الهمة ما يستطيع أن يسير دفة الأمور فيها بنجاح في هذه الفترة الحرجة، خاصة أنها غدت مطمعًا للأمير (دبيس بن صدفة) الذي فر أمام جيوش السلطان والخليفة هذه المرة أيضًا[6]. حيث نزح إلى الشام، واتصل بالإفرنج وأغراهم بالعمل معه ضد حلب وحاول أن يتقرب إلى الإفرنج، لكنهم لم يفوا بوعودهم حيث ظلت حلب مهددة من جانبهم، لذلك آثر (تمرتاش) ترك حلب في حراسة أهلها، وحامية من الفرسان، والعودة إلى ماردين مترقبًا وفاة أخيه (سليمان)،

---

([1]) محمد مرسي الشيخ، المرجع السابق، ص 283.
([2]) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية ج1، المرجع السابق، ص 405-406.
([3]) محمد مرسي الشيخ، المرجع السابق، ص 284.
([4]) سعيد عبد الفتاح عاشور، المرجع السابق، ص 411.
([5]) ابن العديم، المصدر السابق، ص 219.
([6]) أبو الفداء، المصدر السابق، ص 157.

ليرثه في ممتلكاته هناك، بالرغم من أن الاستيلاء على حلب غدا عصب السياسة الإفرنجية في شمال الشام، وخاصة بعد ما أصابوه من النجاح في الاستيلاء على صور[1].

لقد كانت حلب هدفًا لأطماع بلدوين الثاني، حيث حاصرها حصارًا شديدًا عام (518هـ/1124م)، مما جعل أهلها يستغيثون بأمير الموصل (آقسنقر البرسقي) الذي رحب بذلك، ووجد فيها فرصة لاستئناف حركة الجهاد من جديد، ويعتبر حصار الإفرنج ـ الصليبيين لحلب هذه المرة أول حصار منظم للمدينة، وأطول حصار حتى ذلك الوقت، كما يعد أيضًا نقطة تحول في حركة الجهاد الإسلامي.

لقد استعان البرسقي بطغتكين في رحلته إلى دمشق، غير أن طوائف التركمان التي استعان بها طغتكين استطاعوا أن يهاجموا المعسكر الإفرنجي، في غياب فرسانه، ونهبوه وقتلوا من صادفهم فيه[2]. لذلك عاد بلدوين إلى بيت المقدس قبل أن يزحف إلى الشمال ثانية.

كما استعان به أمير رفنية (520هـ/1126م) بسبب حصار بونز أمير طرابلس وبلدوين الثاني له، ولكنه وصلها بعد أن سقطت في يد الإفرنج، و"بعد حصار استمر ثمانية عشر يومًا وبوقوع هذه القلعة الحصينة في أيدي الإفرنج، أصبح الطريق بين أنطاكية وبيت المقدس آمنًا"[3] لكن البرسقي لم يرغب في الرجوع خالي الوفاض، لذا قرر الاستفادة من الأسطول المصري للهجوم على الأتارب خاصة بعد انشغال الإفرنج، لذلك سارع بلدوين وبصحبته أمراء الإفرنج لمواجهة البرسقي عند الأتارب، لكنه عدل عن ذلك، ورغب في عقد هدنة مع البرسقي، فرحب الأخير بهذا العرض الذي يجنبه كثيرًا من العناء، ووافق على عقد الهدنة، والاحتفاظ بالوضع الراهن في شمال الشام ثم عاد إلى الموصل.

ودبر الباطنيون له مؤامرة دفع حياته ثمنًا لها في نفس اليوم الذي وصل فيه الموصل، وبذلك خسرت جبهة الجهاد والمقاومة مرة أخرى شخصية شاركت في قيادة الجهاد الإسلامي ضد الغزو والاحتلال الإفرنجي ـ الصليبي لبلاد الشام .

وأخيرًا، نستطيع القول إن تطور فكرة الجهاد الإسلامي كانت أن تحرز نتائج أفضل؛ إذا تنبه القائمون بها إلى كل ما يكفل لهم الغلبة، أو أنهم أخلصوا النية تمامًا وقصدوا وجه الجهاد الحق .

---

([1]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 639.
([2]) ابن القلانسي المصدر السابق، ص 213.
([3]) أبو الفداء المصدر السابق، 160.

## الفصل الرابع

## جهاد الزنكيين ضد الغزو الإفرنجي ـ الصليبي

**المبحث الأول: جهاد الأمير عماد الدين زنكي ضد الإفرنج (الصليبيين)**

**أولًا - توحيد الموصل وحلب على أيدي الزنكيين (521-538 هـ)(1127-1145م)**

**ثانيًا - فتح الرها (539 هـ/ 1144م)**

**المبحث الثاني: جهاد السلطان نور الدين محمود زنكي**

**أولًا- تحرير بلاد الشام**

**ثانيًا- إنهاء الخلافة الفاطمية وتوحيد مصر والشام في مواجهة الغزو الصليبي (595-539 هـ) (1164-1176م)**

**المبحث الأول : جهاد الأمير عماد الدين زنكي [1] ضد الإفرنج (الصليبيين)**

وجدتُ الكثير من الأحداث المهمة التي جرت قبيل فتح الرها، والتي ساهمت بعد ذلك في فتحها، ولا بد لنا قبل الدخول في أسباب وعوامل الفتح التطرق إلى هذه الأحداث.

ومن هذه الأحداث: صمود بعض الإمارات العربية الإسلامية في مواجهة الغزو الإفرنجي الصليبي، ومثال على ذلك الموصل، حيث ظلت هذه الإمارة تجاهد ضد الإفرنج، وتقف موقف العداء ضد محاولاتهم في بلاد الشام، وذلك ناتج عن وعيها بمدى خطورة الزحف الإفرنجي على الإسلام والمسلمين.

**أولًا: توحيد الموصل وحلب على أيدي الزنكيين**

كان لظهور (عماد الدين زنكي) نقلة تحول في مسيرة الجهاد الإسلامي في بلاد الشام، فما إن تولى حكم البلاد حتى استطاع أن يحقق الانتصارات لصالح المسلمين، وأثبت للخليفة المسترشد بالله [2] والسلطان ملكشاه أن له القدرة في مواصلة مسيرة والده أق سنقر [3].

وقد أسهم في تولية (زنكي) الحكم كل من: القاضي بهاء الدين بن الحسن الشهزوري، وصلاح الدين محمد الياغسياني، إذ أقنعا السلطان بكفاءته ومقدرته على مواجهة الإفرنج [4].

وأمام التحديات التي يمكن أن يجابهها هذا القائد، قام بإجراءات عدة لضمان استمرار تحقيق الانتصارات على الإفرنج، لذلك عمل جاهدًا على توحيد الإمارات الصغيرة المتناثرة من حوله تحت لواء واحد، ومن ثمّ تكوين جبهة إسلامية متماسكة لمواجهة الإفرنج، يكون بمقدورها طردهم من الأراضي الشامية.

لقد كان (عماد الدين زنكي) يعي حقيقة تلك الإمارات المتنازعة فيما بينها، والتي لا تقل خطرًا عن خطر الإفرنج المتنامي والمتسارع بوتيرة واحدة، وكان لا بد له بعد أن تم له الاستقرار الكامل في الموصل أن يصرف

---

([1]) أبو الجود عماد الدين زنكي أق سنقر بن عبد الله الملقب بالملك المنصور، المعروف والده بالحاجب، ينظر ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، ج 2، (د. ت) ص 327.

([2]) المسترشد بالله أبو منصور بن المستظهر بالله ولد عام (485هـ/1092م)، بويع له بالخلافة عند موت أبيه عام (521هـ/ 1118م)، كان ذا همة عالية وشهامة زائدة وإقدام ورأى وهيبة شديدة، ينظر العماد الأصبهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق محمد بهجة الأثري، مطبعة العلمي العراقي، ج 1، 1955م، ص 26. جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار التعاون مكة المكرمة، تحقيق لجنة من الأدباء، 1935م، ص 431.

([3]) أق سنقر أبو سعيد الملقب بقسيم الدولة والمعروف بالحاجب، وكان من أصحاب السلطان ملكشاه الأول، وقيل إنه كان صديقه ومن أخص أصدقائه ومن أقوى الدلائل على المكانة التي حظي بها أق سنقر عند السلطان منحه لقب قسيم الدولة بمعنى الشريك، وكانت الألقاب في تلك الآونة لا تعطى إلا لمستحقيها وتقلد أق سنقر العديد من المهام وتسلم حكم حلب وأعمالها، وقد سيرها لذلك عقب وفاته، اهتم السلطان ملكشاه بابنه الوحيد عماد الدين زنكي، المزيد من التفاصيل ينظر ابن خلكان المصدر السابق، ج 1، ص 241.
ابن العباس القرماني، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، عالم الكتب بيروت، (د. ت)، ص 679.
الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر (د. ت) ص 25.
عماد الدين خليل، عماد الدين زنكي، الدار العلمية بيروت، 1971م، ص 31.

([4])- جمال محمد سالم، المرجع السابق، ص 84.

جهده إلى ضم الإمارات العربية الأخرى، لا سيما في الجزيرة الفراتية وبلاد الشام، وتوحيدها مع إماراته في الموصل لذلك ضم عام (521 هـ/ 1127م) البوازيج [1].

واتخذ منها قاعدة له لحماية قواته من الخلف ولحماية ظهره ضد جاولي [2] في حالة تصديه له لأنه كان حاكمًا للموصل، واتجه (زنكي) بعد ذلك إلى جزيرة ابن عمر، التي تعد من الجزر ذات الأهمية العسكرية والاقتصادية والاستراتيجية، "وسار فبدأ بالبوازيج ليملكها ويتقوى بها ويجعلها ظهره، ولما فرغ من أمر الموصل سار عنها إلى جزيرة ابن عمر" [3].

لم تقف تطلعات (زنكي) عند حدود هذه الأماكن فقط، وخصوصًا بعد أن استقرت الأمور فيها، فقد سعى جاهدًا لضم حلب نظرًا لمكانتها وأهميتها لأي قوة عسكرية وسياسية تسعى لمجابهة الإفرنج، بفضل ما تتمتع به من حصانة عسكرية، وإمكانات اقتصادية [4].

وساعد الوضع السياسي المتردي لإمارة حلب في إحداث فوضى عارمة، شملت جميع أرجاء الإمارة، لا سيما بعد وفاة أتابكها (عز الدين مسعود) وفي عام (521هـ/ 1127م) استأثر نائبها بإدارة شؤونها، الأمر الذي أدى إلى سخط الآخرين فتوجه صاحب قلعة جعبر [5] المجاورة لحلب إلى (زنكي) في الموصل، لإنقاذ الموقف المتردي في حلب، فما كان من (زنكي) إلى أرسل حاجبه الياغسياني لإدارة أمورها، وتمهيد الطريق له لدخولها، ثم غادر الموصل متوجهًا إليها وفي طريقه ضم بزاغه [6] ومنبج [7] وما إن وصل مشارف المدينة (522هـ/ 1128م) حتى خرج أهالي المدينة لاستقباله على أمل أن يخلصهم من حالة الفوضى [8].

ويبدو أن حالة الظلم والجور التي عانى منها أهالي المنطقة قد أسهمت في عملية تخليص حلب من وضعها المتردي، وما استقبال أهالي حلب (لزنكي) إلا تحقيقًا لأمل طالما راوده، وهو أن يكون هذا الفتح بداية عهد جديد يسوده الأمن والهدوء.

---

([1]) البوازيج، بلدة قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب في دجلة، ويقال لها بوازيج الملك، وذكرت في الأخبار والفتوح وهي الآن من أعمال الموصل ينسب إليها جماعة من العلماء، ينظر الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 503.

([2]) جاولي سقاوة من فرسان السلطان بركياروف السلجوقي وأخيه السلطان أحمد، الذي ولاه الموصل عام (500 هـ/ 1106م)، ينظر ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، الفهارس، ص 208.

([3]) المصدر نفسه، ج9، ص 252.

([4]) صدر الدين الحسيني، المصدر السابق، ص 196.

([5]) قلعة جعبر قلعة حصينة بين الرقة وبانياس على الفرات من الجانب الشمالي في بر الجزيرة مقابل صفين، وهي على صخرة لا ترام، ينظر أبو الفداء، تقويم البلدان، المصدر السابق، ص 276.

([6]) بزاغة هي بلدة من أعمال حلب في وادي بطنان بين ومنبج وحلب وفيها عيون ومياه جارية وأسواق حسنة، وقد خرج منها بعض أهل الأدب، ينظر الحموي، المصدر السابق، ج1، ص 409.

([7]) منبج وهي بلد قديم أول من بناها كسرى وهي مدينة كبيرة واسعة الخيرات كثيرة الأرزاق واسعة في مضاء من الأرض عليها سور مبني بالحجارة محكم، ينظر الحموي المصدر السابق، ج5، ص 205 – 206.
ابن الشحنة، المصدر السابق، ص 174

([8]) العظيمي، تاريخ العظيمي، باريس، ج2، 1938م، ص 678.
تيودور بيشوف، تحف الأنباء في تاريخ حلب الشهباء، تحقيق، شوقي شعث، فالح بكور، دمشق، ط2، 1992م، 293.

كانت القلاع الكردية المجاورة للبلاد من جهة الشمال تشكل خطرًا مؤكدًا لإمارة (زنكي)، لذلك اتجه عام (528هـ/ 1134م) واستولى على قلاع الأكراد الحميرية منها شوش [1] والعقر [2]، ومن ثم استولى على بقية القلاع الهكارية وكواش [3]، ولم تقف طموحات (زنكي) عند هذا الحد فقط، بل اتجه صوب الإمارات المحلية، وبالأخص الإمارات الارتقية في منطقة ديار بكر لأهمية موقعها [4]، وبعد ذلك حاول (زنكي) ضم دمشق، لذلك أخذ يراسل أهلها ويتفاوض معهم لتسليمه المدينة إلا أن محاولاته باءت بالفشل، ويبدو أنه كان لحاكمها (معين الدين أنر) دور في ذلك، لأنه فرض سيطرته على دمشق كلها، فلم يستطع أهلها طلب النجدة من (زنكي) خوفًا منه.

وفي عام (534هـ/ 1139م) استطاع أن يخضع بعلبك [5] وبعد إخضاعها حاول مجددًا ضم دمشق، إلا أن محاولته جاءت عكسية النتائج بسبب استعانة (معين الدين أنر) بالإفرنج [6].

بذلك تحققت الوحدة بين الموصل وحلب وتحصل (عماد الدين زنكي) على موقع مهم، لمجابهة خطرهم، وكان لتحالف الدمشقيين معهم إعاقة لجهود (زنكي) لتوحيد بلاد الشام، وهذا ما يفسر خوف حاكم دمشق من (زنكي) لأنه كان يخشى أن تؤخذ إمارته منه، لذلك رأى في الإفرنج خير عون له للوقوف ضده، وعلى أي حال ضم زنكي ما يمكن ضمه من الإمارات المتنازعة، ووحدها لكي ينصرف للشطر الثاني من هدفه ألا وهو طرد الفرنجة من الأراضي الشامية.

بدأ (عماد الدين زنكي) مسيرة الجهاد فاختار أول المعاقل الإفرنجية لتحقيق انتصاراته، "فحاصر قلعة بعرين [7] وهي للإفرنج (الصليبيين) تقارب من أمنع المعاقل الإفرنج وأحصنها" [8].

كان (زنكي) ينوي مهاجمتهم في أمنع حصونهم، حتى يثير الرعب في نفوسهم، ويدركوا حقيقة القوى الإسلامية، وتحقق له ما أراد، الأمر الذي دفع بالإفرنج إلى طلب الإغاثة من البيزنطيين وأمراء الإفرنج ببلاد الشام، "فحاصرهم (زنكي) فيه، ومنع عنهم كل شيء، حتى الأخبار، فكان من به منهم لا يعلم شيئًا من أخبار بلادهم، ضبط الطرق وفرض هيبته على جنده، ثم إن القساوسة والرهبان دخلوا بلاد الروم وبلاد الفرنج وما

---

([1]) شوش قلعة عظيمة عالية جدًا قرب عقر الحميرية من أعمال الموصل، ينظر ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج3، ص 372.

([2]) العقر من قرى الرملة نسب إليها أبو جعفر محمد بن احمد إبراهيم العقري الرملي، ينظر، المصدر نفسه، ج4، ص137.

([3]) ابن العديم، المصدر السابق، ج2، ص447. قاضي بن شهبه، الكواكب الذرية في السيرة النورية، تاريخ السلطان نور الدين زنكي، تحقيق، محمود زايد، دار الكتاب الجديد بيروت، 1971م، ص 114.

([4]) عماد الدين خليل، الإمارات الارتقية، المرجع السابق، ص113.

([5]) بعلبك مدينة قديمة البناء شمالي دمشق، يقال إنها من بناء سليمان بن داوود عليه السلام، بناها قلعة حصينة مرجله على وجه الأرض مثل قلعة دمشق، يستدير بها سور منيع عظيم البناء بالحجارة، ينظر، ابن العمري، المصدر السابق، ص 528

([6]) رشيد الجميلي، دولة الموصل بعد عماد الدين زنكي 541 - 631 هـ/ دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، 1970م، ص51، المزيد من التفاصيل عن ضم زنكي لهذه الإمارات، يراجع بن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص 286 وبعدها. ابن العديم، المصدر السابق، ج2، ص447، وما بعدها.عماد الدين خليل، عماد الدين زنكي، المرجع السابق، ص69 وما بعدها. الإمارات الأرتقية، ص113، وما بعدها.

([7]) بعرين بلد بين حمص والساحل وتلفظ بها عامة الناس هكذا وهو خطا والصواب أنها بارين، ينظر، ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج، ص320.

([8]) ابن الأثير الكامل، المصدر السابق، ص310. ابن العديم، المصدر السابق، ص451. قاضي بن شهبه، المصدر السابق، ص 111.

ولاها من بلاد النصرانية مستفزين المسلمين، وأعلموهم أن زنكي أخذ قلعة بعرين ومن فيها من الفرنج، وملك جميع بلادهم في أسرع وقت" [1].

وفي هذا الشأن يتفق (ابن الأثير مع ابن القلانسي) في أن (زنكي) عام (531هـ/ 1136م) "نزل على الحصن المعروف ببعرين لينزعه من أيدي الفرنج، فلما عرفوا ذاك تجمعوا ونزلوا قريبًا لحمايته ومعونة من فيه منهم، فحين عرف عماد الدين خبرهم كمن لهم كمينًا" [2].

زاد (زنكي) في تضييق الحصار بل وعزل الحصن عن العالم الخارجي الأمر الذي أدى إلى تناقص الميرة والذخيرة فيه، "فحينئذٍ اجتمعت النصرانية وساروا على الصعب والذلول، وقصروا الشام مع ملك الروم، وأما زنكي فإنه جد في قتال الفرنج، فصروا وقلت عليهم الذخيرة، فلما قلت الذخيرة أكلوا دوابهم" [3].

يتبين مما سبق مدى قوة الحصار الذي فرضه (زنكي) على الإفرنج، لدرجة جعلتهم يفقدون أمل خروجهم لجلب الإمدادات لمواصلة تصديهم للحصار، كما تبين أن الموازين انقلبت إن صح التعبير لصالح المسلمين، حيث بدأت المواجهات ضد الخطر الصليبي تأخذ طابعًا جهاديًا لدى كل المسلمين، فتخلوا عن النزاعات والانقسامات الداخلية التي كانت سائدة بينهم، ولعل ذلك جاء نتيجة للجهود الكبيرة التي بذلها (زنكي) بشأن توحيد الإمارات المحلية والقوى الإسلامية، وجعلها صفًا واحدًا، لتسهل عليه بعد ذلك عملية الجهاد ضد الإفرنج ـ الصليبيين.

كما أن النص السابق يبين جانبًا اقتصاديًا مؤثرًا ويتمثل في حالة التردي والجوع التي مرت بها البلاد نتيجة لنقص المؤن داخل المدينة، حتى أدت بهم إلى أكل دوابهم.

ويعترف رانسيمان بقوة الحصار وقوة (زنكي)، فيؤكد حقيقة الحالة التي وصل إليها الإفرنج (الصليبيون) داخل الحصن: "كان يأس الملك فولك قد أخذ في التزايد في قلعة بعرين، إذ انقطعت عنه أخبار العالم الخارجي، وأخذ تموينه يتناقص، وزنكي يستخدم آلات المنجنيق العشر ليل نهار" [4].

ولسوء الأحوال الاقتصادية والنفسية التي عاشها الإفرنج (الصليبيون) داخل الحصن، وفرض (زنكي) سيطرته عليه من الخارج، لم يبق أمامهم سوى الاستسلام وطلب الأمان، فأجابهم (زنكي) على ذلك قبل وصول الإمدادات لهم "وبذلك اقتضت الحال أن أمّنهم وعاهدهم على ما اقترحه عليهم من طاعته، وقرر عليهم خمسين ألف دينار يحملونها إليه وأطلقهم، وتسلم الحصن منهم وعاد من كان اجتمع لنصرتهم" [5].

---

([1]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 310- 311.
([2]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 258.
([3]) ابن الأثير المصدر السابق، ص311.ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 259. شهاب الدين محمد أبو شامة، الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق، إبراهيم، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1971م، ص 34.
([4])- رانسيمان، المرجع السابق، ص 236.
([5]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 259. أبو شامة، المصدر السابق، ص 34. عماد الدين خليل، عماد الدين زنكي، المرجع السابق، ص 143.

وعند النظر فيما كتبه (ستيفن رانسيمان) نجد أن دراسته تميزت في تاريخ الحروب الصليبية بأنّه شرح شرحًا مطولًا، وذكر تفاصيل دقيقة لها، وعلى الرغم من أن دراسته تمثل وجهة نظر غربية للحروب الصليبية، فإنها قد أضافت بُعدًا جديدًا ومعلومات قيّمة في هذا الشأن، فمثلًا يذكر أحداثًا لم ترد في المصادر العربية كابن الأثير وابن القلانسي منها قوله: "وأخيرًا بعث فولك رسولًا إلى زنكي يسأله عن شروطه، طلب مجرد تسليم القلعة، وبإمكان الملك الانصراف مع كل رجاله في حرية، وفضلًا عن ذلك سوف يطلق سراح الفرسان البارزين المأسورين في المعركة، بمن فيهم كونت طرابلس، دون أية فدية، فقبل فولك في الحال، وحافظ زنكي على كلمته، وجيء بالملك فولك وحرسه الخاص أمام زنكي الذي عاملهم بكل مظاهر التشريف، وأهدى الملك رداءً فاخرًا وسمح لهم باصطحاب أخدانهم، وساروا في طريقهم آمنين" [1].

إن الانتصارات الكثيرة التي حققها (زنكي) أوضحت للإفرنج (الصليبيين) مدى قوته ومقدرته، وأنهم غير قادرين على دحره، لذلك سارعوا إلى طلب الأمان، وتسليم الحصن ودفع غرامة مالية، مقابل ذلك، لا سيما أنهم على دراية كاملة بأنهم أمام خصم يحترم الوعود والمواثيق والأسرى، وهذا يدل على تسامح (زنكي) وسياسته التي عرفت بالعدل، وبينت تلك الانتصارات حالة الضعف التي وصلها الإفرنج، والاعتراف من قبلهم بتجدد القوة الإسلامية بقيادة (عماد الدين زنكي)؛ فإنه لم ينقض بوعوده معهم فبمجرد طلبهم للأمان أعطاهم إياه، وأخذ الحصن دون أي صعوبة تذكر.

وكان لفتح حصن بعرين صداه على العالم الإسلامي ـ الإفرنجي، فخلد شعراء المسلمين هذا النصر، وتغنوا به ومجّدوه، وبذلك كان لهم دورٌ كبيرٌ في حركة الجهاد، وخير من مجّد هذا النصر ابن القيسراني [2]، قائلًا:

حِذَارْ منا وَأَنْ يَنْفَعَ ٱلْحَذْرُ وَهِيْ فْي ٱلّصَوْارِم لاْ تُبْقِيْ وَلاْ تَذُرْ

وَأَيْنَ يَنَجوْ مُلْوْكُ ٱلْشْركِ مِنْ مَلِك مِنْ خَبْله ٱلْنّصْر لاْ بَلْ جُنْده ٱلْقْدرِ

سلُوَاْ سُيْوفَا كَأَغْمَاْدِ ٱلْسّيُوْفِ بِهَاْ صَاْلُوَاْ فَمَاْ غَمَدُوَاْ نَصْلًا وَلاْ شهروَا

كما كان لجمال الدين الأصفهاني وزير زنكي دور كبير في مدح النجاح الذي تحقق للمسلمين فقال:

وَإِذْاْ ٱلْوُفْودُ إِلَى ٱلْمُلْوْكِ تَبَاَدَرَتْ فَعَلَى جَمْاَلَ ٱلْدّيْن وَفْدُ مُحَاَمِدِي

بأصْدَاْهُمْ إِلْيكَ أَصَاْرَنِيْ وَعَزْيَمة تَقْفُوْ رِيْاَضَة قَاْئد

إِنّا رْوَضَةُ تَزْهَرُ بِكُلّ غَرِيْبَةٍ أَفَرَاْئَدِي مِنْ لَم يَقُرُ بِفَرَاْئِدي

وقد قال ابن الطرابلسي [3] بهذا النصر شعرًا مطولًا جاء فيه:

فَدَتْكَ ٱلْمُلْوكُ وَأَيّاْمُهَاْ وَدَاْنَ لِنّفَضْلكَ إِبْرَاْمُهَاْ

---

([1]) رانسيمان، المرجع السابق، ص236.

([2]) أبو عبد الله محمد بن نصر بن صغير القيسراني نسبة الى قيسارية ،و كان من الشعراء المجيدين متضلعاً بالأدب و علم الهيئة ولد عام 478/بعكا و توفي عام 548 بدمشق و دفن بمقبرة اب الفراديس ، ابن خالكان المصدر السابق ،ج4 ، ص82-83 .

([3]) ابن منير الطرابلسي، أبو الحسين أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسي، الملقب مهذب الدين عين الزمان الشاعر المشهور، له ديوان شعر وكان أبوه ينشر الأشعار، ويغني في أسواق طرابلس، ونشا أبو الحسين وحفظ القرآن الكريم، وتعلم اللغة والأدب، ابن خلكان، المصدر السابق، ج1، ص64.

وَزَلّتْ لِعَيْنَكَ أَقْدَامُهَاْ وَزَالَ لِبَطْشِكَ أَقْدَامُـــــهـاْ

وَلَوْ لَمْ تَسْلَمْ إِلَيْكَ الْقُلُوبُ هَوَاْهَا لَمَاْ صَلَحَ إِسْلاَمُهَـاْ [1]

وقد أدرك الإفرنج أن زنكي لن يقف جهاده عند بعرين فقط، بل سيستمر لأخذ بقية الأراضي الشامية منهم [2]. فلم يكتف (عماد الدين زنكي) بذلك، بل أخذ على عاتقه مسؤولية الجهاد ضدهم، وطردهم من الأراضي الشامية وتحريرها من براثينهم، فأخذ يستعد لمواجهتهم.

وبذلك واصل جهاده، وفتح عدة حصون للإفرنج، منها: المعرة وكفر طاب، "وكان زنكي في مدة مقامه عليهم قد فتح المعرة وكفر طاب من الإفرنج فكان أهلها وأهل سائر الولايات التي بين حلب وحماة مع أهل بعرين، وعُمّرت البلاد، وعظم دخانها، ومن أحسن الأعمال ما عمله زنكي مع أهل المعرة، فإن الفرنج لما ملكوا المعرة كانوا قد أخذوا أموالهم وأملاكهم، فلما فتحها زنكي حضر من بقي من أهلها، ومعهم أعقاب من هلك وطلبوا أملاكهم" [3].

يتبين من النص السابق مدى قوة (زنكي) وعدله، فقد استطاع التغلب على الإفرنج (الصليبيين) في عدة مواقع، واستطاع أن يفتح الكثير من الحصون التي كانت بيدهم، وأعادها للمسلمين، ولم يكتف بذلك بل أعاد الكثير من الأملاك لأصحابها، نتيجة لاتباعه سياسة العدل.

لم يستكن الإفرنج لذلك، بل عمدوا في عام 532هـ / 1137م) إلى مقاومة (عماد الدين زنكي)، ومن معه بعد وصول قواتهم الإفرنجية المساندة "وصل إلى الشام، وخافه الناس خوفًا عظيمًا، وقصدوا بزاغه فحصروها، فمضى جماعة من أعيان حلب إلي أتابك زنكي، فاستغاثوا به واستنصروه" [4].

وقد تزايدت وتيرة المساعدات من الغرب الأوروبي ومدت للإفرنج بالجنود، وخصوصًا بعد تزايد عزم (عماد الدين زنكي) على الجهاد في الأراضي الشامية، وأيقن الإفرنج أن طموحات هذا القائد لن تقف عند حدود حصن بعرين فقط، بل سوف تطال جميع الإفرنج في الأراضي الشامية.

نتيجة لهذه المساعدات استطاع الإفرنج امتلاك بزاغه، وغدروا بأهلها على الرغم من مساعدات (زنكي) لهم "فسير معهم كثيرًا من العساكر، فدخلوا حلب ليمنعوها من الروم إن حصروها، ثم إن ملك الروم قاتل بزاغه، ونصب عليها منجنيقات، وضيق على من بها فملكها بالأمان، ثم غدر بأهلها، فقتل منهم وأسر وسبى" [5].

---

([1]) لمزيد من التفاصيل عن الشعر ينظر ، أبو شامة ، ج1 ، ص88-98 و بعدها .

([2]) تيودور بيشوف ، المصدر السابق ، ص94 .

([3]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص311.

([4]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 265. ابن الأثير، المصدر السابق، ص 313.

([5]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص265. ابن الأثير، المصدر السابق، ص 313.

من هنا يتضح الاختلاف بينهم وبين (زنكي) في الحفاظ على العهود والمواثيق، لذلك فلا غرو أن نجدهم قد انتهجوا سياسة الغدر، لأنهم لم يحترموا الأسر وأهل المدينة، بينما (زنكي) عرف بسياسة التسامح والعدل والاحترام.

ولم يقف (زنكي) مكتوف الأيدي، بل أرسل يطلب النجدة من السلطة المركزية، لحاجته لمزيد من الإمداد والتموين [1].. "لما كان الفرنج على بزاغه، أرسل زنكي القاضي كمال الدين أبي الفضل محمد بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري إلى السلطان مسعود يستنجده، ويطلب العساكر، فمضى إلى بغداد" [2].

وينفرد (ابن الأثير) بذكر هذه الحادثة عن (ابن القلانسي)، فالأخير لم يرد عنده ذكر طلب (زنكي) للمساعدة من السلطة المركزية، رغم ذكره الأحداث التي تعرض لها أهل بزاغه من الإفرنج، وطلب الإغاثة من زنكي، بينما ينفرد ابن الأثير عنه بذكر هذه الحادثة.

ويكشف لنا النص السابق أن (عماد الدين زنكي) قد أدرك أن الإمدادات التي وصلت للإفرنج قد أعطتهم دافعًا للدفاع عن إماراتهم التي أسسوها في الشام، وأن ليس بمقدوره مواجهتهم وحده، لأنه كان يتجه لجهاد أكثر من مدينة في آنٍ واحدٍ، لذلك طلب المساعدة من السلطان السلجوقي، ليزوده بالجنود حتى يدعم صفوفه.

غير أن القاضي الشهرزوري كان يدرك أن السلطان لن يعيره اهتمامًا، لذلك لجأ القاضي إلى خطة ذكية، إذ اعتمد علي إثارة عامة السكان، وذلك بأن أوعز إلى نائبه في القضاء وجماعة الفقهاء -وكانوا معه في تلك الرحلة- إلى توزيع بعض الأموال العامة للوقوف إلى جانبه عند الصلاة يوم الجمعة، فعندما بدأت الخطبة في جامع القصر مقر الخليفة، صاح الناس: وا دين محمداه [3].

"وعزمه عاقبة الإهمال، فلم يجد عنده حركة، فوضع إنسانًا من أصحابه يوم الجمعة، فمضى إلى جامع القصر، ومعه جماعة من زنود العجم، وأمر أن يثور بهم إذا صعد الخطيب المنبر، ويصيح ويصيحوا معه وا إسلاماه، وا دين محمداه" [4].

ومن الواضح أن القاضي (الشهرزوري) كان على دراية تامة بإهمال الخليفة والسلطان له، فسبق أن أهملوا وفد (مودود) من قبل، لذلك اختار يوم الجمعة لما لهذا اليوم من مكانة لدى المسلمين، وكذلك لوجود أعداد كبيرة من المسلمين لتأدية الصلاة، فرأى هذه الطريقة خير وسيلة لتوضيح حجم خطر الإفرنج، ولكي يدرك الخليفة والسلطان جسامة هذا الأمر كذلك.

لذلك نجد أن السلطان سُرعان ما لبى طلب القاضي الشهرزوري "وأحاط الناس بدار السلطان يستغيثون ويبكون، فخاف السلطان، فقال: أحضروا إليّ ابن الشهرزوري، فأحضر فقال كمال الدين: لقد خفت منه لما رأيت، فلما دخلت قال لي: أي فتنة أثرت؟ فقلت: ما فعلت شيئًا: أنا كنت في بيتي، وإنما الناس يغارون للدين

---

([1]) جمال محمد سالم خليفة، المرجع السابق، ص 86.
([2]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 315.
([3]) جمال محمد سالم، المرجع السابق، ص 86.
([4]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 315.أبو شامة، المصدر السابق، ص 35.

والإسلام، ويخافون عاقبة هذا التواني، فقال: اخرج إلى الناس، ففرقهم عنا واحضر غدًا، واختر مِن العسكر مَن تريد" [1].

كان للقاضي (الشهرزوري) دور في وعي عامة الناس، وتوضيح حجم الخطر الإفرنجي ـ الصليبي لهم، وضرورة الجهاد، لذلك لاقت طريقته نجاحًا في تحريك السلطان للاستجابة لطلبه.

وفي عام (532هـ / 1137م) قصد الإفرنج شيزر لحصارها، غير أن (زنكي) استطاع أن يردهم منهزمين، فاستطاع أن يتبع بجهاده ضدهم خطة عسكرية محكمة، جعلته يحقق انتصارًا عليهم، "وأما الروم فإنهم قصدوا شيزر فإنها من أمنع الحصون، وإنما قصدها لأنها لم تكن لزنكي، فلا يكون له في حفظها اهتمام، فنازلوها وحاصروها... وأرسل صاحبها إلى زنكي يستنجده..." [2].

ويتضح أن الإفرنج ـ الصليبيين كانوا يعتقدون أنه بحصارهم لشيرز سيحققون مكاسب كبيرة دون صعوبات تذكر، وإنه لن يحرك له ساكنًا بحصارهم للمدينة، غير أنه كان حال بينهم وبين تحقيق أهدافهم، فاستخدم كل الطرق حتى لا يستطيعوا فرض هيمنتهم عليها، "وكان يركب كل يوم ويسير إلى شيزر هو وعساكره، ويقفون بحيث يراهم الروم، ويرسل السرايا فتأخذ من ظفرت به منهم، ثم إنه أرسل إلى ملك الروم يقول له: إنكم قد تحصنتم مني بهذه الجبال، فانزلوا منها إلى الصحراء حتى نلتقي، فإن ظفرت بكم أرحت المسلمين منكم، وإن ظفرتم استرحتم وأخذتم شيزر وغيرها، وكان زنكي يرسل أيضًا إلي ملك الروم يوهمه بأن فرنج الشام خائفون منه، فلو فارق مكانه لتخلوا عنه، ويرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم، ويقول لهم: إن مَلك في الشام حصنًا واحدًا مَلك بلادكم جميعًا، فرحل ملك الروم عنها" [3].

بذلك حقق (زنكي) نصرًا عليهم، وعمل على تشتيت التحالف الخطير الذي قام بين الإفرنج والبيزنطيين، واستطاع أن يزرع الشك بين الطرفين ليقضي على التعاون بينهما، كما سعى في الوقت نفسه إلى طلب النجدات العسكرية من الإمارات الإسلامية بالشام والعراق.

وبالفعل سرعان ما انقلب التحالف إلى عداء، ودب الخلاف في صفوفهم، وبمعنى أدق عادت من جديد علاقات الخلاف والخصام بين الإفرنج والبيزنطيين.

ولم تكد القوات البيزنطية تنسحب من إقليم شيزر حتى استأنف (عماد الدين زنكي) جهاده ضد الإفرنج، فاستولى على كفر طاب وحصن عرقه [4] وفتحه عنوة، وأسر من به من الإفرنج ـ الصليبيين ثم أمر بتخريبه، وفي مطلع عام (533هـ / 1138م) استولى على الأتارب [5].

---

([1]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 315. ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق، جمال الدين الشيال، دار الثقافة والإرشاد القومي، ج1، (د. ت)، ص 79– 80.

([2]) ابن واصل.المصدر السابق . ص80

([3]) ابن الأثير، المصدر، السابق، ص 314.

([4]) عرقه بكسر أوله وسكون ثانيه بلدة في شرقي طرابلس بينهما أربعة فراسخ، وهي آخر عمل دمشق، وهي سفح جبل، وعلى جبلها قلعة لها، ويُنسب إليها عروة بن مروان العرقي، ينظر الحموي، المصدر السابق، ج4، ص 109.

([5]) ابن العديم، المصدر السابق، ص 466.

لقد استطاع (زنكي) أن يُثبت للإفرنج أنه عازم على تحرير كل المدن الشامية وطردهم منها، وبدأ جهاده حول الحصون والقلاع الإفرنجية (الصليبية)، ففي عام 539هـ/ 1144م، قصد سروج واستطاع أن يملكها، "ورحل عنها وقصد سروج، وهرب الإفرنج منها، فملكها وجعل لا يمر بعمل من أعمالها، ولا معتقل من معتقلاتها، فينزل عليه إلا سلم إليه في الحال" [1].

لقد ترك الإفرنج ـ الصليبيون سروج دون أية مقاومة تذكر؛ نتيجة لخوفهم من قوات (زنكي)، وهذا يدل دلالة واضحة على مدى تغير حالة المسلمين القتالية، فقد أصبح مفهوم الجهاد شعارًا حملوه في جميع حملاتهم، ورافق ذلك تغير كبير في موقفهم، حيث انتقلوا من حالة الدفاع إلى حالة الهجوم.

ولم يقف الأمر عند حدود الانتصارات العسكرية فقط، بل عمت الفرحة جميع المدن الشامية، فأخذ الشعراء يتغنون بفضل (عماد الدين زنكي) وينظمون في ذلك القصائد الرائعة [2] فكان للشعراء دور أساسي في مواصلة الجهاد، وذلك بتقديم التمجيد والتهاني بكل نصر يُحققه المسلمون.

والمُتمعن في تاريخ الحروب الصليبية لن يجد في الفترة التي سبقت زنكي شعرًا يُمجد الوحدة بين المسلمين، أو يحث عليها، ولعل ذلك راجعٌ إلى كثرة الفتن والخلافات بين الحكام المسلمين [3]، فكان لابن قسيم الحموي [4] دور في تمجيد هذا النصر فقال:

بَعْزمِكَ أَيّهُاَ ٱلْمَلْكُ الْعَظِيْمُ تَذِل لَكَ اَلْصِعَاْبُ وَتَسْتَقِيْمُ

اَلَمْ تَرَ أَنّ كَلْبَ ٱلْروْم لَمَاْ تَبَيّنَ أَنّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلّرحِـيْـمُ

فَسَاْرُ مَاْ يُعَاْدِلَهُ مِلْيك وَعَاْدَ وَمْا يُعَاْدلَهُ سَقْيـــــمُ

إِذَاْ خَطُرَتْ سُيُوْفُكَ فِي نُفُوْسٍ فَأَوْلُ مَاَ تُفَاْرِقُهَاْ ٱلْجسُـوْمُ [5].

عقب امتلاك زنكي سروج، توجه إلى حصن البيرة المنيع "وتوجه إلى حصن البيرة من تلك الأعمال، وهو غاية في الامتناع على طالبه، والصعوبة على قاصده فنزل عليه، وشرع في محاربته ومضايقته، وقطع عنه سائر من يصل إليه بالقوت والميرة والمعونة والنصرة" [6].

يتضح لنا من خلال النص أن (زنكي) كان على دراية تامة بمناعة الحصن؛ لذلك أحكم حصاره ومنع وصول أي إمدادات له، حتى نفدت الميرة منه إلا أن (زنكي) لم يكمل حصاره للحصن لوصول أخبار له من الموصل،

---

([1]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 280.

([2]) محمد سيد كيلاني، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام، الناشرون، دار المحدودة لندن، 1985م، ص 18.

([3]) فؤاد حسن حسين أبو الهيجاء، بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، العدد2، السنة 16، 1994م، ص 113.

([4]) قسيم الحموي، هو أبو المجلد مسلم بن الخضر بن مسلم بن قسيم الحموي التنوخي، وهو مجيد للشعر نبغ في عصره وبلغ درجة كبيرة، ينظر، الأصبهاني، خريدة القصر وجريدة العصر، المصدر السابق، ج 11، ص 433.

([5]) المصدر نفسه، ص471.

([6])- ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 280.

فاضطر للرحيل عن البيرة التي شارف على افتتاحها والاستيلاء عليها، "وورد على عماد الدين، وقد أشرف على ملكته من خبر نائبه في الموصل، ورحله عنها لكشف الحال الحادثة بالموصل" [1].

ولكن زنكي قبل رحيله عن الحصن قد ترك من يخلفه في حصاره له "مُتيقن أنه لا يجد بعده من يقوم مقامه، ولا يسد مسده، وارتاد من يقيمه في موضعه ويُنصّبه في منصبه، فوقع اختياره على الأمير على كوجل، لعلمه بشهامته ومضائه في الأمور وبسالته، وولاه مكانه" [2]، ورحل (زنكي) وهو على وعي تام باختياره الرجل المناسب، حيث إنه كان مطمئنًا لاختياره شخصًا يثق به لمواصلة مسيرته من بعده في حصار الحصن.

تمكن (زنكي) بفضل ذكائه وفطنته وحسن تسييره للأمور من استغلال الظروف السائدة في ذلك الوقت من أن يكسب الجولات التي خاضها ضد الإفرنج، ويفكر في جولات أخرى يستطيع من خلالها الانتصار عليهم، وطردهم نهائيًا من بلاد الشام وكل الأراضي الإسلامية إن أمكن له ذلك، وبالفعل بدأ أولى خطواته بتوحيد الجهود الإسلامية تحت رايته، وتوجيهها لضرب المحتل أينما وجد.

---

([1])- ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 280. أبي الفرج جمال الدين ابن العبري، مختصر تاريخ الدول، دار المشرق، بيروت، 1992م، ص 206.

([2]) - ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 281.

**ثانيًا: فتح الرها (539 هـ/ 1144م) على يد الأمير عماد الدين زنكي**

استطاع (زنكي) ضم جميع المناطق الشامية فيما عدا دمشق، وقد حاول جاهدًا ضمها بكل الأساليب الدبلوماسية والعسكرية فلم يوفق، بل إن محاولاته لضمها عام (534هـ / 1140م) أدت إلى نتيجة عكسية، هي تحالف ضد زنكي من قبل حاكم دمشق معين الدين آنر مع فولك ملك بيت المقدس، مما جمّد الموقف في بلاد الشام، وشل حركة (زنكي) إلى أبعد مدى [1].

إن تمسك إمارة دمشق باستقلالها الذاتي، كان عقبة في سبيل تحقيق وحدة الإمارات الإسلامية، وبرهنت على أن حاكمها لم يدرك بعد أن وحدة القوى الإسلامية هي شرط تاريخي لطرد أي عدو يدخل المنطقة، "فلما رأى آنر أن زنكي لا يفارقهم ولا يزول عن حصارهم، راسل الفرنج، واستدعاهم إلى نصرته، وأن يتفقوا على دفع زنكي عن دمشق، وبذل لهم بذولًا، وأن يحصر بانياس ويأخذها ويسلمها إليهم، وخوفهم من (زنكي) إن مَلكَ دمشق، فعلموا صحة قوله، وعلموا أنه إن ملكها لم يبق لهم معه بالشام مقام، فاجتمعت الفرنج وعزموا على المسير إلى دمشق؛ ليجتمعوا مع صاحبها وعسكرها على قتال زنكي" [2].

وظروف النزاع بين الإفرنج أنفسهم لم تلبث أن أخذت تعوض (زنكي) عن تحالفهم مع دمشق، ففي ذلك كان التنافس بين ريموند دي بواتيه وأمير أنطاكية وجو سلين الثاني أمير الرها قد تحول إلى عداء مكشوف، لا سيما بعد أن توفي فولك ملك بيت المقدس 538هـ / 1143م [3].

ويذكر (ابن القلانسي) في أحداث عام (538هـ/ 1143م) خبر وفاة فولك بقوله "وفيها ورد الخبر من ناحية الإفرنج بهلاك ملكهم الكسندر أيجور ملك بيت المقدس بعلة عرضت عليه، وأقيم ولده الصغير وأمه مقامه في الملك، ورضي الإفرنج بذلك، واستقامت الحال عليه" [4].

ويضيف (رانسيمان) " كان البلاط في عكا يستمتع بالهدنة التي أتاحها انسحاب زنكي من دمشق، فجأة تعثر جواد الملك، وألقي من على ظهره، وسقطت صهوة الفرس، فاقد الوعي والجراحات فظيعة في رأسه، حيث مات بعد ثلاثة أيام، وصدرت عن الملكة مليسنيد ألفاظ الأسى، وكان من بين أولادها من فولك ابنان: بلدوين ابن ثلاث عشرة سنة، وامالريك ابن سبع سنين، وكانت حقوقها كوريثه معترفًا بها" [5].

---

([1]) هانس ابرهارد ماير، المرجع السابق، ص135. وفاء الجو يني، دمشق والمملكة اللاتينية في القدس منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى أواخر القرن الثاني عشر الميلادي (496 – 569هـ / 1098 – 1174م)، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 1997م، ص 161. رشيد الجميلي، دولة الأتابكة، المرجع السابق، ص 51.

([2]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 325.

([3]) هانس ماير، المرجع السابق، ص138. سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، المرجع السابق، ص 603.

([4]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص277. ماير، المرجع السابق، ص 138.

([5]) رانسيمان، المرجع السابق، ص 271.

مليسنيد لم تكن الشخصية المطلوبة لمملكة بيت المقدس، فجلبت أضرارًا بالغة لهم، لا سيما بعد أن كان لملك بيت المقدس مكانة مرموقة بوصفه سيدًا على الإمارات الإفرنجية، وسرعان ما تلاشت هذه المكانة عقب وفاة الملك فولك وتسليمها الحكم [1].

لذلك رأى (زنكي) أن الظروف سانحة له لتحقيق هدفه، ومواصلة جهاده، وقد أعطى موت الملك فولك له دافعًا قويًا ليوجه لهم ضربة سانحة، لأن بموته قد تحرر من أخطر عدو، فقرر أن يتجه للرها باعتبارها المدينة التي حالت بين مودود، وتحقيق أهدافه، وأولى الإمارات الإفرنجية في الشام، لذلك كان يريدها (زنكي) أول إمارة تتحرر منهم، وتميزت عن بقية الإمارات بحكم موقعها الجغرافي في الحوض الأوسط لنهر الفرات، فتحملت عبء الدفاع عن بقية الإمارات الإفرنجية في بلاد الشام، وذلك لقربها من الخلافة العباسية، ثم لمواجهاتها للتركمان، عقب التفكك الذي أصاب السلاجقة في بلاد الشام والعراق عشية وفاة السلطان ملك شاه (485هـ/ 1092م) [2].

كانت مكانة مدينة الرها- رغم موقعها خارج دائرة الأراضي المقدسة في فلسطين- لديهم كبيرة جدًا، فاعتبرت من أشرف المدن عندهم بعد بيت المقدس وأنطاكية والقسطنطينية، لأنها مرتبطة بتاريخ المسيحية المبكر، وما بها من خيرات وفيرة مما أكسبها أهمية لها ولحكامها، فاستطاعت الصمود في وجه المقاومة الإسلامية، هذا فضلًا عن مكانتها لدى المسلمين، فكانت في نظرهم من أهم المواقع الإسلامية التي يجب السيطرة عليها، "وهذه الرها هي من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلًا، عندهم، فأشرفها البيت المقدس، ثم أنطاكية، والقسطنطينية الرها" [3].

وقد وصف (ابن الأثير) مكانتها في بلاد الجزيرة بسبب موقعها بين الموصل وحلب "إن ضرر من بهذه المدينة من الإفرنج على المسلمين لقربها عظيم، وشرهم إليها جسيم، إذ كانت من الديار الجزرية عينها، ومن البلاد الإسلامية حصنها، وانضاف إليها عدة من البلاد، فاتسعت مملكتهم واشتدت على أهلها وطأتهم، فملكوا من نواحي ماردين إلى الفرات – على طريق شبختان – عدة حصون كسروج والبيرة، وجملين، والموزر، والقرادي، وماردين، ونصيبين ورأس عين، والراقة" [4].

وكانت هذه الإمارة فضلًا عما سبق، تشكل عائقًا يحول دون قيام (زنكي) بتوحيد الجبهة الإسلامية في الجزيرة وشمالي الشام، بسبب تدخلها المستمر لصالح أعدائه من الأمراء المسلمين في المنطقة، وتهديدها الدائم لخطوط المواصلات الإسلامية التي تربط بين الموصل وحلب من جهة وبين بلاد فارس وسلاجقة آسيا الصغرى من جهة أخرى [5].

---

([3]) المرجع نفسه، ص 272.. وماير، المرجع السابق، ص 138.
([2]) عبد المنعم حسين، سلاجقة إيران والعراق، مكتبة النهضة المصرية القاهرة، 1959م، ص 84.
([3]) ابن الأثير، الباهر، المصدر السابق، ص66.
([4]) المصدر نفسه، ص67.
([5]) وفاء الجويني، المرجع السابق، ص 169.

ساعدت الظروف التي كان عليها الإفرنج (الصليبيون) زنكي للتمهيد لفتح إمارة الرها، حيث استغل بإحدى خدعه السياسية الأوضاع آنذاك، فبدأ بمهاجمة (بني أرتق) في ديار بكر، وانتزع منهم عدة حصون، ممّا شكل خطرًا على (زنكي)، ولذلك حاول أن يكون أكثر حذرًا في التعامل معهم مستقبلًا. "فاستغل بديار بكر ليوهم الفرنج أنه غير متفرغ لقصد بلادهم" [1]، وكان (زنكي) يقصد من هذا التصرف إبعاد أنظارهم عنه ليوهمهم أنه مشغول عن مهاجمتهم، وأن أوضاعهم الداخلية وانقسامهم لم تكن ضمن مخططاته.

وقد أدرك (زنكي) منذ الوهلة الأولى أنه لا يستطيع فتح الرها والقوة الإفرنجية بها، لذلك سعى جاهدًا لإخراج أميرها جوسلين وقواته منها، فرصد تحركات جوسلين، واتجه هو إلى أمد التابعة للأراتقة [2].

وغادر جوسلين الثاني الإمارة إلى تل باشر، تاركًا المدينة لوحدها، ظنًا منه بأنها تستطيع الصمود فترة طويلة، وفي الحال شرع (زنكي) ومعه جيشه في فرض الحصار عليها (539هـ/ 1144م)، ومنع جوسلين من الدخول إليها.

"فلما رأوا أنه غير قادر على ترك الأرتقية وغيرهم من ملوك ديار بكر، حيث إنه محارب لهم، اطمأنوا وفارق جوسلين الرها، وعبر الفرات إلى بلاد الغربية فجاءت عيون اتابك إليه، فأخبرته الخبر فنادى في العسكر بالرحيل وأن لا يختلف عن الرها من غد يومه" [3].

وما لبث أن انهالت عليه جموع المتطوعين فطوق بهم الرها من جهاتها الأربع "فوصل إليه منهم الخلق الكثير، والجم الغفير بحيث أحاطوا بها من جميع الجهات، وحالوا بينهما وبين ما يصل إليها من الميرة والأقوات" [4]، وأرسل جوسلين عندما سمع نبأ الهجوم على الرها في طلب المساعدة من الإمارات الإفرنجية في الشام، فلم يستجب له سوى مليسيند الوصية على عرش مملكة بيت المقدس، والتي وصلت نجدتها بعد فوات الأوان [5].

إن هيبة (زنكي) قد بلغت في قلوب الإفرنج قدرًا كبيرًا، لا سيما بعد أن تقاعس أمراؤهم عن مد (جوسلين) بالإمدادات، لأنهم كانوا يخشون بأن يغير عليهم عقب احتلاله للرها، وهذا ما ذهب إليه كل من (ابن الأثير ورانسيمان) الذي يقول: "وكان جوسلين قد اصطحب معه أبرز جنوده كلهم، وقد تراجع جوسلين نفسه إلى تل بشير، وينتقده المؤرخ وليم الصوري انتقادًا لاذعًا لتراخيه عن إنقاذ عاصمته، وكان جوسلين واثقًا من صمود التحصينات العظيمة في الرها لبعض الوقت، وكان يعول على مساعدة جيرانه الفرنج، وكان قد أرسل من فوره إلى أنطاكية وإلى القدس، وفي القدس عقدت الملكة مليسيند مجلسًا سمح بجمع جيش أرسلته، ولم يفعل ريموند شيئًا، وضاعت هباءً كل مناشدات جوسلين له باعتباره سيده الأعلى، ودون مساعدته لم يكن جوسلين ليجرؤ على

---

([1]) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ص 343.
([2]) أبو شامة، المصدر السابق، ص 37.
([3]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 279.ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ص 343.
([4]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 279.
([5]) عماد الدين خليل، المرجع السابق، ص 152.

مهاجمة زنكي، فلبث في تل بشير منتظرًا وصول جيش الملكة، ولكن جيش الملكة وصل بعد أن سبق السيف العذل" [1].

وزاد (زنكي) من تضييق الحصار عليهم مستخدمًا الآلات الضخمة التي جلبها معه لدخول المدينة، وقد حاول استمالة الإفرنج غير أنهم رفضوا ذلك واستمروا في الدفاع عنها [2]، "وربما كان زنكي يأمل في إغواء المسيحيين الوطنيين بالتخلي عن الولاء للإفرنج، لكن خابت آماله كلها" [3].

واستمرارًا للضرب طيلة أربعة أسابيع فقد انهار سور المدينة، فاندفع المسلمون لدخولها، وفرّ السكان باتجاه القلعة للاحتماء بها، وأغلق (هيون الثاني) أسقف الرها أبوابها في وجه المسلمين، وظل هو داخلها محاولًا إعادة النظام بها، غير أن المسلمين استطاعوا القضاء عليهم، وقتل أعداد كبيرة منهم، ومن بينهم هيون نفسه، ثم ما لبث أن استسلمت القلعة ودخلها (زنكي) وإثر ذلك أمر بإيقاف القتل والأسر وأبقى على حياة السكان [4].

تميزت دراسة (ستيفن رانسيمان) عن (هانس ابرها رد ماير)، فالأول يذكر تفاصيل الحصار والأحداث التي جرت في الرها بشكل مفصل، بينما الثاني يكتفي بذكر الأحداث في عجالة جدًا بقوله "زحف على الرها، وفي عيد الميلاد 1144م سقطت العاصمة في أيدي الزنكي بعد أربعة أسابيع من الحصار" [5].

ويتوسع (رانسمان) بتفاصيل الأحداث "إذ إن جيش زنكي أخذ يتضخم، فضلًا عن آلات الحصار الجديدة التي كانت معه، وفي داخل الرها كان رجال الدين والتجار الذين يشكلون جل الحامية يفتقرون إلى الخبرة الحربية، ومن ثم فشلت هجماتهم المضادة، وساد الظن أن هيون رئيس الأساقفة يحتجز الأموال التي اكتنزها برغم شدة الحاجة إليها للدفاع وانقض جدار في السور، وتدفق سيل المسلمين، فهرب السكان، وهلك الألوف تحت الأقدام، وجند زنكي في أعقابهم يقتلون ألوفًا أكثر بمن فيهم الأسقف، إلى أن دخل زنكي نفسه، وأمر بإيقاف المذبحة وأبقى على حياة المسيحيين الوطنيين" [6].

وبمقارنة بسيطة بين النصين تكشف لنا عن موقف المستشرقين الأوروبيين حيال الحروب الإفرنجية التي اعتادوا على الكيل فيها بمكيالين، وهذا واضح جدًا في هذه المقارنة، والسبب في ذلك راجعٌ إلى صدمتهم بسقوط الرها، وكذلك حتى لا يعطوا (زنكي) حقه من الأهمية في هذه المرحلة في كتاباتهم، ويؤكد ذلك (رانسيمان) بقوله، والكثير من المؤرخين الأوروبيين يذكرون سقوط الرها بعض الشيء [7].

---

([1]) رانسيمان، المرجع السابق، ص 273.
([2]) ابن الأثير، الباهر، المصدر السابق، ص 69. وفاء الجويني، المرجع السابق، ص 173.
([3]) رانسيمان، المرجع السابق، ص 273.
([4]) شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، تحقيق، إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، 1988م، ص147، ابن العبري، المصدر السابق، ص 156، 157.قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية (د. ت) ص 138.
([5]) ماير، المرجع السابق، ص 138- 139.
([6]) رانسيمان، المرجع السابق، ص273- 274.
([7]) المزيد من التفاصيل عن سياسة زنكي في الرها ينظر، رانسمان، المرجع السابق، ص 274.

فالسياسة التي اتبعها (زنكي) ليست بالغريبة، فهي تدل على بعد نظره وخبرته في الأمور السياسية [1]، على عكس السياسة التي انتهجها الإفرنج من قسوة وشدة، لا سيما الفظائع التي اقترفوها عشية احتلالهم أنطاكية (496هـ/ 1098م) (ومعرة النعمان) في العام التالي [2].

ويؤكد المؤرخ (ميخائيل السوري) سياسة (عماد الدين زنكي) بقوله "وطلب الأمان كل من كان بالقلعة، فأعطى لهم الأمان، عامل المسيحيين بكل محبة ورحمة وشفقه" [3].

يعد فتح الرها أهم أعمال (زنكي) التي قام بها ضد الإفرنج طوال فترة حكمه، وكانت لهذا النصر نتائج بالغة الأهمية على الصعيد الإسلامي والأوروبي، إذ تركت أصداءها على الجانبين، وكانت نتائجها مهمة بالنسبة (لزنكي).

وسقوط الرها يعني انهيار أول إمارة أسَسها الإفرنج (الصليبيون) في الشام (491هـ/ 1097م)، وكان هذا الانتصار بداية نهايتهم، وغيّر موازين القوى في البلاد الشامية، فأعطى للمسلمين أملًا جديدًا في استعادة ممتلكاتهم من أيدي الإفرنج (الصليبيين)، وأثبتت قدرة المسلمين على مواجهتهم وانتزاع أقوى حصونهم، وقد دلّ هذا الفتح على تنامي حركة الجهاد وتوسعها، وكذلك أثبت قدرة (زنكي) السياسية والعسكرية على حد سواء.

وهذا ما ذهب إليه صاحب كتاب الإعلام والتبيين بقوله: "وبعد عمل طويل عاشته الأمة كلًا وأفرادًا استطاع زنكي عام (1144م)احتلال الرها، والقضاء على أولى دول الفرنجة تأسيسًا في المشرق، ولقد عم لسقوط الرها صدى بال في الشرق والغرب، وكانت تلك أقسى ضربة حلت بالفرنجة منذ أن دخلوا الشام، وأفدح خسارة ألمت بهم" [4].

وفي الوقت نفسه، كان سقوط الرها صدمة مؤلمة للإفرنج تردد صداها في أنحاء القارة الأوروبية، فكان لسقوطها ردة فعل عنيفة في الغرب الأوروبي بسبب المكانة الدينية التي تتمتع بها المدينة، ليس لتاريخ المسيحية فحسب، بل لأنها كانت أول إمارة أسَسها الإفرنجة في بلاد الشام، فجاء سقوطها إيذانًا بترنح بنائهم الكبير الذي نجحت حملتهم الأولى في إقامته، لذلك أدرك الغرب الأوروبي أنه إن لم يُسرعُ إلى ترميم ذلك البناء ومساندته، فإنه لن يلبث أن ينهار بأكمله.

ويؤكد (رانسيمان) هذا النصر للمسلمين، ويصف الحالة التي وصلوا لها بقوله: "وتردد صدى سقوط الرها في العالم كله، فكان للمسلمين بمثابة أمل جديد جاءهم، إذ انهارت دويلة مسيحية دخيلة في قلب أراضيهم، وتطهرت الآن الطرق التي تربط بين الموصل وحلب من الأعداء، وكان زنكي جديرًا بلقبه الملكي، أما الإفرنج فقد هبط

---

([1]) يرجع هامش، رانسمان، المرجع السابق، ص 274.

([2]) قاسم عبده قاسم، صورة المقاتل الصليبي في المصادر العربية، المجلة التاريخية المصرية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مج27، 1981م، ص 13.

([3]) ميخائيل السوري، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تحقيق، سهيل زكار، دار الفكر دمشق، ج5، 1995م، ص171-175.

([4]) مؤلف مجهول، الإعلام والتبيين في خروج الإفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تحقيق، سهيل زكار، مكتبة دار الملاح، 1981م، ص 43.

عليهم النبأ هبوط القنوط والإنذار ووقع من مسيحيي غرب أوروبا موقع الصدمة المرعبة، ولأول مرة يتحققون من أن الأمور ليست على ما يرام في الشرق" (1).

وأضعف هذا الفتح الروح المعنوية للإفرنج، فعلى الرغم من مكانة الرها عندهم، فإنهم لم يقوموا بعمل سريع ضد زنكي، وذلك بسبب تدهور أوضاعهم الداخلية.

وعزز هذا الفتح مكانة (زنكي) لدى كل من السلطان السلجوقي مسعود، والخليفة العباسي المقتفي لأمر الله (2) الذي أنعم عليه بعددٍ كبيرٍ من الألقاب، التي حازها عن جدارة كالأمير المظفر، وركن الإسلام، وعمدة السلاطين، وزعيم الجيوش، وملك الأمراء، وأمير العراقيين والشام (3)، وأدّت هذه الألقاب زيادة عبء (زنكي) للدفاع عن المسلمين، فأصبح القائد والمجاهد الأول، ومهّد له هذا الفتح الطريق لمواصلة فتح بقية الحصون المجاورة، وتباهى الشعراء بهذا النصر ومجّدوه، فبرز دورهم في حركة الجهاد، مما ساعد زنكي على مواصلة جهاده فحقق نتائج لم يستطع أحدٌ من سابقيه تحقيقها.

وعدَّ المسلمون فتح الرها فتح الفتوح، وتبارى الشعراء في تقديم تهانيهم بهذا النصر، فمدح القيسراني زنكي بهذا الفتح فقال:

هُوَ اْلسّيْفُ لاَ يُغْنْيكَ الاّ جَلاَدُهُ وَهَلْ طَوّقَ الأمَلاْكَ اْلاْتّجَاْده
وَعَنْ ثَغْر هَذْاْ النّصْر فَلْتَأْخُذُ اْلظّبْيُ سَنَاْهَاْ وَأنْ فَاْتَ اْلعِيُوْنَ اتقاده
سُمّيْتَ قُبّةَ الإسْلاَمِ فَخْرَا بِطُوْلِهِ وَلَمْ يَكُ يَسْمُوْ اْلدّيْنُ لَوْلاَ عِمَاْدُهُ

وهنأ القاضي كمال الدين الشهرزوري بهذا الفتح قائلًا:

إنّ اْلصّفَاْئَح يَوْمَ صَاْفَحَتْ اْلرّهَاْ عَطَفَتْ عَلَيْهَاْ كُل أشْوَس نَاْكِبِ
فَتْحُ اْلفُتُوح مُبَشّرَاْ بَتَمْامِهِ كَاْلفَجْرِ فِيْ صَدَر اْلنّهَاْرِ اْلاِيِب
أَفَغَرَكُمْ وَاْلثّارُ رَهْنَ دِمَاْئكُمْ مَاْ كَاْنَ مِنْ إطْرَاْقِ لَحْظْ اْلطّاْلب
وَ إذَاْ رَأَيْتَ اْلليّثَ يَجْمَعُ نفْسَهُ دُوْنَ اْلفَرِيْسَةِ فَهُوَ عَيْنُ اْلوَاْثِبِ

وهنأ ابن منير الطرابلسي بالقول:

صِفَاْتُ مَجْدِكُ لَفْظُ جَلّ مَعْنَاْهُ فلاَ اْسْتَرد اْلّذِيْ أعْطَاْكُهُ اْللهُ
يَاْ صَاْرِمَاْ بِيَمْين قَاْئَمَةِ وَفِيْ أَعَاْليْ أعادي إلَيْه حدَاْه
يَاْ نِعْمَةَ اْللهِ يَسْتَطِفْي اْلمَزْيُد بَهُا لِلْشّاكِرْيَن وَيَسْتَقنِيْ صَفُاْيَاْهُ

---

(1) رانسيمان، المرجع السابق، ص 275.
(2) المقتفي لأمر الله محمد بن أحمد المستظهر بالله، بويع له بالخلافة عام 530هـ/ 1135م، كانت خلافته خمسًا وعشرين سنة، وثلاثة أشهر ونصف الشهر، وتوفى عام 555هـ/ 1160م، ينظر ابن الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، المصباح المضيء في خلافة المستضيء، تحقيق ناجية عبد الله إبراهيم، مطبعة الأوقاف بغداد، ج1، 1976م، ص 598.
جمال الدين ابن الحسن ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة، تحقيق محمد بن مسفر بن حسين الزهراني، مكتبة الدار بالمدينة المنورة، 1988م، ص 298.
(3) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 284.

أَبْقَاكَ لِلّدْينِ وَ ٱلْدُنُيَاْ تَحَوَلُهَمَاْ مَنْ لَمْ يَتَوَجّلْ هَذَاُ اَلّتَاْج إلاّ ۠هُوَ [1]

ويظهر من الأبيات الشعرية أن المسلمين اعتبروا فتح الرها بمثابة الرجوع بعد فترة من الاحتلال الإفرنجي، وبداية صفحة مشرقة، تتحرر فيها الأراضي الشامية من براثن العدو.

وقد جعل هذا (زنكي) يواصل جهاده بعد سقوط الرها مستغلًا فرصة تدهور الأوضاع الصليبية، ففي عام (540هـ/ 1146م) أعدّ حملة كبيرة للاستيلاء على دمشق وأثناء عبوره للرها علم بتآمر الأرمن في المدينة مع جوسلين الثاني، للتخلص من الحامية الصغيرة التي سبق أن تركها بالمدينة للمسلمين فتوجه إليها، وأعدم المتآمرين، وطردهم كي لا يتاح لهم فرصة أخرى للتعاون مع الإفرنج (الصليبيين)، "أن الخبر وافاه من جهة الرها بأن جماعة من الأرمن عملوا عليها، وأرادوا الإيقاع بمن فيها من مستحفظيها" [2].

ويتبين أن الأرمن كان موقفهم سلبيًا تجاه المسلمين، وذلك واضحٌ في تعاملهم مع الإفرنج (الصليبيين)، فهذه ليست المرة الأولى التي يفعلون ذلك، فسبق أن تعاونوا معهم في بداية احتلالهم لأنطاكية، غير أن هذه المرة لم تكلل مساعيهم بالنجاح، إذ كان زنكي سباقًا للوصول للمدينة، وطرد المتآمرين فيها حتى لا يتم لهم التعاون معهم مرة ثانية "وأمر زنكي بإعدام زعماء المؤامرة، ونفى جزءًا من سكان الأمن حل محلهم ثلاث مئة أسرة يهودية، جلبها زنكي لما كانت تشتهر به، استعدادًا لتأييد المسلمين ضد المسيحيين" [3].

وفي عام (541هـ/ 1147م) اتجه (زنكي) لإخضاع قلعة جعبر، غير أن عماد الدين زنكي لم يلبث أثناء مرابطته أمام القلعة أن قتل فجأة وهو نائم [4]، "وفي سنة (541هـ/ 1147م) وردت الأخبار بأن أحد خدمه، ومن كان يهواه ويأنس به، يعرف بيرنقش وأصله إفرنجي، وكان في نفسه حقد عليه، ولإساءة تقدمت منه إليه فأسره في نفسه، فلما وجد منه غفلة في عسكره، ووافقه بعض الخدم من رفقته على أمره فاغتالوه عند نومه، وهو في الغاية من الاحتياط بالرجال والعدد والحرس الوافر العدد حول سرادقه فذبحه على فراشه، بعد ضربات تمكنت من مقاتله ولم يشعر بهم أحد" [5].

والغريب في الأمر أن قتله ليس بيد أعدائه، وإنما بيد أحد غلمانه، وما يشير للعجب أيضًا، فرغم عدد الحرس الوافر حوله، فإن القاتل استطاع أن يدخل ويقتله دون أن يشعر به أحد، ويقول (رانسيمان) إن سبب قتله "بينما كان يحاصر المدينة، حدثت مشاجرة بينه وبين أحد الخصيان من أصل إفرنجي عندما ضبطه يشرب من قدحه الخاص به، فاحتدم الخصي غضبًا مما سمعه من توبيخ، فانتظر حتى نام ثم قتله" [6].

---

([1]) أبو شامة، المصدر السابق، ص 97، 301.

([2]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 282.ابن العديم، المصدر السابق، ج2، ص 469.

([3]) رانسيمان، المرجع السابق، ص 276.

([4]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 284، ابن العديم، زبدة حلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات التاريخية، ج2، (د. ت) ص 282.أبو شامة، المصر السابق، ص 43.ابن واصل، ص 99.البنداري، المصدر السابق، ص 288. فايد حامد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية (العصر الفاطمي السلجوقي الزنكي) مؤسسة الرسالة، 1985م، ص 203.

([5]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 284 - 285.

([6]) رانسيمان، المرجع السابق، ص 276.

ويتفق رأي (رانسيمان مع ابن القلانسي) في هوية القاتل بأنه من أصل إفرنجي، بينما لم يذكر ابن القلانسي السبب المباشر للقتل، فيكتفي بقوله نتيجة لإساءة تقدمت من زنكي، فضمرها الخادم في نفسه لذلك أراد أن ينتقم منه بقتله.

ويتفق (ابن العديم مع رانسيمان) في تفاصيل أسباب القتل "إنه شرب ونام، فانتبه، فوجد يرنقش الخادم وجماعة من غلمانه يشربون فضل شرابه، فتوعدهم ونام فاجمعوا على قتله" [1].

وربما هذه ليست من أسباب القتل التي ذكرها (ابن العديم ورانسيمان)، لأن السياسة التي انتهجها زنكي سياسة عادلة، وهي بعيدة عن الظلم والجور مع أعدائه، لذلك كانت سياسته مع غلمانه وأصدقائه نفس السياسة التي عرف بها، إذًا فكل المصادر أكدت أن برتقش هو أحد المقربين لزنكي، وبلغ عنده منزلة رفيعة، وإن وراء هذا الاغتيال الخطير في هذه المرحلة الحرجة دوافع سياسية بعيدة المدى، وذات خطورة كبيرة، ومن المؤكد أن برتقش الذي أكد ابن القلانسي ورانسمان أنه ذو أصل إفرنجي أقدم على فعلته، بالاتفاق سرًا مع الإفرنج ـ الصليبيين.

وكلما ظهرت شخصية إسلامية تقود حركة الجهاد وتحقق نصرًا للمسلمين سرعان ما تنتهي هذه الشخصية بالقتل، دون أسباب واضحة، وكلما قامت وحدة إسلامية سرعان ما تنتهي بقتل قائدها، ويرجع السبب وراء ذلك لوجود بعض الأحقاد الخفية بين المسلمين، وتعاون بعضهم لصالح عدوهم.

وبوفاته انتهت سلسلة المحاولات الإسلامية لتكوين وحدة قوية تقف في وجه الإفرنج، وطردهم من الأراضي الشامية، واضعًا بذلك أول حجر في هذا البناء، تاركًا لمن يأتي بعده مهمة إنجاز هذا العمل الذي بدأه، كما طويت صفحة مشرفة ومجيدة من صفحات الجهاد الإسلامي [2]، لذلك تأثر المسلمون بقتله، فأنشد الشعراء قصائد على وفاته وعلى حال المسلمين من بعده.

وتوجد حقيقة مهمة ألا وهي ظهور قائد جديد على الساحة الإسلامية من الموصل، وتفهم أهلها، لأهمية الجهاد لذلك كانت تمدهم بالرجال والمجاهدين، وما فعله (عماد الدين زنكي) خير دليل على ذلك، فقد استطاع في فترة قصيرة أن يُؤسس دولة قوية شملت جل المناطق الشامية، ووحّدها مع العراق، وكان لظهوره فاتحة عصر جديد، كان النصر فيها حليف المسلمين، لذلك كانت خسارته فادحة لهم، فقد أثبت الوقائع والأحداث أن الهزائم التي مُني بها المسلمون ليست سوى نتيجة لأسباب ضعفهم وتخاذلهم، ولكن عندما ظهرت شخصيات واعية أدركت خطورة الغزو الإفرنجي، ومدى أبعاد هذا الخطر ظهرت النتائج واضحة على الساحة الإسلامية، فهذا القائد استطاع أن يحقق للمسلمين ما لم يستطع أحدٌ ممن سبقه أن يحققه، فهو لم يكن سوى قائد يتلقى أوامره من الخليفة والسلطان، فماذا لو كان هذا القائد خليفة أو سلطانًا ولديه كل الصلاحيات؟، كان من الصعب التكهن بمصير الإفرنج في بلاد الشام، وكانت نهايته باستشهاده، وقد مات في ساحة المعركة أثناء حصاره للقلعة، فسمي

---

([1]) ابن العديم، زبدة حلب، المصدر السابق، ص 282.
([2]) حسن حبشي، نور الدين والصليبيون، المرجع السابق، ص 40.

بالشهيد (زنكي)، "لقد كان مصرع زنكي أثرًا مفجعًا على نفوس المسلمين، فدعوه (بالشهيد) ورغم كثرة الشهداء في التاريخ الإسلامي، فإن زنكي هو الوحيد الذي عرف بهذا الاسم" [1].

([1]) مؤلف مجهول، الإعلام والتبيين، المصدر السابق، 48.

**المبحث الثاني :جهاد السلطان نور الدين محمود زنكي [1] ضد الصليبيين**

كان لسقوط الرها في أيدي المسلمين صدمة عنيفة في أوساط أوروبا، لذلك سارعوا إلى إرسال حملة إفرنجية جديدة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فجاءت حملتهم الثانية ردًا على نجاح (عماد الدين زنكي) في تحرير إمارة الرها.

**أولًا: تحرير بلاد الشام**

ظهرت فكرة الحملة الإفرنجية الثانية في بلاط لويس السابع، ملك فرنسا عام (540هـ/ 1145م)، ثم تأكدت في مجمع فيزيلاوي في العام التالي، فاستجاب لها الإمبراطور الألماني كونراد الثالث، وخرجا كلًّا بجيشه عبر أوروبا باتجاه الشرق [2]ويؤكد ذلك المؤرخ ميخائيل السوري بقوله: "لما سمع وقعة الرها، اجتمع الإفرنج وتوجهوا إلى المشرق بأعداد كبيرة لا تحصى، وكانوا بقيادة ملكين كبيرين ملك الألمان وملك فرنسا" [3].

أخذت الحملة الإفرنجية الثانية طابعًا مختلفًا عن الحملة الأولى، التي ضمت أجناسًا مختلفة من دول متعددة، بينما ضمت الحملة الثانية جيشين كبيرين ينتميان إلى أكبر دولتين، ويقودهما أكبر عاهلين هما: كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا، ولويس السابع ملك فرنسا [4].

وسار كل من الملكين منفصلين، فخرج كونراد الثالث أولًا، وفور وصوله لحدود الإمبراطورية البيزنطية، تكررت أحداث الشغب نفسها التي حدثت في الحملة الصليبية الأولى، وثارت مشاكل بينهم وبين البيزنطيين تشابه المشاكل التي حدثت قبل ذلك، في الحملة السابقة لها (492هـ/ 1097م) [5].

وفي عام (543هـ/ 1148م) وصلت الحملة الإفرنجية- الصليبية إلى دمشق، إذ لم تتمكن المدينة من مواجهة الزحف الإفرنجي - الصليبي عليها، لذلك طلبت العون من نور الدين محمود زنكي، وأخيه سيف الدين غازي [6]

---

([1]) نور الدين محمود هو الملك العادل نور الدين محمود زنكي بن أق سنقر التركي، ولد عام 521هـ، خرج غازيًا وافتتح حصونًا كثيرة، وقتل ثلاثة آلاف صليبي، وأظهر العدل، وبني المدارس والمساجد، يحب أهل العلم والدين ويكرمهم، وكان أقرب الناس إليه وأحبهم العلماء والفقراء، وكان حريصًا على فعل الخيرات مقتصدًا في الإنفاق، ولم يسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في غضبه، ينظر شمس الدين أحمد البصراوي، تحفة الأنام في فضائل الشام، تحقيق عبد العزيز فياض خرفوش، دار البشائر، 1998م، ص233.. والأصفهاني، جريدة القصر، المصدر السابق، ص63 – 64.

([2]) لمزيد من التفاصيل عن تجمع فيزيلاوي وتأكيدات الحملة الثانية ينظر رانسيمان، المرجع السابق، ص 292 وبعدها.. وماير، المرجع السابق، ص143 وبعدها.

([3]) ميخائيل السوري، المصدر السابق، ص 180.

([4]) بسام العسلي، نور الدين القائد، دار النفائس، 1986م، ص 63.علي حبيبه، المسلمون والصليبيون، مكتبة الشباب، 1990م.محمد سيد كيلاني، المرجع السابق، ص 19. محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في الشرق والغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1982م، ص 70.

([5]) لمزيد من التفاصيل عن خروج الحملة الثانية والأحداث التي جرت بين قادتها والإمبراطور البيزنطي، ينظر رانسيمان، المرجع السابق، ص 309.. ووفاء الجويني، المرجع السابق، ص 198 وبعدها.

([6]) سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي بن أق سنقر صاحب الموصل، كان يقيم بشهرزور، كان منطويًا على خير وصلاح ويحب أهله، وبني بالموصل المدرسة المعروفة بالعتيقة، ولم تطل مدته في الحكم، فمات عن عمر يناهز أربعين عامًا، ودفن في مدرسته، ينظر ابن خلكان، المصدر السابق، ج 4، ص 4.

وكان حاكمها (معين الدين آنر) الذي عرف بضعفه وقلة حيلته [1]، "وكان معين الدين قد أرسل إلى (سيف الدين غازي) اتابك زنكي يدعوه إلى نصرة المسلمين، وكف العدو عنهم" [2].

كان (معين الدين آنر) على يقين بهزيمته لذلك طلب العون من أبناء زنكي [3] للتصدي للإفرنج، لأنه لم يكن بمقدوره التصدي لهم وحده، كما كان لقدوم غازي أمل كبير للمسلمين في مواصلة دفاعهم عن المدينة، وهذا ما دفع (معين الدين آنر) أن يعد العدّة للإفرنج، وعندما أصبح جاهزًا، أرسل إليهم رسالة كان طابعها التهديد المباشر من خلال قوله لهم: "إن ملك المشرق قد حضر، فإن رحلتم وإلا سلمت البلد إليه، وحينئذٍ تندمون" [4] وبوصول نور الدين وأخيه غازي استطاعا أن يتصديا للحملة الثانية، وضم دمشق له [5]، "وسار لنجدتهما سيف الدين غازي ونور الدين محمود" [6].

ويتبين من خلال النص السابق مدى الضعف الذي وصل إليه حكام دمشق، إذ إنّهم لم يتمكنوا من مواجهة الخطر الإفرنجي، لذلك سارع نور الدين للتصدي لهم، وضم دمشق، الحلم الذي راود أباه طويلًا، وبذلك كان له دور في تحقيق الوحدة الإسلامية.

انتهت الحملة الإفرنجية الثانية، كسابقتها بالفشل الذريع، ولم تحقق أهدافها، وهذا ما أدى إلى ذهاب هيبة الإفرنج في الشام إلى حد كبير، وتدل هذه الحادثة على الآثار السيئة داخل الإمارات الإفرنجية، وتم كسر شوكة الإفرنج (الصليبيين) أمام المسلمين، وهذا ما جعل حملتهم الثانية نقطة تحول في تاريخ الصراع الإسلامي ـ الإفرنجي (الصليبي)، فأعطت هذه الحملة قوة للمسلمين في الشام وجرأتهم في الإغارة على الإمارات الإفرنجية الأخرى، وكانت حدثًا تاريخيًا مهمًا، وكانت مناسبة لظهور (نور الدين محمود زنكي) الذي حاول أن يُكمل المسيرة الجهادية.

وأدت هذه الحملة وفشل الإفرنج (الصليبيين) فيها إلى زيادة اتحاد المسلمين في تحطيم صورة الإفرنج، وبذلك انعكست المعادلة من ضعف القوى الإسلامية إلى قوتها، ومن هيبة الإفرنج إلى ضعفهم وانحطاط صورتهم أمام أنفسهم وأمام المسلمين، ويؤكد ذلك رانسيمان بقوله "غير أن الحملة الصليبية في واقع الأمر قد انتهت إلى لا

---

([1]) قاضي بن شهبه، المصدر السابق، ص 126.حسين مؤنس، نور الدين محمود، الدار السعدية للنشر والتوزيع، جدة، 1984م، ص217.

([2]) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ص 363. قاضي بن شهبه، المصدر السابق، ص127.

([3]) عندما قتل عماد الدين زنكي، ترك أربعة أولاد هم: سيف الدين غازي وهو الابن الأكبر، ونور الدين محمود زنكي، ونصرة الدين، وقطب الدين وهو أصغرهم، لم يواجه أبناء زنكي الأربعة صعابًا في الاحتفاظ بملك والدهم، بل وجدوا كل الإخلاص من قبل رجال أبيهم، فقد أبلى جمال الدين الأصفهاني، رئيس الديوان، وصلاح الدين الياغسياني أمير الحاجب البلاء الحسن في الحفاظ على مواصلة أبناء زنكي مسيرة والدهم، وبذلك استقر الأبناء في البلاد، وأخذوا على عاتقهم مسئولية الجهاد وإكمال مسيرة والدهم في الدفاع عن البلاد، لمزيد من التفاصيل ينظر ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ص351 – 352.

([4]) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ص 363.قاضي بن شهبه، المصدر السابق، ص 127.

([5]) ابن الأثير، الباهر، المصدر السابق، ص 107.

([6]) ابن العديم، زبدة حلب، المصدر السابق، ص 655.

شيء بسبب قادتها، وبضراوتهم وجهلهم وحماقتهم العقيمة" [1]. لقد كانت هذه الحملة خاتمة مؤلمة، ويمكن القول إن الفشل فيها يقع على قادتها.

بعد أن تصدى نور الدين زنكي للحملة الإفرنجية (الصليبية) الثانية، وضم دمشق، أخذ يضم المدن والإمارات المحلية، الواحدة تلو الأخرى فاستطاع أن يضم أغلب الإمارات المحلية لكي يضمن مواصلة جهاده ضد الإفرنج، فضم حران [2] ومنبج [3] وبضمه لمنبج مدحه الشعراء، فقال الأصفهاني قصيدة جاء فيها:

بُشْرَىْ اَلَمَمْالِكِ فَتْحُ قَلْعَةَ مَنْبَجِ فَلْيَهنْ هَذَا اَلنّصر كُلّ مُتوجِ

أَعْطْيتَ هَذَاْ اَلْفَتحَ مْفَتْاَحَاً بِهِ فِيِ اَلَممْاْلِكِ كُل بَاْبٍ مُرْتَجِ

قَدْ سِرْتَ فِيْ اِلْإِسَلام أَحْسَنَ سِيْرةٍ مَأثُوْرَةٍ وَسَلَكْتَ أوُضَحَ مَنْهَجٍ [4]

وتمكن زنكي من الاستيلاء على قلعة جعبر، التي امتازت بحصانتها المنيعة [5] وبضمها حقق ما تمناه والده، واستطاع أن يضم الرقة [6] والخابور [7].

واستطاع نور الدين زنكي أن يأخذ العديد من الإجراءات لترتيب أوضاع الموصل، وولى عليها أشخاصًا من مماليكه، فعيّن على قلعتها مملوكه سعد الدين كمشتكين [8]، وانتزع حران ونصبين والخابور والمجدل من إمارة الموصل واقتطعها لأمراء عسكره [9].

وبعد أن نجح (نور الدين زنكي) في ضمه للإمارات المحلية، لا سيما دمشق، انصرف لتحقيق الشطر الثاني من السياسة الزنكية، ألا وهو الجهاد ضد الإفرنج (الصليبيين)، لذلك اتجه لوضع خطة لمواصلة جهاده.

بدأ (نور الدين زنكي) في عام (543هـ/ 1148م) جهاده، وقصد حصن حارم، الذي يملكه الصليبيون وفرض حصاره عليه، وبعد الدخول معهم في معركة استطاع إلحاق الهزيمة بهم، وأخذ الحصن، "فغزا نور الدين

---

([1]) رانسيمان، المرجع السابق، ص 333.

([2]) حران مدينة قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان، وهي أول مدينة بنيت بعد الطوفان، ينظر صفي الدين عبد المؤمن البغدادي، مراصد الاطلاع على الأمكنة والبقاع، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ج1، 1954م، ص 389.

([3]) منبج ، بلدة فسيحة الأرجاء صحيحة الهواء يحف بها سور عتيق ممتد من الغابة، تحف بغربيها وبشرقيها بساتين ملتفة الأشجار، مختلفة الثمار، والماء يطرد فيها ويتخلل جميع نواحيها، ينظر ابن جبير، المصدر السابق، ص 176.

([4]) أبو شامة، المصدر السابق، ج2، ص 381.

([5]) الحلبي، المصدر السابق، ص 47.

([6]) الرقة تسمى البيضاء، وهي مدينة قديمة رومية، فبنى المنصور إلي جانبها مدينة سماها الرافقة عام 75هـ/ فخربت الأولى، والاسمان واقعان على مدينة واحدة، وبها المن والمرا وهما نهران، شمس الدين الأنصاري، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، (د. ت)، 1923م، ص 191.

([7]) الخابور، اسم لنهر عظيم بأرض الجزيرة مخرجه من عيون رأس عين، يسقى كوره كثيرة، والخابور مدينة في شرقي دجلة، ياقوت الحموي، المشترك وضعًا والمفترق صفعًا، مكتبة المثنى بغداد، 1846م، ص 150.

([8]) سعد الدين كمشتكين خادم نور الدين وزن داره على قلعة الموصل، ثم صاحب حصن حارم، ونائب حلب للملك الصالح إسماعيل، قتله الملك الصالح بتهمة قتل الوزير ابن العجمي، البنداري، مختصر البرق الشامي، تحقيق، فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي القاهرة، 1979م، ص 36.

الصفدي، المصدر السابق، ج24، ص 367.

([9]) لمزيد من التفاصيل عن ضم الإمارات ينظر، ابن الأثير، الباهر، المصدر السابق، ص 152 وما بعدها.. ومحمد مؤنس عوض، في الصراع الإسلامي الصليبي، السياسة الخارجية لدولة النورية (541 – 569هـ / 1146 – 1174م)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1998م، ص 116 – 117 وما بعدها.. وبسام العسلي، المرجع السابق، ص 114 وما بعدها.

محمود زنكي بلد الفرنج من ناحية أنطاكية، وقصد حصن حارم، وهو للإفرنج فحاصره وخرب ربضه، ثم رحل إلى حصن انب فحاصره أيضًا، فاجتمع الإفرنج مع صاحب أنطاكية وحارم، وساروا إلى نور الدين ليرحلوا عن انب، واقتتلوا قتالًا عظيمًا، وباشر نور الدين القتال فانهزم الفرنج أقبح هزيمة، وقُتل منهم جمع كثير" [1].

ويبدو أن الإفرنج ـ الصليبيين سرعان ما اجتمعوا لمواجهة زنكي، فهم على دراية تامة بأن قوته وعزمه أكبر من وجودهم، لذلك كانت هزيمتهم نكراء على يده، على الرغم من وجودهم بكامل قوتهم التي جمعوها لمواجهته، "وكان ممن قتل ذلك اليوم البرنس صاحب أنطاكية، وكان من عظماء الفرنج وأقويائهم" [2]، ولم يكتف زنكي بذلك، بل أخذ رأسه وعاد إلى حلب "... فأراح الله البلاد، وكف العباد منه، وحمل رأسه إلى نور الدين وعاد إلى حلب بالغنائم العظيمة والأسرى فبعث بعضها إلى أخيه والخليفة..." [3].

ويتبين أن زنكي قد استطاع فرض هيمنته على الإفرنج (الصليبيين)، وقتل أعدادًا كبيرة منهم، حتى أمير أنطاكية نفسه استطاع التخلص منه بقتله، فهذا يدل على مدى القوة التي وصل إليها وفهمه ووعيه للجهاد.

ولم يقف (زنكي) عند هذا الحد، بل استمر في جهاده ضدهم، ففي عام (545هـ/ 1150م) اتجه نور الدين إلى أفامية [4] وسرعان ما وصلت الحشود الإفرنجية للدفاع عنها، "وسار نور الدين محمود إلى أفامية، فالتجأ الفرنج إلى حصنها فقاتله، واجتمع الإفرنج وساروا إليه ليرحلوه عنه فوجدوه قد ملكه، وملأه من الرجال والذخائر" [5].

هذا وقد جمع نور الدين قواته بها لملاقاة (جوسلين)، وقد عرف هذا الأخير بشجاعته، إذ هزمه (زنكي) بجيشه "وجمع نور الدين العساكر إلى بلاد جوسلين الفرنجي ليملكها، وكان جوسلين من أشجع الإفرنج وأسداهم رأيًا، فجمع الإفرنج (الصليبيون) وأكثر، وسار إلى نور الدين، والتقيا، فانهزم المسلمون، وقتل منهم وأسر" [6].

ولم تنتهِ الأحداث عند انهزام المسلمين، بل أكثر من ذلك، حيث أسر (جوسلين) سلاح نور الدين، وأخذه إلى الملك (مسعود بن قلج أرسلان)، "وكان سلاح نور الدين ممن أسر، فأخذ جوسلين سلاحه، فسيره إلى الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونيه وقال: هذا سلاح زوج ابنتك" [7].

ولعل حدوث شيء كهذا يعد مؤسفًا عند نور الدين فهو بمثابة الهزيمة، لذلك أخذ يعد العدة للانتقام منه لرد اعتباره، واعتبار المسلمين، فاستخدم حيله ليوقعه بها، فطلب من أمراء التركمان مساعدته مقابل إعطائهم المال،

---

([1]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 302. ابن الأثير، الباهر، المصدر السابق، ص 98. ابن العديم، ص 298 – 299.

([2]) ابن العديم، المصدر السابق، ص 299. قاضي بن شهبه، المصدر السابق، ص 130.ابن كثير، المصدر السابق، ص 248.
رسائل جاك دي فيتري (دراسة وثائقية في تاريخ العلاف بين الشرق والغرب 1200هـ / 1240م) ترجمة، عبد اللطيف عبد الهادي السيد، المكتب الجامعي الحديث، 2005م، ص 256.

([3]) قاضي بن شهبه، المصدر السابق، ص 130 – 131.

([4]) أفامية مدينة حصينة من سواحل الشام، وكوره من كور حمص، ينظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، المصدر السابق، ج1، ص227.

([5]) ابن الأثير، الباهر، المصدر السابق، ص 100. ابن العديم، ص 301.قاضي بن شهبه، المصدر السابق، ص 131.

([6]) ابن الأثير، الباهر، المصدر السابق، ص 100.ابن العديم، المصدر السابق، ص301. عادل عبد الحفيظ شحاتة، العلاقات السياسية بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الإسلامي (543 – 648هـ /1152 – 1650م)، مكتبة مدبولي القاهرة، 1989م، ص 63.

([7]) أبو شامة، المصدر السابق، ص72.ابن العديم، المصدر السابق، ص 301.ابن واصل، ج1، المصدر السابق، ص123.

"وجعل يفكر في حيلة يحتال بها على جوسلين، فأحضروا أمراء التركمان، وبذل لهم الرغائب إن ظفروا بجوسلين، فجعلوا عليه العيون، فخرج إلى الصيد فظفر به طائفة من التركمان، فصانعهم على مال يؤديه إليهم، فأجابوه إلى إطلاقه إذا أحضر المال، وأرسل في إحضاره وأخذ جوسلين أسيرًا" [1].

ويوضح رانسيمان تفاصيل وقوع جوسلين بالأسر، " بينما كان جوسلين متجهًا إلى أنطاكية للتشاور مع حكومتها هناك، انفصل عن حرسه المرافق له، ووقع في أيدي بعض التركمان المنفصلين من الباحثين عن المغانم، وكانوا على استعداد لإطلاق سراحه لقاء فدية ثمينة، لولا أن سمع نور الدين باعتقاله، فأرسل فصيلة من الفرسان لتأخذه من آسريه" [2].

ليس هناك اختلاف كبير بين النصين، فكلاهما يتفق بأن التركمان هم من ساعدوا زنكي في أسر جوسلين.
استخدم (نور الدين زنكي) كل الطرق لأسر جوسلين، وبأسره رد اعتباره وهيبته، فهذا يدل على مدى أهمية سلاح المجاهد إن وقع في الأسر من عدوه، فعد نور الدين ذلك إهانة له، لم يهدأ له بال إلا عندما أعاد لهيبته مكانتها، فاعتبر قيمة السلاح من قيمة المجاهد، "وكان أسره من أعظم الفتوح على المسلمين، فإنه كان شيطانًا عاتيًا من شياطين الفرنج، شديد العداوة للمسلمين، وكان هو يتقدم على الفرنج في حروبهم، لما يعلمون من شجاعته وجودة رأيه، وشدة عداوته للملة الإسلامية، وقوة قلبه على أهلها، وأصيبت النصرانية كافة بأسره..." [3].

وبموت جوسلين سهل (لنور الدين) فتح حصون عدة تابعة له، وما إن علم الإفرنج بذلك حتى تسارعوا إليه ليمنعوه عن ذلك، ولكن (زنكي) استطاع إلحاق الهزيمة بهم. "فسار نور الدين عن ذلك إلى قلاع جوسلين، ففتح عزار بعد الحصار، وفتح تل باشر [4] وتل خالد [5]، وفتح عين تاب [6]، وفتح قورس [7] وبرج الرصاص [8] وحصن البيرة وكفر سود ومرعش [9] ونهر الجوز، وتجمع الإفرنج وساروا إليه وهو ببلاد جوسلين ليمنعوه عن

---

([1]) أبو شامة، المصدر السابق، ص 72.ابن العديم، المصدر السابق، ص 302.قاضي بن شهبه، المصدر السابق، ص 136 – 137.

([2]) رانسيمان، المصدر السابق، ص 380. حسن عبد الوهاب حسين، مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، 1999م، ص 117.

([3]) أبو شامة، المصدر السابق، ص 72.

([4]) تل باشر، قلعة حصينة وكوره واسعة في شمالي حلب، بينها وبين حلب يومان وأهلها نصارى أرمن، ولها ربض وأسواق وهي عامرة آهلة، ينظر ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج2، ص 40.

([5]) تل خالد، قلعة من نواحي حلب، ينظر المصدر نفسه، ج2، ص 41.

([6]) عين تاب، قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية وكانت تعرف بدلوك ورستاقتها وهي الآن من أعمال حلب، ينظر، المصدر نفسه، ج4، ص 176.

([7]) قورس، مدينة أثرية بها آثار قديمة وكوره من نواحي حلب وهي الآن خراب بها آثار باقية، ينظر المصدر نفسه، ج4، ص 412.

([8]) برج الرصاص، قلعة لها رساتيق من أعمال حلب، قرب أنطاكية، ينظر المصدر نفسه، ج1، ص 373.

([9]) مرعش، مدينة في ثغور الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق، وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني، ينظر المصدر نفسه، ج5، ص 107.

فتحها، فلما قربوا منه رجع إليهم ولقيهم عند دلوك [1]، واقتتلوا فانهزم الفرنج وقُتل منهم وأسر عدد كثير، وعاد إلى دلوك وفتحها" [2].

ولم تنجح محاولات الإفرنج في وجه نور الدين، لأنه كان يحصن المدن والقلاع التي كان يفتحها بالرجال والذخائر لمدة تكفيها عشر سنوات [3].

يتضح من خلال النص السَابق أن (زنكي) قد تيسر عليه فتح الحصون، عقب موت جوسلين، وقد أيقن الإفرنج أنهم قد خسروا جل أملاكه، وأنهم ليس بمقدورهم التصدي لنور الدين زنكي الذي فاقهم عددًا وقوة آنداك.

وعقب ذلك سار (نور الدين زنكي) إلى دمشق وفتحها عام (549هـ/ 1154م)، لأن الإفرنج عقب أخذهم عسقلان من المصريين طمعوا بأن يأخذوا دمشق أيضًا، الأمر الذي أثار غيرة نور الدين، فقرر ضمها، غير أن ضمها لم يكن بالأمر السهل لأن حاكمها كان على علاقة وطيدة مع الإفرنج (الصليبيين).

ويؤكد المؤرخ (ابن الأثير) أن الإفرنج ـ الصليبيين أصبحوا بعد الاستيلاء على عسقلان على جانب كبير من البأس، "ففوي الإفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق، واستضعفوا مجير الدين وتابعوا الغارات على أعماله" [4].

وبذلك انحدر موقف دمشق إلى أن دخلت تحت حماية الإفرنج فعلًا، وأصبح أهلها يدفعون ضريبة سنوية لمملكة بيت المقدس، "وطمع الإفرنج في دمشق، وجعلوا عليها قطيعة يأخذونها منهم في كل سنة، فخاف نور الدين أن يملكها الإفرنج، فاحتال في أخذها لعلمه أن أخذها بالقهر يصعب لأنه متى نازلها راسل صاحبها الفرنج مستنجدًا بهم، وأعانوه خوفًا من نور الدين أن يملكها فيقوى بها عليهم" [5].

من خلال النص سابق الذكر، نجد أن (زنكي) يدرك حقيقة (معين الدين آنر)، فقد كان يخشاه أكثر من خشيته للإفرنج، لذلك عمل جاهدًا على ضم إمارته قبل وصول الإفرنج إليها، لأن دمشق كانت حائلًا لوالده لتحقيق الوحدة في بلاد الشام والعراق لمواجهة الاعتداء الخارجي.

تقرب من (معين الدين آنر)، وأظهر له مودة ووصله بالهدايا حتى وثق به، وفي الوقت نفسه عمل على الإيقاع بينه وبين كبار رجال دولته، فكان يبعث إليه رسائل بين الحين والآخر، يخبره بأنه تلقى عروضًا من بعض أمراء دمشق للتدخل ضده، ولكنه يرفض ذلك حرصًا منه على المودة التي بينهما [6]، وهذا ما جعل (معين الدين آنر) يعمل على إرسال من يعمل على تهدئة الأمور بينه وبين (محمد بن بوري)، "فراسل مجير الدين أبق بن محمد بن بوري صاحبها، واستماله وهاداه وأظهر له المودة حتى وثق به، فكان يقول له في بعض الأوقات

---

([1]) دلوك بليدة من نواحي حلب بالعواصم، كانت بها وقعة لأبي فراس بن حمدان مع الروم، ينظر ياقوت الحموي، ج2، ص 461.

([2]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 301.ابن العديم، المصدر السابق، ص 302 – 303.قاضي بن شهبه، المصدر السابق، ص 144.عادل عبد الحفيظ شحاتة، المرجع السابق، ص 64.

([3]) ابن الأثير، الباهر، المصدر السابق، ص 106.ابن واصل، المصدر السابق، ص 126.

([4]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص106.ابن العديم، المصدر السابق، ص304.ابن واصل، المصدر السابق، ص 126.

([5]) ابن الأثير، الباهر، المصدر السابق، ص 106.ابن العديم، المصدر السابق، ص 304.ابن واصل، المصدر السابق، ص 126.

([6]) بسام العسلي، المرجع السابق، ص 93.

إن فلانًا قد كاتبني في تسليم دمشق، يعني بعض أمراء مجير الدين فكان يبعد ذلك عنه، ويأخذ إقطاعه، فلما لم يبق عنده أحد من الأمراء" [1].

وأصبح بإمكان نور الدين ضم دمشق للوحدة الإسلامية دون صعوبة، وقد كاتب أهلها واستمالهم فمال الناس إليه. فلجأ نور الدين إلى إرسال شيركوه [2] في سفارة إلى دمشق غير أن (معين الدين آنر) سرعان ما لاحظ تلك السفارة أنها جاءت مصحوبة بمظاهر عسكرية خلاف ما جرى عليه الوضع في السفارات الدبلوماسية، لذلك رفض مقابلة السفير، بل رفض مجرد السماح له بدخول المدينة وعدّ نور الدين ذلك التصرف إهانة له، فزحف فورًا على دمشق (549هـ/ 1154م، أما (معين الدين آنر) فلم يكن بوسعه سوى الاستنجاد بالإفرنج، لأنه خسر كل قوته، فأرسل إليهم يستصرخهم لنجدته، "وبذل لهم الأموال وقلعة بعلبك إن هم رحلوا نور الدين عنه" [3].

ووجدها الإفرنج (الصليبي) فرصة سانحة لهم لتوجيه ضربتهم (لنور الدين)، ولم يكن بلدوين الثالث بالخطر إن تمكن نور الدين من تحقيق هدفه، لأن ذلك يسهل عليه توجيه ضربته ضد مملكة بيت المقدس، لذلك نجده يسرع لنجدة دمشق، حتى لو لم يكن هناك ما وعده به أبق من الأراضي الشامية [4]، وبالفعل تسلم نور الدين دمشق قبل وصول الإفرنج، "وصاح أصحابه نور الدين يا منصور" [5].

ويصف (رانسيمان) حالة أهالي دمشق عشية دخول نور الدين لها "وفي تلك الأثناء استقبل مواطنو دمشق نور الدين بآيات البهجة البالغة، ومنع جنوده النهب" [6]، وهذا يؤكد أن أهالي المدينة قد ضاقوا ذرعًا من (معين الدين آنر) فكانوا ينتظرون ساعة الفرج، لأنهم أيقنوا أن الوحدة الإسلامية شرط أساسي لطرد أي عدو خارجي.

وحين تسلم نور الدين المدينة كان (معين الدين) محاصرًا في القلعة فسلم نفسه، وبذل له نور الدين إقطاعًا من جملته مدينة حلب [7]، "وكان مجير الدين لما أحس بالغلبة والقهر قد انهزم في خواصه إلي القلعة، وأنفذ إليه وأمن على نفسه، وخرج إلى نور الدين فطيب نفسه، ووعده بالجميل، ودخل القلعة"[8].

يوضح النص السابق أن نور الدين قد اتبع سياسة لينة وعادلة مع أبق، على الرغم من تعاونه مع الإفرنج، لذلك عوضه بدل دمشق حمص فأخذها منه وعوضه ببالبس، ولعل ذلك راجع لسياسة نور الدين [9].

وبعد أن ضم دمشق اتجه إلى حارم (551هـ/ 1156م)، وفرض حصاره عليها، وسرعان ما اجتمع الإفرنج لمواجهته غير أنهم أيقنوا أنهم لن يستطيعوا التغلب عليه، فطلبوا منه الأمان مقابل إعطائه نصف أعمال حارم

---

([1]) ابن الأثير، الباهر، المصدر السابق، ص107.ابن العديم، المصدر السابق، ص 304.
([2]) أسد الدين شيركوه بن شاوي عم صلاح الدين الأيوبي، كان في خدمة السلطان نور الدين وتولى أسد الدين الوزارة بمصر لمدة شهرين وتوفي، فجأة عام 564هـ ودفن بها ثم نقل إلي المدينة المنورة، ينظر البصراوي، المصدر السابق، ص 420.
([3]) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ص407. الباهر، المصدر السابق، ص107.رانسيمان، المرجع السابق، ص392.
([4]) حسن حبشي، المرجع السابق، ص71.
([5]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 327.
([6]) رانسيمان، المرجع السابق، ص 392.
([7]) رفيق التميمي، الحروب الصليبية، مطبعة القدس، 1945م، ص 114.
([8]) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص 327.
([9]) قاضي بن شهبه، المصدر السابق، ص 146.

"سار نور الدين محمود بن زنكي إلى قلعة حارم، وهي للإفرنج وحاصرها، وضيق على أهلها وهي قلعة منيعة، فاجتمعت الإفرنج من قريب منها ومن بعدها، وساروا نحوه ليرحلوه عنها، وكان بالحصن شيطان من شياطينهم يعرفون عقله ويرجعون إلى رأيه، فأرسل إليهم يقول: إننا نقدر على حفظ القلعة وليس بنا ضعف، فلا تخاطروا أنتم باللقاء، فإنه إن هزمكم أخذها وغيرها، فأرسلوا إليه وصالحوه على أن يعطوه نصف أعمال حارم، فاصطلحوا على ذلك ورحل عنهم" [1].

ويتضح من النص السابق أن الإفرنج قد بلغوا درجة كبيرة من الضعف، فلم يعد بمقدورهم مواجهة (نور الدين زنكي)، لذلك رأوا الصلح خير وسيلة لهم بدل الدخول في مواجهة محسومة لديهم لصالح (زنكي).

ويصف رانسيمان حالتهم، "وعلى الرغم من أن الممتلكات الإفرنجية كانت أوسع في مساحتها وأغنى في مواردها، كان لممتلكات نور الدين ميزة الوحدة في ظل سيد واحد لا يكاد يضايقه أحد من أتباعه، كما كان يعاني الفرنج من أتباعهم المتعجرفين" [2]، وفي عام (558هـ/ 1162م) اتجه نور الدين إلى طرابلس، ونزل في البقيعة، وما إن وصل نبأ وصوله للإفرنج، حتى تسارعوا لمواجهته، " ثم جمع العساكر في سنة ثمان وخمسين وخمس مئة، ودخل إلى بلاد الإفرنج، ونزل في البقيعة تحت حصن الأكراد محاصرًا لـه، وعازمًا على أن يقصـد طرابـلس" [3].

ويبدو أن الإفرنج كانوا دائمًا على أهبة الاستعداد لمواجهة نور الدين، فكلما وصل إليهم نبأ دخوله لأحد ممتلكاتهم، سرعان ما يجتمعون لملاقاته، غير أن هذه المرة استطاعوا هزيمة نور الدين وقواته "فأرسلوا إلى نور الدين يعرفونه الحال، فأرهقهم الفرنج بالحملة فلم يثبت المسلمون، وعادوا يطلبون معسكر المسلمين والفرنج في ظهورهم، فوصلوا معًا إلى المعسكر النوري، فلم يتمكن المسلمون من ركوب الخيل، وأخذ السلاح، فأكثروا القتل والأسر وكان أشدهم على المسلمين الدوقس الرومي، فإنه كان قد خرج من بلاده إلى الساحل في جمع كثير من الروم، فقاتلوا محتسبين في زعمهم فلم يبقوا على أحد، وقصدوا خيمة نور الدين، وقد ركب فيها فرسه، ونجا بنفسه ونزل بحيرة قدس" [4] وبعد ذلك لحق به من نجا من قواته من بطش الإفرنج، فأشاروا عليه أن يرحلوا قبل وصولهم إليه، إلا أنه أبى ورفض، "وتلاحق به من سلم من العسكر، وقال بعضهم: ليس من الرأي أن نقيم ها هنا، فإن الفرنج ربما حملهم الطمع على المجيء إلينا، فوبخه وأسكته، وقال إذا كان معي ألف فارس لقيتهم، ولا أبالي بهم، والله لا أستظل سقفًا حتى آخذ بثأري، وثأر الإسلام" [5].

---

([1]) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ص 413.أبو شامة، المصدر السابق ص 100- 101.قاضي بن شهبه، المصدر السابق، ص 149.

([2]) رانسيمان، المرجع السابق، ص 393.

([3]) ابن الأثير، الباهر، المصدر السابق، ص 116.ابن العديم، المصدر السابق، ص 312.قاضي بن شهبه، المصدر السابق، ص 160.

([4]) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ص 466.الباهر، المصدر السابق، ص 117.أبو شامة، المصدر السابق ص 167.

([5]) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ص 466.ابن العديم، المصدر السابق، ص 314. قاضي بن شهبه، المصدر السابق، ص 161.

لم يقبل نور الدين الهزيمة له وللمسلمين، لذلك لم يهدأ حتى يعيد لهيبته مكانتها بين الفرنج (الصليبيين)، وليس بالأمر السهل أن يقبل الهزيمة من عدوه، خاصة بعد أن حقق انتصارات عليهم، لذلك كان من الضروري أن يضع لذلك الأمر حدًا. راسل حلب ودمشق، وعوض الناس مما خسروا في حربهم مع الإفرنج (الصليبيين)، وأعاد لهم الروح المعنوية "ثم أرسل إلى حلب ودمشق وأحضر الأموال والثياب والخيام والسلاح، فأعطى الناس عوض ما أخذ منهم، فعاد العسكر كأن لم تصبه هزيمة".

أما الإفرنج ـ الصليبيون، فكانوا عازمين على النزول بحمص، ولكن بعد سماعهم نبأ نزول نور الدين بالقرب منها، لم يفعلوا ذلك، فقد كانوا على دراية بقوة نور الدين "وأما الإفرنج فإنهم كانوا عازمين على قصد حمص بعد الهزيمة، لأنها أقرب البلاد إليهم، فلما بلغهم نزول نور الدين بينها وبينهم قالوا: لم يفعل هذا إلا وعنده قوة يمنعنا بها".

وبالفعل استطاع نور الدين أن يفرض سيطرته عليهم، فقد كانوا يخشون منه لأنهم يدركون أن هزيمتهم على يده، ولذلك راسلوه يطلبون منه الصلح، فلم يعطهم ذلك، "ثم إن الإفرنج راسلوا نور الدين يطلبون منه الصلح فلم يجبهم، وتركوا عند حصن الأكراد من يحميه وعادوا إلى بلادهم" [1]، وبذلك تم النصر له على الرغم من عدم مقاتلته إياهم، ولكن خضوعهم له وطلبهم الصلح يُعد نصرًا كبيرًا للمسلمين.

**ثانيًا- إنهاء الخلافة الفاطمية وتوحيد مصر والشام في مواجهة العدو والاحتلال الإفرنجي ـ الصليبي**

استطاع (نور الدين زنكي) أن يجتاز أهم الصعاب التي واجهته، وأهمها توحيد بلاد الشام تحت قيادته، وأن يستثمر إمكاناتها وطاقاتها ضد الإفرنج، وأدرك الإفرنج أنهم أعجز من أن يجابهوا هذه القوة المترامية الأطراف، فأخذوا في البحث عن جهة يستطيعون من خلالها تحقيق هدفهم، ألا وهو إضعاف قوة المسلمين، وسرعان ما توصلوا إلى حل آخر تمثل في التوجه شطر المغرب، إذ كانت الأوضاع في مصر ملائمة لتحقيق هدفهم، خاصة أن الدولة الفاطمية كانت تعيش المراحل الأخيرة من عمرها، بعد أن مزقت النزاعات والصراعات على السلطة كيانها [2]، وهذا ما ذهب إليه صاحب كتاب الإعلام والتبيين بقوله: "بعدما وحّد (نور الدين الشام والجزيرة نظر أمامه فرأى مصر بطاقاتها الهائلة، ومواردها الكبيرة الجبارة، وكان الحكم في مصر على غاية من الضعف والتمزق والاضطراب، وتوجه نور الدين بأنظاره نحو مصر، كي يُنقذها من فوضاها، وكي يداخل إليها الروح الجديدة التي بالشام، وحتى تستخدم موارد مصر، وتزج طاقاتها في المعركة بدلًا من التبعثر والهدر والضياع" [3].

كانت الخلافة الفاطمية في مصر قد آلت عام (555هـ/ 1160م) إلى العاضد لدين الله، إذ لم يكن والده بالخليفة الفاطمي، بل كان أحد أقاربه، وجاء به إلى الخلافة الوزير الأرمني طلائع بن رزيك، "دخل الصالح بن رزيك

---

([1]) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ص 466.
([2]) حسن حبشي، المرجع السابق، ص 101.قاسم عبد قاسم، ماهية الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص140.
([3]) مؤلف مجهول، الإعلام والتبيين، المصدر السابق، ص50.

القصر واستدعى خادمًا كبيرًا، وقال له: من ها هنا يصلح للخلافة، وأمر حينئذ بإحضار العاضد لدين الله بن محمد عبد الله بن يوسف بن حافظ، ولم يكن أبوه خليفة، وكان العاضد ذلك الوقت مراهقًا قارب البلوغ، فبايع له بالخلافة وزوجه الصالح ابنته" [1].

إن رزيك كان يهدف من وراء هذا التصرف للاستبداد بشؤون الدولة، فرأى في العاضد فرصته لتحقيق ذلك، فلا عجب أن يختار شخصًا بمواصفات العاضد نفسه، وهو على دراية تامة بـأنه قاصر، ولم يطمع بشؤون الدولة، فقط بل تطاول على العاضد نفسه إذ زوجه ابنته آملًا في أن ترزق منه ولدًا، لكي يصبح الوريث الشرعي والخليفة من بعده.

غير أن هذا الوزير لم يهنأ بما خطط إليه، فسرعان ما قتل على يد أحد نساء القصر في عام (556 هـ/ 1161م) [2]، وبقتله فتح باب النزاع للوصول إلى السلطة في مصر، إلى أن آلت الوزارة لابن رزيك [3]، ولكن بوصوله لم تهدأ الأوضاع بل زادت في حدة الصراع القائم آنذاك بين الوزراء للوصول للسلطة، ففي عام (558هـ/ 1163م) قتل ابن رزيك وتسلم طي بن شاور منصب الوزارة في مصر [4]، غير أنه بوصوله للوزارة فتح باب الصراع على مصراعيه بين الوزراء من جديد، فسرعان ما استبد شاور بالسلطة، بل ودخل في نزاع مع الوزير ضرغام، وطرده من القاهرة [5].

لم تنته الأمور بينهم إلى هذا الحد، بل زادت حدتها حينما تطلع ضرغام إلى بيت المقدس لكسب ود ملكها (عموري) الأول، للوقوف معه ضد خصمه شاور، بل وعرض عليه مبلغًا كبيرًا من المال [6].

ويتبين هنا مدى حالة الضعف التي وصلت إليها مصر، ففي سنة واحدة تولى ثلاثة وزراء السلطة، والثلاثة اتخذوا من النزاع طريقًا لهم في الوصول إلى تقلد منصب الوزارة.

أما شاور فسرعان ما اتجه إلى بلاد الشام للاستنجاد (بنور الدين زنكي) (559هـ/ 1164م)، وجرت مباحثات بين الطرفين، وتعهد شاور لنور الدين بأن يدفع له ثلث خراج مصر، وإقامة عدد من أفراد الشام معه في مصر، بالإضافة إلى اعترافه بسيادة (نور الدين زنكي)، مقابل أن يساعده في استعادة منصبه، والقضاء على منافسه

---

([1]) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ص441 - 442.الحنبلي، الأنس الجليل، المصدر السابق، ص 310.
نجم الدين محمد عمارة الحكمي، النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، مكتبة مدبولي القاهرة، ط2، 1991م، ص 53.
([2]) تقي الدين المقريزي، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة، 1967م، ص 254.
نجم الدين الحكمي، المصدر السابق، ص 53.
([3]) محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 319.
([4]) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ج5، ص 546.
([5]) المقريزي، المصدر السابق، ص 260، 264.نجم الدين الحكمي، المصدر السابق، ص 66.قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، المرجع السابق، ص 143.
([6]) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ص 463.

ضرغام [1]، وربما يكون النص الآتي الأقدر على توضيح الأمور "إن شاور وزير العاضد لدين الله، صاحب مصر نازعه في الوزارة ضرغام وغلب عليه، فهرب شاور منه إلى الشام، ملتجئًا إلى نور الدين مستجيرًا به، وطلب منه إرسال العساكر معه إلى مصر ليعود إلى منصبه، ويكون لنور الدين ثلث دخل البلاد، وبعض إقطاعات العساكر، ويتصرف هو بأمر نور الدين واختياره" [2].

ويتبين من كل ذلك أن شاور كان على استعدادٍ تام أن يدفع كل ما لديه من أجل عودته لمنصبه السابق، فقد رأى في نور الدين الشخص المناسب لمساعدته، وبذلك تعهد بأن يدفع ثلث خراج مصر، وأن يعترف بسيادة نور الدين، وكل هذا من أجل منصب الوزارة، غير أن نور الدين تردد في إجابة طلب شاور، تدفعه أحيانًا رغبة السيطرة على مصر وزيادة نفوذه وقدرة المسلمين على مواجهة الإفرنج، وتارة أخرى يمنعه خطر إرسال جيشه الذي قد يتعرض لتهديد الفرنج، غير أنه أخيرًا اتخذ قراره بإرسال جيشه لمصر [3].

ويصف المؤرخ (المقريزي)، حالة نور الدين بقوله: "فبقى نور الدين يقدم إلى هذا العرض رجلًا ويُؤخر أخرى، فتارة يقصد رعاية شاور لكونه التجأ إليه، وكونه ما قاله زيادة في ملكه وتقوية له على الفرنج، وتارة يخشى خطر الطريق وكون الفرنج فيه، ويخاف من شاور أنه إذا استقرت قدمه في مصر، يخلف بما وعده، ثم قوى عزمه على إرسال الجيوش، فتقدم بتجهيزها، وإزاحة عللها" [4].

يتضح من خلال النص أن نور الدين كان مترددًا في اتخاذ قراره، فكان يخشى من المصير المجهول، وأيضًا حرصه على سلامة المسلمين من الخطر الإفرنجي، وفي الوقت نفسه إذ تم له النجاح يزداد قوة ونفوذًا، لذلك تردد كثيرًا في اتخاذ قراره، وبعد تفكير طويل قرر إرسال جيوشه لمصر.

وأسندت مهمة قيادة الجيوش للقائد (أسد الدين شيركوه)، ومعه ابن أخيه (صلاح الدين أيوب) [5]، وسارا إلى مصر عام (559هـ/ 1164م) بصحبة شاور، وساروا على الطريق المحدد للحملة عبر الأراضي الإفرنجية (الصليبية) [6].

---

([1]) أحمد بن إبراهيم الحنبلي، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون، العراق، 1978م، ص 25.عادل عبد الحافظ شحاتة، المرجع السابق، ص 71.أسمت غنيم، الدولة الأيوبية والصليبيون، دار المعرفة الجامعية، 1990م، ص 16.

([2]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 468.

([3]) جاكسون، صلاح الدين الأيوبي، تحقيق نقولا زيادة، فهمي سعد، ترجمة على ماصر، الأهلية للنشر والتوزيع بيروت، 1988م ص 18. علي حبيبه، المرجع السابق، ص 90.

([4]) المقريزي، المصدر السابق، ص 264، ص 256.

([5]) صلاح الدين أيوب الملك الناصر، أبو المظفر يوسف نجم الدين أيوب ولد علم 532هـ / بتكريت، إذ أبوه واليها، فقدم به أبوه إلى دمشق وهو رضيع، ونشأ في حجر والده، وسمع الحديث من جماعة المعتبرين، ثم اتصل أبوه نجم الدين أيوب بالملك العادل نور الدين، فخدمه هو وولده صلاح الدين، وهو أول ملوك الأكراد، وأول سلاطين مصر، تسلطن عام 564هـ، وأزال الدولة الفاطمية، ينظر البصراوي، المصدر السابق، ص 239.. والمطلي، نزهة الأساطين فيمن ولي مصر من السلاطين، تحقيق كمال الدين عز الدين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1987م، ص 61.. وتقي الدين المقريزي، المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر بيروت، ج2، (د. ت)، ص 233.

([6]) ابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1964م، ص76.الحنبلي، الأنس الجليل، المصدر السابق، ص 315.قاضي بن شهبه، المصدر السابق، ص 164.

ولكي يبعد أنظار الإفرنج (الصليبيين)عنهم؛ ضمانًا لسلامة أفرادها، رافق نور الدين الحملة إلى دمشق، وأخذ يهاجم الأطراف الشمالية لمملكة بيت المقدس المتاخمة لدمشق، ليَصرف أنظارهم عن مصر "وسار نور الدين إلى طرف بلاد الفرنج مما يلي دمشق بعساكره، ليمنع الفرنج من التعرض لأسد الدين ومن معه، فكان قصارى ما يتمناه الإفرنج حفظ بلادهم من نور الدين" [1].

وبالفعل وصلت الحملة بقيادة شيركوه بأمان إلى بلبيس [2]، وحاول ضرغام التصدي لها، إلا أن شيركوه استطاع التغلب عليه وقتله، وبذلك دخل شيركوه القاهرة، وعاد شاور إلى منصبه في الوزارة [3].

ولما استقر شاور في حكم مصر، أظهر الغدر وأرسل إلى شيركوه يأمره بالعودة إلى الشام، غير أن الأخير امتنع، ولم يكتفِ شاور بذلك، بل راسل الإفرنج يستنجد بهم، ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر، بذلك وجدوها فرصة سانحة بالإغارة على مصر، فلقت دعوته قبولًا دون تردد [4].

ولعل النص الآتي يوضح لنا ذلك "فغدر به شاور، وعاد عما كان قرره لنور الدين من البلاد المصرية و (لأسد الدين) أيضًا، وأرسل إليه يأمره بالعودة إلى الشام، فأعاد الجواب بالامتناع، وطلب ما قد استقر بينهم فلم يجبه شاور إليه، فلما رأى ذلك أرسلوا نوابه فتسلموا مدينة بلبيس، وحكم على البلاد الشرقية، فأرسل شاور إلى الإفرنج يستمد بهم ويخوفهم من نور الدين إن ملك مصر، فلما أرسل شاور يطلب منهم أن يساعدوه على إخراج أسد الدين من البلاد جاءهم فرج لم يحتسبوه، وسارعوا إلى تلبية دعوته، وكان قد بذل لهم مالًا على المسيرة إليه" [5].

يتبين من خلال هذا النص أن شاور كان يخشى من نور الدين، أكثر من خشيته للإفرنج، فقد رأى أن بقاء قوات نور الدين معه في مصر، سوف يُحد من نفوذه، لذلك تخلى عن المواثيق التي كان قد تعهد بها مع نور الدين فور الحصول على مصلحته، وسارع للاستنجاد بالإفرنج (الصليبيين)، وهذا ما يدل على عدم فهم الخطر الإفرنجي، ولعل ذلك راجع إلى عدم تحمل مصر عبء الجهاد ضد الإفرنج، فقد كانت خلال غزوهم لبلاد الشام بعيدة كل البعد عن الأحداث السياسية، فمنذ أن وطئت أقدام الإفرنج بلاد الشام، تحملت الموصل والشام مسؤولية الجهاد ضد الفرنج (الصليبيين)، فغابت مصر عن هذا الدور الجهادي، بسبب وصولها إلى مراحل الشيخوخة، عقب النزاعات القائمة بين وزرائها، فهل يعقل أن يستنجد شاور بالإفرنج، وهو بتصرفه هذا يساعدهم على استمرارهم في البقاء في الأراضي الإسلامية، فبدل أن يفي بوعوده مع نور الدين في المحافظة على الوحدة الإسلامية، نجده يتجه لهم يدعوهم لاحتلال مصر، ولعل خوف نور الدين جاء في محله، لأنه خشي أن ينقض

---

([1]) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ص 468.

([2]) بلبيس مدينة في مصر، تبعد عن الفسطاط عشرة فراسخ على طريق الشام، تسكنها قبيلة عيسر، كان المسلمون قد فتحوها عام 18هـ، إبراهيم محمد ابن دقماق، الانتصار بواسطة عقدة أمصار، مركز الموسوعات العالمية بيروت، ج1، (د.ت) ص4 .

([3]) ابن واصل، المصدر السابق، ص 137، 139.جاكسون، المصدر السابق، ص 19.الحنبلي، شفاء القلوب، المصدر السابق، ص 26-27.قاضي بن شهبه، المصدر السابق، ص 154.

([4]) خاشع المعاضيدي، المرجع السابق، ص 194.
أسمت غنيم، المرجع السابق، ص 16.

([5]) ابن الأثير، المصدر السابق، ص 469.أبو شامة، المصدر السابق، ص 131.

شاور وعوده، وبالفعل هذا ما حدث، فشخصية مثل شاور قد اتصفت بالطمع وحب السلطة والمال، لذلك فلا عجب أن يظهر منه مثل هذا التصرف.

وما إن وصلت الأنباء لنور الدين، حتى اتجه بقواته إلى الأراضي الإفرنجية، ليمنعهم من الوصول إلى مصر، غير أنهم قد وصلوا مصر وحاصروا شيركوه، ولكن حصارهم لم يستمر طويلًا، لأنه وصلهم نبأ نور الدين في أراضيهم، فآثروا العودة إلى الشام، لا سيما بعد أن أيقنوا امتناع شيركوه في التخلي عن بلبيس [1].

فبعد مغادرة الإفرنج، كان موقف شيركوه هو الآخر حرجًا، فالمؤن بدأت بالنفاد، وبذلك غادر الطرفان مصر، وتوجها إلى بلاد الشام، وبقى شاور المسيطر على زمام الأمور [2].

لم يكن التنافس بين (نور الدين زنكي) والإفرنج حول مصر قد وقف عند هذا الحد، لا سيما بعد أن فقد كل منهما تحقيق هدفه لضمها، لذلك بدأت المنافسة بينهما من جديد.

كان شيركوه قد حاول مرارًا إقناع نور الدين بتوجيه حملة كبيرة للاستيلاء على مصر، وضمها لبلاد الشام لا سيما بعد أن عهد إليه الخليفة العباسي (المستنجد بالله) [3] مهمة مصر، كما كان للخليفة الفاطمي (العاضد) الدور الأكبر في تحفيزه على القدوم نحو مصر، خاصة بعد أن استنجد به ضد استبداد شاور [4]. لذلك كانت هذه العوامل مشجعة (لنور الدين) لإرسال حملته الثانية على مصر، ولكن هذه المرة بأمر من الخليفة العباسي والفاطمي معًا لمواصلة مسيرته الجهادية، لتوحيد مصر مع بلاد الشام.

وبالفعل أسندت قيادة الحملة لأسد الدين شيركوه ومعه صلاح الدين الأيوبي، الذي كان مكرهًا على المسير، وانطلقا إلى أن وصلا الجيزة [5].

وأما شاور فلما بلغه مجيء شيركوه سرعان ما أرسل للإفرنج يستنجدهم، فتوجهت قواتهم مع شاور إلى الجيزة، وعلى الرغم من التفوق العددي على شيركوه فإنه استطاع التغلب عليهم، فولى الفرنج منهزمين، فكان هذا أعجب ما يُؤرّخ "أن ألفى فارس يهزمون عساكر مصر وفرنج الساحل" [6].

بذلك عادت الثقة للمسلمين فارتفعت روحهم المعنوية، كما أعطت هذه المعركة طابعًا جهاديًا ضد الإفرنج، فبدأ أهل مصر يستعدون لمواجهة الإفرنج بدافع الجهاد، كما أيقن أهلها بأن الإفرنج (الصليبيين) إن ملكوا بلادهم لن يستطيعوا استرجاعها، لذلك وقفوا ضد شاور، وكان لهذه المعركة دور في ظهور شخصيات جديدة أدت دورًا بارزًا على الساحة الإسلامية آنذاك، منهم (أسد الدين شيركوه) وصلاح الدين الأيوبي.

---

([1]) رفيق التميمي، المرجع السابق، ص 120.

([2]) سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 331.

([3]) الخليفة المستنجد بالله، اسمه يوسف، ويكنى أبا المظفر بويع له بالخلافة عام 550هـ، وكانت له هيبة عظيمة، ينظر ابن الجوزي، المصباح المضيء، المصدر السابق، ج1، ص 598.

([4]) الحريري، المرجع السابق، ص 87.

([5]) ابن شداد، المصدر السابق، ص 77.قاضي بن شهبه، المصدر السابق، ص 169.

([6]) ابن الأثير، الباهر، المصدر السابق، ص 13.أبو شامة، المصدر السابق، ص 143.الذهبي، تاريخ الإسلام، المصدر السابق، ص 8.

لم يقف شيركوه عند هذا الحد، بل اتجه إلى الإسكندرية التي تسلمها دون قتال، وعيّن عليها ابن أخيه صلاح الدين، وذهب هو إلى الصعيد التي تسلمها هي الأخرى، وجبى الأموال فيها، وأثناء وجوده في الصعيد حاصر الفرنج صلاح الدين، فاشتد حصارهم، ولم يتمكن الأخير من رد المحاصرين، فدخل في صلح معهم، "وجبى ما في القرى من الأموال، ووصل إلى الإسكندرية فتسلمها بمساعدة من أهلها، وسلموها إليه فاستناب بها صلاح الدين ابن أخيه، وعاد إلى الصعيد فملكه وجبى أمواله وأقام به، أما المصريون والفرنج فإنهم عادوا واجتمعوا على القاهرة، وأصلحوا حال عساكرهم، وجمعوا وساروا إلى الإسكندرية، فحصروا صلاح الدين بها، واشتد الحصار، وقل الطعام على من بها، فوصل رسل الإفرنج يطلبون الصلح، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى من أخذه من البلاد، فأجابهم إلى ذلك" [1].

ومن شروط الصلح أن يرحلوا عن مصر، كلا الطرفين، غير أن الإفرنج اتفقوا مع شاور على ترك حامية عسكرية لهم بالقاهرة، لحماية مصر من خطر نور الدين، واتفقوا مع شاور أيضًا على مال معلوم يدفعه لهم سنويًا، قدره مئة ألف دينار [2]، "أما الإفرنج، فإنهم استقر بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة بيد فرنسانهم، ليمتنع نور الدين من إنقاد عسكر إليهم، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مئة ألف ..هذا كله استقر مع شاور" [3].

ويتضح من هذه الاتفاقية أن الملك (عموري الأول) ما زالت تراوده فكرة احتلال مصر، وكان على أمل العودة إليها مرة أخرى، ولكن بعد هدوء الأوضاع قليلًا في الشام، حتى وإن فكر (نور الدين زنكي) العودة إليها تكون حاميته الأسبق لضمها والتصدي له.

وما يثير العجب والاستغراب هنا، موقف الخليفة الفاطمي (العاضد)، فهو لم يرض بهذه الاتفاقية فكان مغلوبًا على أمره، ولم يكن له من الأمر شيء وهذا يوضح مدى ضعف كلمته وسلطته، وفي المقابل يوضح مدى استبداد شاور بالسلطة لدرجة أن يعقد اتفاقيات ويوقعها دون رضا وعلم الخليفة، وهنا يتبين لنا مدى مكانة شاور السياسية التي وصل إليها، ومدى خيانته وعدم حرصه على البلاد وغيرته على دينه، وبذلك كانت المصلحة العامة هي السائدة على تفكيره.

وبالفعل نجح الإفرنج (الصليبيون) في تحقيق ما يهدفون إليه، حيث راسلهم أفراد حاميتهم الموجودة بمصر، يحرضونهم على امتلاك مصر، موضحين لهم ما آلت له الأوضاع الأمنية فيها، وتردد الإفرنج (الصليبيون) وملكهم (عموري) في بادئ الأمر لزحفهم على مصر، فقد رأى بأنّ الجزية التي كان يحصل عليها من مصر كافية للتصدي (لنور الدين) في بلاد الشام، "فاجتمع إليه فرسان الإفرنج وذوو الرأي منهم، وأشاروا عليه

---

([1]) ابن الأثير، الكامل، ج 10، ص 5.الباهر، المصدر السابق، ص 134.الحنبلي، شفاء القلوب، المصدر السابق، ص 30. قاضي بن شهبه، المصدر السابق، ص171.

([2]) محمد سهيل طقوش، تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر والشام، دار النفائس بيروت، 2001م، ص 495.

([3]) أبو شامة، المصدر السابق، ص 143.الحنبلي، شفاء القلوب، المصدر السابق، ص 30-31. قاضي بن شهبه، المصدر السابق، ص172.

بقصدها وتملكها، فقال لهم: الرأى عندي أننا لا نقصدها، ولا أطماع لنا فيها لنا، أموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين، وإن نحن قصدناها لنملكها فإن صاحبها وعساكره وعامة بلاده وفلاحيها لا يسلمونها إلينا، ويقاتلوننا دونها ويحملهم الخوف من تسليمها إلى نور الدين، ولئن أخذها نور الدين وصار له فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج، وإجلاؤهم من أرض الشام" [1].

يتضح من خلال هذا النص أن الملك (عموري) كان يكفيه مال مصر، ومن جهة أخرى كان يدرك أن أهل مصر من عامة الناس والفلاحين لن يقبلوا بوجود الإفرنج، وهذا يثبت ما كان يحدث من أزمات وصراعات بين الوزراء، بينما عامة الناس لا يقبلون بوجود الفرنج على أراضيهم، فهم يُدركون أنهُ إذا دخلوها ملكوها، فيصبحوا مسلوبي الإرادة والقوة، كما أيقن الملك (عموري) أن (نور الدين زنكي) إذا ضم مصر للوحدة مع الشام، فإن نهاية وجودهم أصبحت قاب قوسين أو أدنى.

لذلك سرعان ما تبدل موقفه، وقرر غزو مصر وشرع الإفرنج في التجهيز لحملتهم، وأظهروا أنهم يريدون حمص ليغضوا نظر نور الدين عليهم [2].

وبالفعل وصلت الحشود الإفرنجية للقاهرة قرب الفسطاط [3]، وفرضوا حصارهم عليها، ولما اشتد الحصار عرض عليهم شاور الصلح، على أن يؤدي إليهم مبلغًا كبيرًا من المال فرحبوا بذلك [4].

وفي هذه الأثناء راسل كل من شاور والخليفة الفاطمي إلى (نور الدين زنكي) يستنجدان به ضد الفرنج (الصليبيين)، وتعهد شاور هذه المرة بأن يتنازل له عن ثلث بلاد مصر، وأن يسمح لأسد الدين شيركوه بالإقامة في مصر مع جنده، وأن يكون إقطاع هؤلاء الجند خارجًا عن ثلث البلاد [5].

خرج شيركوه إلى مصر عام (564هـ/1168) ورحب به الأهالي، والتفوا حوله طالبين حمايته ضد الإفرنج، وبذلك أخفق الملك (عموري) والإفرنج (الصليبيين) لعدم وجود حليف لهم، يساعدهم على احتلال مصر فرحلوا عنها إلى الشام [6].

ورحب أهالي مصر بشيركوه وعّدوه المنقذ لهم فاستدعاه الخليفة العاضد، وخلع عليه الوزارة، وتردد الناس إلى خدمته [7].

---

([1]) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ص 12.الباهر، المصدر السابق، ص 137.

([2]) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ص 12.

([3]) الفسطاط، قيل إن عمرو بن العاص رضي الله عنه، لما أراد المسير إلى الإسكندرية عام 21هـ أمر فسطاطه أن يفوض، فإذا بيمامة قد باضت في أعلاه، فقال لقد تحرمت بجوارنا امرواة الفسطاط حتى يطير فراخها، فاقرأ الفسطاط في موضعه، فبذلك سميت الفسطاط ، ينظر ابن دقماق، المصدر السابق، ص 2. عبد الله محمد الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، ج 1، 1994م، ص 322.

([4]) خاشع المعاضيدي، المرجع السابق، ص 195.

([5]) البير شاندور، صلاح الدين الأيوبي، البطل الاتقى في الإسلام، ترجمة سعيد أبو الحسن، تحقيق نديم مرعشلي، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط2، 1993م، ص 22. قاضي بن شهبه، المصدر السابق، ص 176.

([6]) ابن واصل، المصدر السابق، ص 160.ابن شداد، المصدر السابق، ص 176.

([7]) ابن واصل، المصدر السابق، ص 161.ابن تغري بردي، ج5، المصدر السابق، ص 301.

وعلت منزلته وخافهشاور على نفسه، فأرسل خلسة إلى الإفرنج يستدعيهم لنجدته، وفضلًا عن هذا قام بتدبير مؤامرة لقتل شيركوه أثناء وليمة يدعوهم إليها، غير أن مؤامرته باءت بالفشل، فتشاور المسلمين على قتله، وبالفعل تم ذلك عام 564هـ / 1168م، ومنح شيركوه منصب الوزارة [1].

من الطبيعي أن يظهر شاور بهذه الصورة، فليس غريبًا عليه مثل هذا التصرف، فهذه ليست المرة الأولى التي يتخلى بها عن عهوده، فقد عرف بغدره وخيانته، وكل هذا من أجل الوصول للسلطة، لذلك فلا عجب أن يحاول قتل شيركوه، فهو فعل كل ما فعله من مهادنة الفرنج، وخيانة المسلمين، وغدره بهم من أجل الحفاظ على منصب الوزارة، إلا أن شيركوه لم ينعم بهذا المنصب طويلًا؛ إذ توفى بعد شهرين من توليه الوزارة عام (564هـ / 1169م) نتيجة إفراطه في الأكل [2]. وتسلم صلاح الدين الأيوبي الوزارة من بعده [3].

وهكذا تحققت الوحدة بين مصر وبلاد الشام، فبعد أن كانت مصر في دور الاضمحلال، والضعف أخذت تتهيأ لتصبح مركز المقاومة الإسلامية ضد الإفرنج (الصليبيين).

وكان لضم مصر للوحدة الإسلامية ردة فعل عنيفة لدى الفرنج، وأدركوا أنهم وقعوا بين فكي كماشة (نور الدين زنكي) في الشام وصلاح الدين الأيوبي في مصر، لذلك استنجد الملك (عموري) بالأوروبيين والبيزنطيين، للإسراع لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، فتم تحالف إفرنجي (صليبي) بيزنطي ضد نور الدين، لانتزاع مصر ومقاسمتها فيما بينهم [4].

واتجهت الحملة إلى دمياط عام (565 هـ / 1169م) في المقابل أسرع صلاح الدين بحشد قواته، وراسل (نور الدين زنكي) في بلاد الشام لدعمه، فسير إليه الجيوش، وعندما رأى الإفرنج (الصليبي) وصول الإمدادات إلى مصر، ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وتخريبها، رجعوا خائبين "فسيّر نور الدين العساكر إليه، وإرسالًا يتلو بعضها بعضا، ثم سار هو بنفسه إلى بلاد الفرنج الشامية، فنهبها وأغار عليها، فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر، ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وتخريبها، لم يظفروا بشيء، ووجدوا بلادهم خرابًا وأهلها بين قتيل وأسير" [5]، وفي عام (570هـ/ 1174م) توفى (نور الدين زنكي) إثر التهاب لوزتيه، وإصابته بالحمى والاختناق [6].

---

([1]) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس هورس اليسوعي، كمال سليمان الصليبي، وآخرون، دار المشرق العربي، 1986م، ص 18.ابن العبري، المصدر السابق، ص 212.الحنبلي، شفاء القلوب، المصدر السابق، ص 33.

([2]) ثيودور بيشوف، المصدر السابق، ص 103.

([3]) بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، (تاريخ الدولة الأيوبية دولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ) تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، 1993م.ص3.القرماني، المصدر السابق، ص 194.ابن الوكيل، تحفة الأحباب بمن ملك مصر من ملوك والنواب، تحقيق محمد الششتاوي، دار الآفاق العربية، 1999م، ص 58.

([4]) الباهر، المصدر السابق، ص 143.البيروشاندور، المصدر السابق، ص 23.

([5]) ابن الأثير، الكامل، المصدر السابق، ص 23.ابن شداد، المصدر السابق، ص 83.

([6]) ابن الأثير، الباهر، المصدر السابق، ص 161. أبي العباس أحمد القلقشندى، مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد خراج، عالم الكتب، بيروت، 1980م، ص 47.

بذلك انتهى الصراع بين الإفرنج (الصليبيين) ونور الدين على مصر بانتصار (نور الدين زنكي)، ودخول نائبه شيركوه وفي صحبته ابن أخيه صلاح الدين القاهرة، ودخول المنقذ وانسحاب عموري الأول إلى بيت المقدس، وأصبح شيركوه وزيرًا للخليفة، ثم خلفه ابن أخيه صلاح الدين، وبذلك تهيأ المسرح السياسي في المشرق الإسلامي لفصل جديد.

فمن ناحية أصبحت مصر، والشام تحت قيادة واحدة، وانتصرت الجبهة الإسلامية الموحدة ضد الفرنج (الصليبيين)، ومن ناحية أخرى فإن تولى صلاح الدين الأيوبي الوزارة لم يلبث أن انتقل بمصر من دولة ضعيفة تُعاني سكرات الموت إلى دولة قوية، ومركز للجهاد في المشرق الإسلامي ضد الإفرنج (الصليبيين)، وتحولت لتصبح المكان الكبير الذي أمد النضال الإسلامي بالموارد البشرية والمالية لتوجيه الضربات إلى الإفرنج، وقلعة حصينة خرجت منها جيوش الأيوبيين ثم المماليك، لتقوّض في النهاية البناء الذي أقامه الإفرنج على الأراضي الإسلامية.

وبموته أخلى الميدان تمامًا (لصلاح الدين)، وإضافة إلى ذلك قد أخلى الميدان لمصر لترث الدور الذي أدته الشام والعراق في عهد السلاجقة والزنكيين، ولتنتقل بهذا الدور إلى وضع جديد تحت قيادة صلاح الدين، ودفع ثمنه فيما بعد الإفرنج (الصليبيون)، وبعد أن تم ضم مصر للوحدة الإسلامية مع بلاد الشام رأى نور الدين أنه من الضروري تغيير مذهبها، لذلك قرر إلغاء الفاطمية الشيعية، وإقامة المذهب السني في مصر.

لم يكن إلغاء الخلافة الفاطمية في مصر وضمها إلى الخلافة العباسية في بغداد إلا لأسباب ودواع سياسية في المقام الأول، ودينية ومذهبية في المقام الثاني، وعلى الرغم من تقارب الفاطميين مع العباسيين في المذهب فإن تغير مسار الدعوة العباسية من العلوية (في بداية أمرها) إلى المذهب السني في أواخر أيامها جعل الفاطميين، ولا سيما بعد استفحال أمرهم في مصر، يشكلون خطرًا من وجهة نظر العباسيين على ملكهم في بغداد، وخصوصًا حب أهل مصر للفاطميين.

أما السبب السياسي فهو أن رغبة الخليفة العباسي ونائبه (نور الدين زنكي) في توسيع نطاق الخلافة العباسية وصلاحيتها، جعلت من ضم مصر مطلبًا لا بد منه، خصوصًا بعد الأخطاء المريرة التي ارتكبها الإفرنج في حروبهم.

ويمكن إجمال الأسباب التي أدت إلى إلغاء الخلافة الفاطمية بالآتي:

1- ضعف الإفرنج (الصليبيين) عسكريًا وسياسيًا في حروبهم التي تم فيها القضاء عليهم قضاء مبرحًا، من قبل الجيش الإسلامي بقيادة (نور الدين زنكي) أو نائبه صلاح الدين الأيوبي.

2- وجود قادة سياسيين وعسكريين على مستوى تحمل المسؤولية التاريخية، التي من أجلها تم الجهاد ضد الإفرنج، وخصوصًا (نور الدين زنكي وأسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبي) الذين بذلوا أقصى الجهود في سبيل نصرة الإسلام والمسلمين.

3- رغبة الخليفة العباسي في ضم مصر بعد أن تم له القضاء على الإفرنج، في محاولة منه لتوسيع رقعة صلاحياته السياسية والإدارية، وكان الخليفة العباسي قد أرسل إلى نور الدين يعاتبه في تأخير إقامة الدعوة له بمصر.

4 - دافع ديني ومذهبي دفع القائمين على شؤون المسلمين في الرغبة بتغيير المذهب الإسماعيلي في مصر بالمذهب الإسلامي الأصولي "وبنوازع التقى النصرة الإسلام الأصولي، كتب إلى صلاح الدين طالبًا الكف عن ذكر اسم الخليفة الفاطمي في المساجد المصرية، واستبداله باسم الخليفة في بغداد" [1].

5- قوة السلطة السياسية والعسكرية في بغداد، وسيطرتها على أمور الخلافة فيها، وضعف المقاومة لمحاولة التغيير (السياسي الديني) من قبل صلاح الدين الأيوبي، وأدى بالتالي إلى إلغاء الخلافة الفاطمية، وامتثال صلاح الدين بعد ذلك لأوامر (نور الدين زنكي)، وكان صلاح الدين مترددًا في إسقاط تلك الخلافة، حيث إن ميراث العبيدين في مصر، ناهز عمره أكثر من مئتي سنة.

6 - توحيد البلاد الإسلامية على منهج واحد، ورفض المذهب الشيعي الذي اعتبروه منهجًا رافضًا.

7- التهديد الذي قام به (نور الدين لصلاح الدين) بتنحيته من مصر، بأمر الخليفة العباسي إذا لم يمثل لأمره "ولو أراد لأرسل خطابًا بالعزلة عن مصر وتوليته قطرًا آخر، وهذا ما صرح به (نجم الدين) لوالده صلاح الدين في مصر إن أراد عزلك يأمر بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته، ويولي بلاده من يريد" [2] على الرغم من علاقة الاحترام المتبادلة بين نور الدين وصلاح الدين.

8- ضعف الخليفة الفاطمي (العاضد) في مصر، وذلك بسبب عجزه ومرضه، ومنع الخدم صلاح الدين من إخطاره بالنبأ قائلًا: "إن يبرأ من مرضه فسرعان ما سيعلم، وإن يمت فليمت في سلام" [3].

9- عدم وجود خليفة فاطمي بعد العاضد يحكم مصر بعد وفاة العاضد، حيث هلكت الأسرة الحاكمة الفاطمية بموت العاضد، وجمع شمل من تبقى من الأمراء والأميرات، وأرسلوا حيث عاشوا حياة فاخرة، ولكن دون اتصال بالعالم.

10- الاستفادة القصوى (لصلاح الدين الأيوبي) من القاضي الفاضل، الذي ساعده على إحكام خطة مدروسة، للقضاء على الدولة الفاطمية والمذهب الشيعي الإسماعيلي.

11- وجود خطة ذكية اتبعها صلاح الدين الأيوبي للقضاء على المذهب الشيعي، تتمثل في شرع صلاح الدين في تنفيذها بدقة متناهية، وبعد أن هيأ صلاح الدين المصريين للانقلاب وقلم أظفار المؤسسة الفاطمية، فعزل قضاة الشيعة وألقى مجالس الدعوة، وأزال أصول المذهب الشيعي.

---

([1]) ستيفن رانسيمان، المرجع السابق، ج2، ص 450.

(1) ابن الأثير، الباهر، المصدر السابق، ص156.أبوشامة، المصدر السابق، ص493.الحنبلي، شفاء القلوب، المصدر السابق، ص85.القلقشندي، مآثر الأنافة، المصدر السابق، ج2، ص51.

([3]) اليافعي، المصدر السابق، ج3، ص379.

12- الطعن بخلافة (العاضد) واستبدال القضاة الشيعة بالقضاة السنة، حيث أمر صلاح الدين الأيوبي بأن يذكر (العاضد) بكلام يحتمل التلبيس على الشيعة، فكان الخطيب يقول: اللهم أصلح العاضد لدينك، وولِّ القضاء في القاهرة للفقيه (عيسى الهكاري) السني، فاستناب القضاة الشافعيين في جميع البلاد [1] ومن مظاهر تحول مصر إلى المذهب السني أن قام صلاح الدين بنشر المذهب الأشعري، فقد كان صلاح الدين يتعصب لهذا متأثرًا بالسلاجقة [2].

13- لأسباب أمنية تتعلق بالغزو الإفرنجي، إذ كان لابد من توحيد القوى الإسلامية من أجل القضاء عليه، وهو من وجهة نظر الباحثة من أقوى الأسباب التي دعت إلى إنهاء الخلافة الفاطمية في مصر، وتوحيدها مع بلاد الشام، حتى تتوحد قوة المسلمين لصد وطرد الغزو الإفرنجي الصليبي من كامل الأراضي الإسلامية.

وبهذه الإجراءات ذات الطابع الديني، ضمن صلاح الدين سيطرته على النواحي الدينية كما "ضمن مراسلات الدولة بعد أن عين القاضي رئيسًا لديوان الإنشاء" [3].

وهكذا تم ضم مصر إلى الخلافة العباسية بفعل طموحات سياسية وتعصبات مذهبية ليست ذات شأن.

إن ضم مصر أو غيرها من مدن البلاد الإسلامية بفعل عوامل وأسباب إدارية دون اللجوء إلى التمذهب الطائفي، لأن ذلك يشكل خطرًا على أمن وسلامة البلاد العربية، ويقلل من حقوقه داخل الخلافة الإسلامية.

إن ضم مصر لم يكن لأسباب إدارية أو سياسية، يمكن أن نقول عنها بأنها أسباب مقنعة إلى حد ما، أما السبب الديني فنرى إمكانية بقائه دون الخلل في ضم مصر، لأنه يبقى في الأخير مذهبًا إسلاميًا.

---

([1]) الحنبلي، المصدر السابق، ص74.
([2]) محمد سهيل طقوش، تاريخ الزنكيين، المرجع السابق، ص392.
([3]) ابن تغرى بردي، المصدر السابق، ج5، ص343.

## الخـــاتمة

وبعد دراسة موضوع حركة الجهاد الإسلامي ضد الغزو ، والاحتلال الفرنج الصليبي، توصلت هذه الدراسة إلى الآتي :

1. إن السبب الجوهري للحروب الإفرنجية ـ الصليبية كان اقتصاديًا، لأنهم أرادوا إنشاء مستعمرات جديدة في البلاد الإسلامية؛ لرفع المستوي الاقتصادي الأوروبي، الذي بدأ يعاني من حالات الركود التي كانت عليها أوروبا، قبل قيام الحروب على الرغم من الطابع الإعلاني الذي اتسمت به هذه الحروب، وهو العامل الديني الذي لم يكن في حقيقته سوى ذريعة وحُجة لهذه الحملات، على الرغم من عدم استبعاد الباحثة هذا العامل، لا سيما ونحن نعرف أن هذا العامل كان سببًا من أسباب تدخل الغرب الأوروبي في المشرق.
2. لم يكن نجاح الغزو الإفرنجي ـ الصليبي ولا سيما في مرحلته الأولى، وتمكنه من تأسيس بعض الكائنات السياسية على الأراضي الشامية- نتيجة لقوة الإفرنج، بل جاء نتيجة حتمية حالة التفكك السياسي والاقتصادي والعسكري، الذي كان منتشرًا في البلاد الإسلامية، ولا سيما بلاد الشام في تلك الفترة على وجه الخصوص، وهي (القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي).
3. إن المقاومة الإسلامية التي كانت هدف الدراسة مرت بمراحل عدّة، ولم تجنِ ثمارها إلا بعد أن اقترنت بشعارين واضحين، على المستوى النـظري والعملي، وهما (الوحدة والجهاد) على الرغم من جميع الجهود والإمكانات التي وظفت لتحقيق هذين الهدفين، إلا أنه لم يتم تحقيقهما إلا بعد أن برزت في تلك المرحلة قيادات إسلامية أخذت على عاتقها مسألة الإعداد لمرحلة الجهاد ضد الغزو الإفرنجي ـ الصليبي، وهذا يؤكد حقيقة وجود قيادات قادرة على استيعاب معطيات المرحلة، ولا سيما في المراحل التي تتعرض لها البلاد العربية، وما زالت، لحملات الغزو بنوعيه، العسكري والثقافي.
4. لم يكن الأمر مقصورًا على القيادات العسكرية فقط، بل تعدى ذلك إلى بعض الإمارات كإمارة الموصل التي اضطلعت بدور مهم منذ بداية هذا الغزو، ووصول طلائعه إلى مشارف البلاد الشامية والجزيرة، فقامت هذه الولاية بمهمة قيادة حركة الجهاد ضد الإفرنج، وتدعيم الجبهة الإسلامية من أجل الوقوف في وجه خطر الإفرنج، الذي بات يهدد المنطقة بأسرها، وهذا يكشف لنا استيعاب تلك الإمارة لخطورة هذه الحملة، مما جعلها ترسي دعائم حركة الجهاد ضد هذا الغزو.
5. هناك مرحلة أخرى كشفت عنها هذه الدراسة، وتؤكد ما تم قوله سابقًا من أن حركة الجهاد ارتبطت بوجود شخصيات مهمة مثل (مودود) الذي بدأ صفحة جديدة من تاريخ الجهاد ضد الإفرنج، لأن مسألة الجهاد كانت نابعة من نفسه وعمق إيمانه، على عكس الأمراء السابقين والمعاصرين له، الذين اهتموا بمصالحهم الشخصية ومطامعهم الذاتية، والذي مهد بعد ذلك لبروز شخصيات جديدة، سارت على

نهجه، كما هو الحال عند (عماد الدين زنكي) الذي توج انتصاراته بالاستيلاء على الرها (539هـ/1144م)، ولم تكمن أهمية (زنكي) في انتصاراته السياسية فقط، بل تمثلت أيضًا في بنائه دولة متماسكة داخلية يشعر فيها الفرد بالأمان، مما يشكل ذلك دافعًا قويًا لهم للدفاع عن أراضيهم وعدم التفريط بها.

6. على عكس الإفرنج ـ الصليبيين، اعتمد (عماد الدين زنكي) سياسة المعاملة الحسنة معهم، على الرغم مما ارتكبوه من مجازر وحشية أثناء فتحه للرها، وانتهج سياسة مغايرة عن سياستهم حيث كان على دراية تامة بما كان يعانيه المسيحيون والأرمن من اضطهاد الإفرنج لهم، لذلك عاملهم معاملة حسنة، وهذا ترسيخ لمبادئ الإسلام التي تنص على معاملة (أهل الذمة)، وليس الأمر مقتصرًا عليه، وتعدى ذلك إلى كثير من القادة مثل (شيركوه وصلاح الدين الأيوبي).
7. لقد رسخ بعض قادة الحروب الإفرنجية من المسلمين مبادئ المواطنة والمساواة عند أغلب قطاعات الشعب، نذكر منهم (نور الدين محمود زنكي) الذي عمل على إقطاع الكثير من الأراضي الإقطاعية، وإعطائها للمواطنين، فكان ذلك سببًا رئيسيًا من أسباب التي دعت المواطنين للدفاع عن الوطن، الذي نتج عنه تحرير الأراضي الشامية من الغزو الإفرنجي ـ الصليبي.
8. لقد نتج عن هذه السياسة الحكيمة التي اتبعها قادة الجهاد الإسلامي، عن تحقيق الوحدة بين الشام ومصر، وهي المرة الأولى التي تحققت فيها الوحدة منذ دخول الإفرنج الشام، نتج عنها تكبد الإفرنج خسائر فادحة جراء هذه السياسة الحكيمة، مما يؤكد أن تحقيق الوحدة بين أقطار الوطن العربي، هو الحل الأمثل للوقوف ضد جميع الغزوات الخارجية.
9. ومن أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة تراجع النفوذ الإفرنجي ـ الصليبي، وانتقلوا من مرحلة الهجوم إلى مرحلة الدفاع، مما جعلهم يحسبون لهذه القوة ألف حساب، ولاسيما بعد توحيد القوى الإسلامية، واسترداد المدن العربية في الشام، لقد أيقنوا أن وجودهم داخل الأراضي الإسلامية أمر غير مرغوب فيه، ولن يستمر طويلًا لذلك كانت نهاية لوجودهم.
10. لقد ساعدت هذه العوامل القائد (صلاح الدين الأيوبي)، الذي وجد أمامه دولة متجانسة ومتكاملة ومترامية الأطراف، ولم يبق أمامه سوى التفكير في كيفية طرد الإفرنج من هذه الأراضي، لقد كان الطريق أمامه سهلًا في تحقيق الوحدة، وبناء الدولة، فاتخذ من مصر مقرًا له، لتنتقل مهمة الجهاد إليها فبذلك أصبحت موطأ جديدًا لحركة الجهاد بدلًا من الموصل والشام.
11. لم يقتصر أمر الجهاد على القادة السياسيين فقط والعسكريين، بل شمل كذلك العلماء والفقهاء والشعراء وعامة الناس، على الرغم من غياب السلطة المركزية المتمثلة في الخليفة العباسي والسلطان السلجوقي الذين لم يعد لهم دور بارز اتجاه هذا الغزو، بل اتسمت مواقفهم بالسلبية والمفترض قيامهم بالدور الأكبر في هذه الحملة ضد الغزو.

12. ساهم الفقهاء بدور كبير في تحريك حركة الجهاد الإسلامي، من خلال المساهمة في نشر الوعي الديني بين عامة الناس وحثهم على مقاومة الخطر المحدق بهم، كما ساهم الشعراء بنفس الدور الذي قام به الفقهاء، فقد كان الشعر سلاحًا مهمًا في ساحات المعارك، مما ساهم في إثارة حماس المقاتلين لمساندة القادة، فكل انتصار كان يحفظه لنا الشعراء بأشعارهم.

وهكذا فإن مسيرة الوحدة والجهاد استعدادًا للقضاء علي الغزو تحققت إثر جهود متواصلة على مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية، وقد بذلت جهود كثيرة لبناء مجتمع متجانس فكريًا، يؤيد قضيته ويؤمن بها، ويدافع عنها.

**والله ولي التوفيق...**

## قائمة المصادر والمراجع:-

### أولًا: القرآن الكريم.

### ثانيًا: المصادر العربية:-


1- ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن، الكامل في التاريخ، دار الفكر بيروت، ج 8-9-10-11، 1978م.

2- ـــــــــــــ، الباهر في الدولة الأتابكية في الموصل، تحقيق، عبد القادر أحمد طليمات، مكتبة المثنى، بغداد، 1963م.

3- ابن تغرى بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، القاهرة، ج5، (د. ت).

4- ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق، محمد مصطفى زيادة ندار، الكتاب اللبناني، بيروت، ج1، (د. ت).

5- ابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ج8، (د. ت).

6- ـــــــــــــ، المصباح المضيء في خلافة المستضيء، تحقيق ناجية عبد الله إبراهيم، مطبعة الأوقاف، بغداد، ج1، 1976م.

7- ابن خلدون، عبد الرحمن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1979م.

8- ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (د. ت).

9- ابن دقماق، إبراهيم محمد العلائي، الانتصار بواسطة عقد الأمصار، مركز الموسوعات العالمية بيروت (د. ت).

10- الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق، محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر (د. ت).

11- الأصفهاني، عماد الدين، خريدة القصر وجريدة العصر، تحقيق، محمد بهجة الأثري، جميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 1955م.

12- ابن شداد، بهاء الدين أبو المحاسن يوسف، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1964م.

13- ابن الشداد، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق زكريا عبارة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق،1991م.

14- ابن شهبه، بدر الدين بن قاضي، الكواكب الذرية في السيرة النورية، (تاريخ السلطان نور الين زنكي)، تحقيق، محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1971م.

15- ابن ظافر، أخبار الدول المنقطعة، إربد الأردن، 1999م.

16- ابن العبري، أبي الفرج جمال الدين، تاريخ مختصر الدول، دار المشرق، بيروت، 1992م.
17- ـــــــــــــــ، تاريخ الزمان، دار المشرق بيروت، 1991م.
18- ابن العديم، كمال الدين أبي القاسم، زبدة الحلب من تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، دمشق، (د.ت).
19- ابن القلانسي، حمزة أبو يعلي، ذيل تاريخ دمشق، مطبعة الأدباء اليسوعيين بيروت، 1908م.
20- ابن كثير، الحافظ، البداية والنهاية، مكتبة المعارف بيروت، ط2، 1990م.
21- ابن منقذ، أسامة، الاعتبار، تحقيق، فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون الولايات المتحدة، 1930م.
22- ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق، جمال الدين الشيال، دار الثقافة والإرشاد القومي، (د.ت).
23- ابن الوردي، زين الدين عمر، تاريخ ابن الوردي، منشورات المطبعة الحيدرية النجف، ط 2، 1969م.
24- ابن الوكيل، يوسف الملواني، تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب، تحقيق محمد الششتاوي، دار الأفاق العربية، 1999م.
25- أبوشامة، شهاب الدين أبي محمد، الروضتين في تاريخ الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق، إبراهيم، مؤسسة الرسالة بيروت، 1971م.
26 - أبن الشحنة، أبي الفضل محمد، نزهة النواظر، تحقيق، كيكو أوتا، (د.ت).
27- أبوالفداء، عماد الدين إسماعيل، المختصر في أخبار البشر، دار الكتاب اللبناني بيروت، (د.ت).
28- ـــــــــــــــ، تقويم البلدان، تحقيق، رنو، ودوسلان، دار صادر بيروت، 1984م.
29- الإدريسي، أبي عبد الله محمد، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، 1994م.
30- الأسفراييني، الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، مكتبة دار التراث القاهرة، 2007م.
31- الأنصاري، شمس الدين عبد الله، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر (د.ن)، 1969م.
32- البصراوي، شمس الدين أحمد، تحفة الأنام في فصائل الشام، تحقيق، عبد العزيز فياض حرفوش، دار البشائر، 1998م.
33- البغدادي، صفي الدين، مراصد الاطلاع على الأمكنة والبقاع، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ج1، 1954م.
34- البنداري، مختصر البرق الشامي، تحقيق، فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي القاهرة، 1979م
35- الحريري، الحروب الصليبية، تحقيق، عصام محمد شبارو، دار التضامن للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، 1988م.
36- الحسيني، صدر الدين، أخبار الدولة السلجوقية، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، 1984م.
37- الحلبي، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، تحقيق محمد كمال، دار القلم العربي حلب، 1988م.
38- الحموي، ياقوت، معجم البلدان، دار صادر بيروت، 1977م.

39- ـــــــــــــ، المشترك وضعًا والمفترق صقعًا، مكتبة المثنى بغداد، 1846م.
40- ـــــــــــــ، معجم الأدباء، دار إحياء التراث، بيروت، ج10، (د.ت).
41- الحميري، عبد المنعم محمد، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق، إحسان عباس، مكتبة لبنان، 1975م.
42- الحنبلي، أبي الفلاح عبد الحي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتبة التجارية للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، (د.ت).
43- الحنبلي، أحمد بن إبراهيم، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب، تحقيق، ناظم رشيد، وزارة الثقافة والفنون العراق، 1978م.
44- الحنبلي، مجير الدين، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب الأردن، 1973م.
45- الدواداري، كنز الذرر وجامع الغرر، تحقيق صلاح الين المنجد، القاهرة، 1961م.
46- الذهبي، الحافظ، العبر في خبر من غبر، تحقيق، فؤاد سيد، الكويت، 1961م.
47- ـــــــــــــ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق، عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي بيروت، 1994م.
48- ـــــــــــــ، سير أعلام النبلاء، تحقيق، شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت، 1982م.
49- ـــــــــــــ، دول الإسلام، تحقيق، أفهيم محمد شلتوت، محمد مصطفى إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، 1974م.
50- ـــــــــــــ، الإعلام بوفيات الأعلام، تحقيق، مصطفى علي عوض، ربيع أبو بكر عبد الباقي، مؤسسة الكتب، (د.ت).
51- السبكي، تاج الدين، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق، محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ج7 (د.ت).
52- السلمي، علي بن طاهر، كتاب الجهاد، تحقيق، رمضان حسين الشاوش، رسالة ماجستير غير منشورة، طرابلس جامعة الفاتح،1992م.
53- السيوطي، جلال الدين، تاريخ الخلفاء، دار التعاون مكة المكرمة، تحقيق، لجنة من الأدباء، 1935م.
54- الشهرستاني، الملل والنحل، القاهرة، 1968م.
55 - الصفدي، خليل أيبك، تحفة ذوي الألباب فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب، تحقيق، إحسان بنت سعيد خلوطي، زهير حميدان الصمصام، منشورات، وزارة الثقافة دمشق، 1992م.
56 - ـــــــــــــ، الوافي بالوفيات، تحقيق، عدد من العلماء، جمعية المستشرقين، ألمانيا (د.ت)
57 - الظاهري، غرس الدين خليل، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق، بولس راويس، مطابع مدينة باريس، 1891م.

58- العظمي، تاريخ العظمي، باريس، 1938م.
59- العمري، شهاب الدين أبن فضل الله، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق، أحمد عبد القادر الشاذلي، المجمع الثقافي أبو ظبي، 2000م.
60- الفارقي، أحمد بن يوسف، تاريخ الفارقي، تحقيق، بدوي عبد الطيف عوض، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1959م.
61- القرماني، أبي العباس، أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ، عالم الكتب، بيروت، (د.ت).
62- القزويني، زكريا محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر بيروت، 1969م.
63- القلقشندي، أبي العباس أحمد، مآثر الأنافة في معالم الخلافة، تحقيق، عبد الستار أحمد فراج، عالم الكتب بيروت، 1980م.
64- الكتبي، شاكر، فوات الوفيات والذيل عليها، دار صادر بيروت، ج3، 1973م.
65 - ـــــــــــ، عيون التواريخ، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ج20، 1980م.
66- الملطي، نزهة الأساطين فيمن ولي من مصر من السلاطين، تحقيق، كمال الدين عز الدين، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، 1987م.
67- مؤلف مجهول، الإعلام والتبيين في خروج الإفرنج الملاعين على ديار المسلمين، تحقيق، سهيل زكار، مكتبة دار الملاح، 1981م.
68- مؤلف مجهول، شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، تحقيق، إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، 1988م.
69- المقريزي، تقي الدين، السلوك لمعرفة الدول والملوك، دار صادر بيروت، (د.ت).
70- ـــــــــــ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، دار صادر بيروت، (د.ت).
71- ـــــــــــ، اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة، 1967م.
72- المنصوري، بيبرس، مختار الأخبار (تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ)، تحقيق، عبد الحميد صالح حمدان، الدار المصرية اللبنانية، 1993م.
73- النويري، شهاب الدين أحمد، نهاية الأرب في فنون والأدب، دار الكتب المؤسسة المصرية للطباعة، (د.ت).
74- اليافعي، أبو محمد عبد الله بن سعد، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعبر من حوادث الزمان، منشورات مؤسسة الإعلمي للمطبوعات بيروت، ط2، 1970م .
75- يحيي، بن صالح، تاريخ بيروت، تحقيق، فرنسيس هورس اليسوعي، كمال سليمان الصليبي، وآخرون، دار المشرق العربي، 1986م.

76- اليمني، نجم الدين محمد، النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية، مكتبة مدبولي القاهرة، ط2، 1991م.

## ثالثًا: المصادر الأجنبية:ـ

1- بيشوف، تيودور، تحفة الأنباء في تاريخ حلب الشهباء، ترجمة وتحقيق، شوقي فالح بكور، دمشق، 1992م.

2 - بيروشاندرو، صلاح الدين الإيوبي، البطل الأنقى في الإسلام، ترجمة سعيد أبو الحسن، تحقيق، نديم مرعشلي، طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط2، 1993م.

3- توديبود، بطرس، تاريخ الرحلة إلى بيت المقدس، ترجمة، حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، 1998م.

4- جاكسون، صلاح الدين الأيوبي، تحقيق، نقولا زيادة، فهمي سعد، ترجمة علي ماصر، الأهلية للنشر والتوزيع بيروت، 1988م.

5- ريموندا جيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة، حسين محمد عطية، دار المعرفة الجامعية، 1990م.

6 - الرهاوي، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تحقيق، سهيل زكار، دار الفكر دمشق، ج5، 1995م.

7- السوري، ميخائيل، الموسوعة الشاملة في تاريخ الحروب الصليبية، تحقيق، سهيل زكار، دار الفكر دمشق، ج5، 1995م.

8- الشارتري، فوشيه، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس، ترجمة، زياد العسلي، دار الشروق للنشر والتوزيع، 1990م.

9- الصوري، وليم، الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1943م.

10- فتيري، دي جاك، رسائل جاك دي فتيري(دراسة وثائقية في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب 1200-1240)، ترجمة، عبد الطيف عبد الهادي، المكتب الجامعي الحديث، 1988م.

11- مؤلف مجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي، دار الفكر العربي، 1958م.

12- ناصر خسرو، سفر نامه، ترجمة، يحيى الخشاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م.

## رابعًا المراجع العربية:ـ


1ـ إسماعيل، أحمد علي، تاريخ السلاجقة في بلاد الشام في القرنين الخامس والسادس الهجري، الشركة المتحدة للطباعة والنشر، 1983م.

2 ـ برجاوي، سعيد أحمد، الحروب الصليبية في المشرق، دار الأفاق الجديدة بيروت، 1984.

3 ـ التميمي، رفيق، الحروب الصليبية، مطبعة القدس، 1945م.

4ـ الجميلي، رشيد، دولة الموصل بعد عماد الدين زنكي541-631، دار النهضة العربية للطباعة والنشر بيروت، 1970م.

5ـ ـــــــــــ، إمارة الموصل في العصر السلجوقي (489-521) بغداد، جامعة بغداد، 1980م.

6ـ الجوني، وفاء، دمشق المملكة اللاتينية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1997م.

7ـ حبشي، حسن، الحرب الصليبية الأولى، دار الفكر العربي، 1985م.

8ـ ـــــــــــ، نور الدين والصليبيون، دار الفكر العربي، (د.ت).

9ـ حبيبة، علي، المسلمون والصليبيون، مكتبة الشباب، 1990م.

10ـ حسين، عبد المنعم، دولة السلاجقة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1975م.

11ـ ـــــــــــ، سلاجقة إيران والعراق، كتبة النهضة المصرية القاهرة، 1959م.

12ـ حسن عبد الوهاب حسين، مقالات وبحوث في التاريخ الاجتماعي للحروب الصليبية، دار المعرفة الجامعية، 1999م.

13ـ خليل، عماد الدين، عماد الدين زنكي، الدار العالمية بيروت، 1971م.

14ـ ـــــــــــ، الإمارات الارتقية في الجزيرة والشام (465ـ 816هـ/ 1086ـ 1409م) مؤسسة الرسالة بيروت، 1980م.

15ـ زكار، سهيل، مدخل لتاريخ الحروب الصليبية، مؤسسة الرسالة بيروت، 1972م.

16ـ زيتون عادل، العلاقات السياسية والكنيسة بين الشرق والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، دار دمشق للطباعة النشر، 1980م.

17ـ سالم، جمال محمد، موقف فقهاء الشام وقضائها من الغزو الصليبي(492-660هـ/ 1908-1262م) مركز الجهاد الليبيين للدراسات التاريخية، 2000م.

18ـ سالم، السيد عبد العزيز، طرابلس الشام، في التاريخ الإسلامي، مطابع رميس الإسكندرية، 1967م.

19ـ الشيخ، محمد محمد، الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، دار المعرفة الجامعية، 1990م.

20ـ شحاتة، عادل عبد الحفيظ، العلاقات السياسية بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الإسلامي(543 – 648هـ/ 1152 – 1650م)، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1989م.

21- طرخان، إبراهيم علي، النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968م.
22- طقوش، سهيل، محمد، تاريخ الزنكيين في الموصل وبلا الشام، دار النفائس بيروت، 1999م.
23- ـــــــــــ، تاريخ الفاطميين في شمالي إفريقية ومصر وبلاد الشام، دار النفائس بيروت، 2001م.
24- العسلي، بسام، نور الدين القائد، دار النفائس بيروت، 1986م.
25- عاشور، سعيد عبد الفتاح، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية بيروت، 1991م.
26- ـــــــــــــــ، الحركة الصليبية، (صفحة مشرفة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى)، مكتبة الأنجلو المصرية، 1999م.
27- ـــــــــــ أوروبا العصور الوسطى، النظم والحضارة، دار النهضة العربية القاهرة، 1963م.
28- عاشور، فايد حامد محمد، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية (العصر الفاطمي السلجوقي الزنكي)، مؤسسة الرسالة، 1985م.
29- عوض، محمد مؤنس، في الصراع الإسلامي الصليبي، السياسة الخارجية للدولة النورية (541 – 569هـ/ 1146 – 1174م)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1998م.
30- عمران، محمود سعيد، معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1992م.
31- عطية محمد حسين، إمارة أنطاكية الصليبية والمسلمون، دار المعرفة الجامعية، 1989م.
32- علي محمد كرد، خطط الشام، دار العلم للملايين بيروت، ج1، 1969م.
33- غنيم، أسمت، الدولة الأيوبية والصليبيون، دار المعرفة الجامعية، 1990م.
34- قاسم عبده قاسم، الخلفية الإيديولوجية للحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1999م.
35- ـــــــــــ، ماهية الحروب الصليبية، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية (د. ت).
36- كيلاني، محمد سيد، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام، الناشرون دار المحدودة، لندن، 1985م.
37 - المعاضيدي، خاشع، الحياة السياسية في بلاد الشام خلال العصر الفاطمي(359-569هـ/ 996-1171م)، دار الحرية، بغداد، 1975م.
38- مقبل، فهمي توفيق مقبل، الفاطميون والصليبيون، الدار الجامعية للنشر بيروت، 1980م.
39- المطوي، محمد العروسي، الحروب الصليبية في المشرق، دار الغرب الإسلامي، 1982م.
40- مؤنس، حسين، نور الدين محمود، الدار السعدية للنشر والتوزيع جدة، 1984م.

41- النبراوي، فتحية، العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية (1000-1300م)مكتبة وهبة القاهرة، 1982م.
42- الناصر، محمد حامد، الجهاد والتجديد في القرن السادس الهجري، عهد نور الدين وصلاح الدين، مكتبة الكوثر، للنشر والتوزيع، 1998م.

## خامسًا: المراجع الأجنبية:ــ

1- باركر، ارنست، الحروب الصليبية، ترجمة، السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ت).
2- براور، يوشع، عالم الصليبيين، ترجمة قاسم عبده قاسم، محمد خليفة حسن، دار المعارف، 1981م.
3- رانسيمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة نور الدين خليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994م.
4- زابوروف، ميخائيل، الصليبيون في الشرق، دار التقدم موسكو، (د.ت).
5- قيز، قولفغانغ مولر، القلاع والحروب أيام الحروب الصليبية، ترجمة، محمد وليد الجلاد، سعيد طيان، دار الفكر دمشق، ط2، 1982م.
6- كولتون ج.ج، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة جوزيف نسيم يوسف، دار النهضة العربية بيروت،1981م.
7- كين، موريس، حضارة أوروبا العصور الوسطى، ترجمة، قاسم عبده قاسم، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2000م.
8- ماير، هانس أبرهارد ماير، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة عماد الدين غانم، منشورات مجمع الفاتح للجامعات، طرابلس، 1990م.
9- هليسنز، س. ورن، أوروبا في العصور الوسطى، ترجمة، محمد فتحي الشاعر، مكتبة الأنجلو المصرية (د.ت).

## سادسًا: الدوريات:ــ

[1]- أبو الهيجاء، فؤاد حسن حسين، بيت المقدس في شعر الحروب الصليبية، مجلة البحوث التاريخية، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، العدد2، السنة16، 1994م.
2- سالم، جمال محمد، المخطط الكلوني الأوروبي وأثره في الحملات الصليبية على المشرق العربي، مجلة آفاق التاريخية، السنة الأولى، العدد الأول، 1996م.

3 ـ قاسم عبده قاسم، صورة المقاتل الصليبي في المصادر العربية، المجلة التاريخية المصرية، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مج27، 1981م.
4 ـ النبراوي، فتحية، حياة الإمبراطور الكسيوس كومينوس كمصدر من مصادر تاريخ العلاقات بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي في القرن الثاني عشر الميلادي، المجلة التاريخية المصرية، مج، 27، 1981م.
5ـ عوض محمد مؤنس، أضواء على إشكالية دراسة تاريخ الحروب الصليبية في القرنيين 6ـ7هـ/ 12ـ13م، حوليات التاريخ الإسلامي والوسيط، مصر العربية للنشر والتوزيع، 2003م.